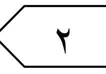
البيـــان في سياق بلاغة النسق القرآنـي

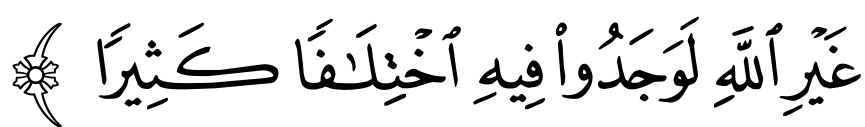
تأليف

أ. د. عقيـــد خـــالد حمــودي العــزاوي
الجامعة المستنصريّة
مركز المستنصريّة للدِّراسات العربيّة والدوليّة



بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَۚ وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ



صدق الله العظيم

«سورة النساء: الآية ٨٢»

الإهداء

إلى... **روح والدتي** (طيّب الله ثراها)... التي كان لفضل دعائها وحرصها في تربيتها إليَّ أن أكون ما أنا عليه اليوم...

أُهدي إليها هذا الكتاب

ردّاً لشيءٍ من جميلها

المؤلف

المقدمـة

الحمد لله الذي أنزل الكتاب على عبده ونبيه محمد ﷺ، ولم يجعل له عوجاً، فكان حُجَّته البالغة ودليل نبوّته، كتابٌ أحكمت آياته، ثم فصّلت من لدن حكيم خبير، بلسان عربيّ مبين، والصلاة والسلام على رسوله الأمين الذي بعثه الله رحمةً للعالمين، وشرّفه بكتابه المبين جعله نوراً ساطعاً، يهدي به من يشاء من عباده إلى صراطه المستقيم.

وبعد... فإنّ القرآن كلام الله المعجز للخلق في أسلوبه ونظمه، وفي علومه وحكمه وفي تأثيره على الخلق وكشفه الحجب عن الغيب، وفي كلّ باب من هذه الأبواب للإعجاز وجوه، وقد تحدّى رسول الله محمد ﷺ بإعجازه العرب قاطبةً، وحكى عن ربّه القطع بعجزهم عن الإتيان بسورة من مثله، فظهر عجزهم على شدة حرص بلغائهم علل إبطال دعوته، ونقل المسلمون هذا التحدي إلى جميع الأُمم، فظهر عجزها أيضاً.

فكلّ كلمة من كلمات القرآن تتكرر في القرآن كلّه بنظامٍ بديع متناسق ومحكم. هذا التناسق العجيب يبرهن على استمالة الإتيان بمثل هذا القرآن الذي قال الله عنه: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [النساء، الآية: ٨٢].

وكما يبرهن على إنّه لو كَانَ كلام بشر لما رأينا فيه مثل هذه التناسقات والتدرجات اللغوية والبيانية والسياقية، وَهَذَا ما أمرنا الله ﷻ أن نتدبره فَقَالَ: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ [النساء، الآية:٨٢].

فكان نظمه أحد وجوه إعجازه، بل هُوَ الوجه الأشهر فيه الذي قَالَ به الأكثرون، ويظهر ذَلِكَ بوضوح فِي وضعه كُلّ لفظ الموضع اللائق به، بحيث لو نزعت منه لفظة، ثم أدير لسان العرب على لفظة أحسن منها لم توجد، ووجه ذَلِكَ أنّ الله أحاط بكل شيء علماً، فإذا نظمت اللفظة مع غيرها فِي القرآن، علم بإحاطته أي لفظة تصلح أن تلي الأولى، ويتبيّن المعنى بعد المعنى، ثم كذلك من أول القرآن إلى آخره، والبشر يعتريهم الجهل والنسيان، فلا يستطيع أحد منهم أن يحيط بذلك، وبهذا جاء نظم القرآن فِي الغاية القصوى من الفصاحة.

وَهَذَا الاختيار للألفاظ ووضعها اللائق بها فِي المقامات المختلفة هُوَ ما يسمى بالمناسبة بين اللفظ والسياق، سواء أكان لغويّاً أو سياق الحال وهذه المناسبة هي ما تعرف عند البلاغيين بمطابقة الكلام لمقتضى الحال، وهي تعد أحد وجوه الإعجاز فِي القرآن الكريم.

ودراستنا هذه تتناول سياقات وتناسق آيات القرآن الكريم، ومن المعلوم للقارئ أنّ سياقات الكلام تختلف باختلاف المقام، فتختلف الألفاظ والجمل تبعاً لذلك، وما يصلح من لفظ فِي سياق لا يصلح فِي غيره، ولا يؤدي نفس المعنى والدلالة.

ومقامات الكلام وسياقاته هي التي تحمل تلك الأغراض التي سيقت لأجلهِ ومن موضع لآخر، فليس الغرض متعلقاً أو دالاً من حيث لفظته المفردة، ولكنه يأتي من النظر فِي التركيب وتعلق الألفاظ ببعضها.

وهذه المناسبات والسياقات هي ما تعرف عند البلاغيين بمطابقة الكلام لمقتضى الحال، وتعد أحد وجوه إعجاز القرآن الكريم من الناحيتين اللغوية

والبلاغية، فأمّا اللغوية فيتعلق باللفظ وأحواله المختلفة وارتباطه بالظروف المحيطة به، وأمّا من حيث البلاغة فمتعلق بعلم المعاني وارتباطه باللفظ وعلاقته بالمعنى، ومن خلال هَذَا كله نستطيع أن نوضح العلاقة بين المناسبة بين اللفظ بأحواله المختلفة والمقام وسياق الحال.

وكان ممّا دعاني للكتابة بهذا الموضوع أسباب عدة، منها:

– قلة الدراسات التي تناولت التناسق السياقي والبنائي للنص القرآني بهذا العنوان وَهَذا الارتباط.

– جمع أجزاء هَذا الموضوع من كتب البلاغة واللغة والتفسير وأقوال العلماء مع إضافة الأمثلة التطبيقية تتميماً للفائدة وبيان إعجاز القرآن الكريم.

– الرغبة الشديدة فِي إبراز ما يتصف به القرآن الكريم من إعجاز جماليّ فِي التناسق وسياق نظام القرآن الكريم سواء فِي كلماته أو آياته أو نضمه العجيب.

– توضيح تنظيم كلمات وآيات وسور القرآن وترتيبها لا يقتصر على دقة الكلمات والعبارات، بل هناك نظام بلاغي لتوضيح تدرج هذه الكلمات عبر سور القرآن أحببنا أن نوضحه للقرّاء. خدمةً لكتاب الله العزيز.

هذه الأسباب وغيرها هي ممّا دفعني أن أكتب فِي هَذَا الموضوع، وَقَدْ اقتضت طبيعة البحث والدراسة أن يكون من مقدمة وفصل تمهيدي وستة فصول: تناولت في الفصل التمهيدي التعريف بمفهومات السياق والتناسق القرآني وجاء بأربعة مباحث تناولت في المبحث الأول: السياق فِي اللغة والتناسق ودلالة السياق وأركان السياق أما المبحث الثاني تناولت فيه أهمية

السياق والتناسق القرآني، وجاء المبحث الثالث: مفهوم السياق في الفكر الغربي والعربي، وأنواع السياق العام والخاص، والسياق الثقافي والعاطفي، ثم يأتي المبحث الرابع: السياق اللغوي وأثره فِي تناسق آيات القرآن ومستوياته، الصوتي والصرفي والتركيبي والدلالي.

ثم يأتي الفصل الأول: وكان بعنوان بلاغة سياق النسق القرآني وجاء من أربعة مباحث: الأول: البيان في بلاغة سياقات ونسق آيات القرآن وأما الثاني: دلالة وحدة النسق القرآني والثالث: فوائد وحدة النسق القرآني، والرابع: الكشف عن وحدة نسق السورة القرآنية.

أما الفصل الثاني: فجاء بعنوان: أثر دلالة السياق القرآني في نسق المناسبات وكان من خمسة مباحث، الأول: أثر دلالة السياق في المناسبات والثاني: المستوى على مستوى كلمتين داخل التركيب (النسقي)، أما المبحث الثالث: مناسبة الكلمة القرآنية للسياق والرابع بعنوان مناسبة الفاصلة القرآنية للسياق النسقي أما المبحث الخامس فكان بعنوان: مناسبة نسق الآية للآية.

ثم يأتي الفصل الثالث وكان بعنوان: أثر السياق القرآني فِي بيان مدلول المفردة القرآنية في اشتراكها اللفظي، وجاء من مبحثين: الأول: المفردة القرآنية ومشتركاتها اللفظية، والثاني: أثر السياق القرآني فِي تحديد وتحرير المعنى المراد من المشترك اللفظي.

أما الفصل الرابع فكان بعنوان: أثر السياق فِي التناسق القرآني في علم المعاني وجاء على سبعة مباحث: تناولنا في المبحث الأول: أثر السياق القرآني فِي الدلالة على المحذوف وتقديره، والثاني: أثر السياق القرآني النسقي فِي الدلالة على التقديم والتأخير، والثالث: أثر السياق القرآني النسقي فِي الدلالة

على الإيجاز والإطناب، والرابع: أثر السياق القرآني النسقي فِي الدلالة على القصر والحصر، وأما المبحث الخامس فكان بعنوان: أثر السياق القرآني النسقي على التعريف والتنكير، والسادس: أثر السياق القرآني النسقي في الدلالة على الفصل والوصل، وأما المبحث السابع فكان بعنوان: أثر السياق القرآني في أسلوب الاستفهام وأنواعه وحروفه وما يتعلق به وهذا مع كل مبحث من مباحث الكتاب.

أما الفصل الخامس جاء بعنوان: السياق النسقي في علم البيان وكان من ثلاثة مباحث جاء المبحث الأول: بعنوان سياق التشبيه تناولنا فيه أركان التشبيه وأدوات التشبيه وتقسيمات التشبيه، ونماذج من صور سياق التشبيه النسقي، وأما المبحث الثاني فكان بعنوان: سياق الاستعارة النسقية في القرآن الكريم، تناولنا فيه أركان الاستعارة وأقسام الاستعارة باعتبار القرينة، وباعتبار المستعار، وباعتبار الطرفين، واعتبار الجامع، ثم أقسام الاستعارة باعتبار ما يتصل بها من الملائمات، ثم أشفعناه بنماذج من سياق الاستعارة النسقية في القرآن الكريم.

أما المبحث الثالث فكان بعنوان: الكناية وسياقها النسقي وجاء بتقسيمات عدة تحدثنا عن الكناية وتعريفاتها وأنواعها، كالمطلقة، والتعريض، والرمز، والتلويح، والإيماء. ثم أشفعنا المبحث بنماذج من روائع الكنايات القرآنية وبلاغة نسقها.

ثم يأتي الفصل السادس والأخير وجاء بعنوان: علم البديع وسياقاته النسقية، وكان من مبحثين، جاء المبحث الأول بعنوان: المُحسِّنات البديعية المعنوية، تناولنا فيه: المطابقة وأنواعها ووجه المناسبة بين المعنى اللغوي والمعنى الاصطلاحي، ثم المقابلة ومراعاة النظير وإيهام التناسب، وتشابه الأطراف

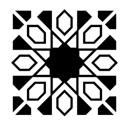
والأرصاد والاستخدام والمشاكلة واللف والنشر. أما المبحث الثاني فكان بعنوان: المحسنات اللفظية، تناولنا فيه: مدخل إلى المحسنات اللفظية وضحت فيه الجناس لغةً واصطلاحاً ثم موقع الجناس عند البلاغيين وأنواع الجناس: التام وغير التام وتناولنا أنواع الجناس التام، كالمماثل والمستوفي وجناس التركيب، وأما غير التام تناولنا فيه الجناس الناقص والمحرّف وجناس القلب ثم تناولنا السجع وتعريفاته اللغوية والاصطلاحية والسجع عند أهل البلاغة ثم تناولنا موضوع الفقرة والقرينة والفاصلة القرآنية وجاء حديثنا عن أنواع السجع (الفاصلة) تناولنا فيه المُطَّرف والمرّصع والمتوازي، ثم خاتمة بأهم النتائج التي توصل إليها البحث، وقائمة بأهم المصادر والمراجع التي أفاد منها البحث، وأسأله ﷻ أن يكون هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم.

والحمد لله في أوله وآخره

المؤلف

أ. د. عقيد خالد العزاوي

بغداد



الفصل التمهيدي

التعريف بمفهومات السياق
والتناسق القرآني

إنّ التعريف بمفهوم أي مصطلح علمي لأي علم مهم جدّاً لما فيه بيان عن معناه ودلالته، ليُعرف كيف وما هُوَ استعماله والقصد منه فِي ذَلِكَ العلم، وبخاصةٍ فِي علم البلاغة وبالتحديد البلاغة القرآنية، وكل مصطلح له مدلول لغوي ومدلول اصطلاحي، نبيّنه لمعرفة معنى اللفظة وماذا تعني، وكالآتي:

المبحث الأول

السياق

المطلب الأول: السياق فِي اللغة

له معانٍ عدّة منها:

الاستقامة، والتتابع وأصله (سِوَاق) فقلبت الواو ياءً بكسرة السّين، وهما مصدران من ساق يسوق سوقاً[1] ومنه انساقت وتساقت الإبل إذا تتابعت، وساق إليها الصداق والمهر سياق وإساقة[2] وكل ما انظم: فقد اتسق، والطريق يأتسق، ويتسق: أي: ينضم، وكل ما جمع فقد وسق[3].

فإذا توالت العناصر التي يتحقق بها التركيب والسبك، تسمى (سياق النص) وإذا توالت الأحداث التي صاحبت الأداء اللغوي، يسمى السياق (سياق الموقف).

والسياق اصطلاحاً: لم يحدد العلماء المتقدمين تعريفاً اصطلاحيّاً لمفهوم السياق. ووضع العلماء المعاصرين تعريفات عدة فِي ضوء بحثه السابقين وفصلوه فِي دلالات السياق، ومنها:

لفظة (السياق) تدل على الإطار الذي يجري فيه التفاهم ويشمل زمن الكلام والمفاهيم المشتركة والكلام السابق للمحادثة، الذي يؤدي إلى ترابط أجزاء الكلمات أو الجمل واتصالها أو تتابعها، وما توحيه من معنى، وهي

---

(١) ينظر: النهاية فِي غريب الحديث والأثر: ٢/٤٢٣، ٤٢٤.

(٢) ينظر: لسان العرب: ١٠/١٦٠.

(٣) ينظر: المحكم والمحيط الأعظم: ٦/٥٢٨، ٥٢٩.

مجتمعة ويُراد منه -أي السياق- القرينة[1].

والسياق هُوَ الذي يفرض قيمة واحدة بعينها على الكلمة على الرغم من المعاني المتنوعة التي فِي وسعها أن تدل عليها[2].

أو هُوَ الذي يخلص الكلمة من الدلالات الماضية التي تدعها الذاكرة تتراكم عليها وَهُوَ الذي يخلق لها قيمة حضورية[3].

والسياق يقوم على تركيب يوجد الارتباط بين أجزاء الجملة فيخلع على اللفظ المعنى المناسب[4].

وَهُوَ ما انتظم القرائن الدالة على المقصود من الخطاب، سواء أكَانَت القرائن مقالية أم حالية. وبتعبير آخر: هُوَ العبارات المكونة السابقة واللاحقة والغرض الذي جاء من أجله الكلام[5].

أو هُوَ فهم النص بمراعاة ما قبله وما بعده[6].

إذن **فالسياق القرآني**: هُوَ مجرى الكلام أو انتظامه في المعاني القرآنية فِي مسالك الألفاظ السابقة واللاحقة وانتظامه بعضه ببعض.

والسياق أعم وأشمل من المقام، والمقام ضمن السياق؛ لأنّ المقام هُوَ الحالة التي يقال فيها الكلام[7].

---

(١) ينظر: علم الدلالة العربية: ٣٢؛ وجماليات السياق القرآني: ١٨.

(٢) اللغة: ٢٣١.

(٣) المصدر نفسه: ٢٣١.

(٤) دراسات فِي فقه اللغة: ٣١٢.

(٥) نظرية السياق: ٦٣.

(٦) دلالة السياق وأثرها فِي التفسير: ٦٤.

(٧) ينظر: الجملة العربية والمعنى: ٦٣.

والتناسق في اللغة: هُوَ من (نسق) وَهُوَ ما كَانَ على نظام واحد عام فِي الأشياء، ونسقته نسقاً، ونسقته تنسيقاً، ونقول: انتسقت هذه الأشياء بعضها إلى بعض أي: تنسقت[1] لأنّ الشيء إذا عطفته على شيء صار نظاماً واحداً[2] ودرّ نسق أي: منظوم[3].

أمّا التناسق اصطلاحاً: التناسق: ترتيب الجمل، وعطف القضايا بعضها على بعض حسبما وقعت الأول فالأول، سواء ترتيب فِي اللفظ أو فِي المعنى[4].

وَهُوَ نظام الانسجام بين الأصوات[5].

أو هُوَ: أن يؤتى بكلمات متتالية معطوفات متلاحمات تلاحماً سليماً مستحسناً بحيث إذا أفردت كُلّ جملة منه قامت بنفسه، واستقل معناها بلفظها، كقوله تعالى: ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[6] فإنّ جملها معطوفة بعضها على بعض بواو، والنسق على الترتيب الذي تقتضيه البلاغة[7].

---

(١) العين: ٥/٨١.

(٢) تهذيب اللغة: ٨/٣١٣.

(٣) مجمل اللغة، لابن فارس: ١/٨٦٥.

(٤) ينظر: خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية: ٢/٤٥٩، ٤٦٣؛ الجدول فِي إعراب القرآن الكريم: ١٤/٣٧٥.

(٥) دراسات فِي علم اللغة: ١٩٦.

(٦) سورة هود: ٤٤.

(٧) أنوار الربيع فِي البديع: ١/٤٦٦؛ ونظرية السياق القرآني: ١٥.

ويستخدم لفظ (النسق) و(نسق الكلام) أو (نسق الآية) أو (نسق الحديث) للدلالة على السياق المتعالي، ومنه قولهم: (عطف النسق)[١].

المطلب الثاني: دلالة السياق

الدلالة لغة: دليل من الدلالة والدلالة بالكسر والفتح[٢] و(دل) الدال واللام: أصلان أحدهما أنّه الشيء بأمارة تتعلمها، والآخر اضطرب فِي الشيء، والدليل: الأمارة فِي الشيء. وَهُوَ بيّن الدلالة والدلالة[٣]، والدلالة أيضاً هي: كون الشيء وبحالة يلزم من العلم به العلم شيء آخر، والشيء الأول هُوَ الدال[٤] والدلالة أعم من الإرشاد والهداية[٥]؛ لأنّ الدلالة كون الشيء متى أطلق أمر فهم منه معناه للعلم بوضعه[٦].

والدلالة اصطلاحاً: كُلّ أمر صحّ أن يتوصل بجميع النظر فيه إلى علم ما لا يعلم بالاضطرار[٧].

أو هي فهم السامع مع كلام المتكلم كمال المسمى أو جزأه أو لازمه، أو هي كون اللفظ إذا أطلق دل[٨].

---

(١) نظرية السياق: ٦٥.

(٢) تهذيب اللغة: ٤٨/١٤.

(٣) مقاييس اللغة: ٢٥٩/٢.

(٤) التعريفات: ١٠٤.

(٥) الكليات: ٤٣٩.

(٦) تاج العروس: ٤٩٨/٢٨.

(٧) التلخيص فِي أصول الفقه: ١١٥/١.

(٨) شرح تنقيح الفصول: ٢٣؛ ينظر: بيان المختصر شرح مختصر ابن الحاجب: ٩٣/١.

وهي فهم المعنى من اللفظ إذا أطلق بالنسبة إلى العالم بالوضع[1].

أو هي ما يتوصل به إلى معرفة الشيء كدلالة الألفاظ على المعنى، ودلالة الإشارات والرموز والكتابة، والعقود فِي الحساب، وسواء كَانَ ذَلِكَ بقصد ممن يجعله أو لم يكن بقصد[2].

❑ دلالة السياق:

أنّها ترشد إلى تبيين المجمل والقطع بعدم احتمال غير المراد، وتخصيص العام، وتقييد المطلق، وتنوع الدلالة وَهُوَ من أعظم القرائن الدالة على مراد المتكلم فمن أهمله غلط فِي نظر، وغالط فِي مناظراته[3].

إذن فدلالة السياق القرآني: بيان الكلمة أو الجملة القرآنية منتظمة مع ما قبلها وما بعدها[4].

❑ ركنا السياق:

ومن تعريف السياق والمفهوم منه هُوَ تتابع أو توالي مجرى الكلام وانتظام المعاني القرآنية فِي سلك الألفاظ السابقة واللاحقة، يتبيّن أنّ للسياق ركنين، هما (ركن سابق) و(ركن لاحق).

والسابق لغةً: من سبق: والسين والباء والقاف، أصل واحد صحيح يدل على التقديم، يقال: سَبَقَ يَسْبِقُ سَبْقاً[5] فالسبق: التقدم، وَهُوَ ما قبل الشيء[6]،

---

(١) شرح التلويح عَلَى التوضيح: ١/٢٥٠.

(٢) المفردات فِي غريب الحديث: ٣١٧؛ ينظر: البحر المحيط فِي أصول الفقه: ١/٥٣.

(٣) البرهان فِي علوم القرآن: ٢/١٧٢.

(٤) دلالة السياق القرآني فِي تفسير أضواء البيان، للعلاّمة الشنقيطي: ١٤.

(٥) مقاييس اللغة: ٣/١٢٩.

(٦) الكليات: ٥٠٨.

والجمع (سابقات)[1].

والسياق السابق فِي الاصطلاح: هُوَ مطلع وأول الجملة أو النص القرآني المراد بيانه وإيضاحه[2].

أمّا **اللاحق لغةً:** من لحق، يقال لَحِقْتُه وألحَقته بمعنى تَبِعْتُه وأتْبَعْته. واللحق: شيء يُلحق بالأول[3] وَهُوَ ما يجيء بعد شيء يسبقه[4] أو ما يأتي بعد السابق[5].

والسياق اللاحق فِي الاصطلاح: هُوَ ما تبع مطلع النص القرآني وما يجيء بعده، أو هُوَ آخر ذَلِكَ النص[6].

إذن فمطلع النص القرآني وآخره يسمى السياق القرآني، أي إنّه: ما تساق فيه الألفاظ والعبارات متتابعة أولها بآخرها، سواء أكانت آية واحدة أم نصّاً قرآنيّاً كاملاً تلحق آخرها بسابقتها.

يتبيّن من ذَلِكَ أنّه هناك ترابطاً فِي النص القرآني منظّم ومرتّب يوضح دلالة النص ويبيّنه، يجعل اللفظ دالاًّ على المعنى المراد منه، كما فِي ألفاظ النصوص المنظومة المتتابعة المعطوفة الترتيب أي: متناسقة فِي المعنى والموضوع والإيقاع النفسي والفني والصوتي.

(١) معجم اللغة العربية المعاصرة: ١٠٢٩/٢.

(٢) دلالة السياق القرآني فِي تفسير أضواء البيان، للعلاّمة الشنقيطي: ١٧.

(٣) تاج العروس: ٣٥٠/٢٦، ٣٥١.

(٤) المعجم الوسيط: ٨١٨/٢.

(٥) معجم لغة الفقهاء: ٣٨٧/١.

(٦) دلالة السياق القرآني فِي تفسير أضواء البيان، للعلاّمة الشنقيطي: ١٧.

المبحث الثاني

أهمية السياق والتناسق القرآني

بما إنّ النص القرآني يختلف عن بقية النصوص، لما له من سمات معينة يمتاز بها تسوغ خصوصيته، كونه: «كلام الله تعالى، المنزل على محمد ﷺ، المتعبد بتلاوته». لذلك لم يقتصر الغاية والتعامل مع سياق ونسق النص القرآني على النحاة فقط بل تعداه إلى البلاغيين وتناولوه فِي كتب الإعجاز، وبديع القرآن، وتناوله الفقهاء والأصوليون فِي كتب الأصول والأحكام، والمفسرون فِي كتب التفسير بأنواعه، فقد كانوا أكثر وعياً واهتماماً بالسياق والنسق القرآني، لأهميته فِي تحليل النص وبيانه.

وكان المفسرون من أسبق العلماءِ الذين اهتموا بالسياق القرآني[1]. ويعد أصل من أصول علم التفسير، لا غنى للمفسّر عنه، لما له أثر ظاهر فِي تحليل النص[2]؛ لأنّه وسيلة مهمة من وسائل فهم كلام الله تعالى، وبيان المعنى الصحيح المراد للشارع الحكيم[3].

ونجد اهتمام المفسرين بالسياق والنسق القرآني من خلال تعريفهم لعلم التفسير، فعرفه أبو حيان، وَقَالَ: «التفسير علم يبحث فيه عن كيفية النطق بألفاظ القرآن، ومدلولاتها وأحكامها الإفرادية والتركيبية، ومعانيها التي تُحمل عليها حالة التركيب، وتتمات لذلك»[4].

---

(١) دلالة السياق: ١٠٣.

(٢) أرشيف ملتقى أهل التفسير: ٧٣٠٤؛ دلالة السياق وأثرها فِي التفسير: ٧٥.

(٣) ينظر: دلالة السياق: ١٠٣؛ وينظر: أرشيف ملتقى أهل الحديث: ٧٣٠٤.

(٤) البحر المحيط فِي التفسير: ٢٦.

فذكر أبو حيان فِي تعريفه مدلولاتها التركيبية، ومعانيها التي تُحمل عليها حالة التركيب، وَهَذَا ما يعتني به السياق والنسق فِي الآية أو النص القرآني، وزاد «وتتمات ذَلِكَ» قصد به الناسخ والمنسوخ وأسباب النزول وقصة توضح بعض ما أُبْهُم فِي القرآن ونحو ذلك(١).

وعرّفه الزركشي: «عِلم يُعرف به فهم كتاب الله المنزل على نبيه محمد ﷺ وبيان معانيه واستخراج أحكامه وحِكَمه واستمداد ذلك من علم اللغة والنحو والصرف وعلم البيان وأصول الفقه والقراءات ويحتاج لمعرفة أسباب النزول الناسخ والمنسوخ»(٢).

وذكر مساعد الطيار تعريفاً للتفسير ذكره الكافي (ت ٨٧٩هـ): «هو كشف معاني القرآن، وبيان المراد، والمراد من معاني القرآن أعم، سواءٌ أكانت معاني لغوية أم شرعية، وسواء كانت بالوضع أو بمعونة المقام وسوق الكلام وبقرائن الأحوال...»(٣).

وهذا التعريف أقرب لموضوعنا لاهتمامه بمعونة المقام وسوق الكلام وبقرائن الأحوال، أي: يدل على السياق والنسق القرآني فيه.

وللعلماء أقوال على إنّ السياق أصل معتبر في التفسير وأساساً في فهم الكلام عندهم، وتواترت أقوالهم في تأكيد ذلك وتقريره:

قال مسلم بن يسار عن أبيه: «إذا حدّثت عن الله حديثاً فقف، حتى تنظر ما قبله وما بعده»(٤).

---

(١) ينظر: البحر المحيط فِي التفسير: ٢٦.
(٢) البرهان فِي علوم القرآن: ١٣/١.
(٣) مفهوم التفسير: ٦٨؛ التيسير في قواعد التفسير: ١٢٤-١٢٥.
(٤) تفسير القرآن العظيم: ١٣/١.

وقال عز الدين بن عبد السلام: «السياق مرشد إلى تبيين المجملات، وترجيح المحتملات وتقرير الواضحات، وكلّ ذلك بعرف الاستعمال، فكلّ صفة وقعت في سياق المدح كانت مدحاً، وكلّ صفة وقعت في سياق الذم كانت ذمّاً»، كقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلۡحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾ [هود: ٨٧]، أي: السفيه الجاهل لوقوعه في سياق الإنكار عليه[١].

وقال ابن تيمية: «فمن تدبّر القرآن وتدبّر ما قبل الآية وما بعدها، وعرف مقصود القرآن، تبيّن له المراد»[٢].

وقال الشاطبي: «فلا محيص للمتفهم عن ردّ آخر الكلام على أوله، وأوله على آخره»[٣].

وقال: «ولا يصح الاقتصار في النظر على بعض أجزاء الكلام دون بعض»[٤].

وقال الزركشي: «دلالة السياق أنكرها بعضهم، ومن جهل شيئاً أنكره، وقال بعضهم: إنّها متفق عليها في مجاري كلام الله تعالى»[٥].

وقال محمد رشيد رضا: «وإنّ أفضل قرينة تقوم على حقيقة معنى اللفظة موافقته لّما سبق له من القول، واتفاقه مع جملة المعنى، وائتلافه مع القصد الذي جاء له الكتاب بجملته»[٦].

---

(١) الإمام في بيان أدلة الأحكام: ١/١٥٩، ١٦٠؛ بدائع الفوائد: ٤/٨١٥.

(٢) مجموع الفتاوى: ١٥/٩٤.

(٣) الموافقات: ٤/٢٦٥ .

(٤) الموافقات: ٤/٢٦٦.

(٥) البحر المحيط في أصول الفقه: ٨/٥٤.

(٦) تفسير المنار: ١/٢٠.

ومما تقدّم تظهر أهمية السياق في أمور، منها في سياق النص ومنها في سياق الموقف:

١- إنّ تفسير النصوص بعضها بعضاً فهي تعتمد استقراء النصوص (سياق القرآن) منها تفسير القرآن بالقرآن، وتفسير القرآن بالسنّة[١].

٢- تفسير النصوص بالقرائن والأحوال، ويبدو ذلك في أقوال الصحابة في التفسير؛ لأنّهم شاهدوا التتريل وعرفوا القرائن والأحوال، وهذا في سياق الموقف[٢].

٣- ومن معرفة القرائن والأحوال يعين على معرفة أسباب الترول لأهميتها عند المفسرين باعتبارها معيناً على فهم المراد من الآية، وقال ابن تيمية في «ومعرفة أسباب الترول يعين على فهم الآية، فإنّ العلم بالسبب يورث العلم بالمسبب»[٣].

وذكر الزركشي فوائد في معرفة أسباب الترول منها[٤]:

أ . معرفة وجه الحكمة الباعثة على تشريع الحكم.

ب. تخصيص الحكم عند من يرى أنّ العبرة بخصوص السبب.

ج. الوقوف على المعنى.

مثال ذلك ما أورده السيوطي حول قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلۡمَرۡوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِۖ فَمَنۡ حَجَّ ٱلۡبَيۡتَ أَوِ ٱعۡتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَاۚ وَمَن تَطَوَّعَ

(١) ينظر: دلالة السياق: ١٠٦.

(٢) ينظر: المصدر نفسه: ١٠٦، ١٠٧.

(٣) مجموع الفتاوى: ٣٣٩/١٣.

(٤) البرهان في علوم القرآن: ٢٢/١.

﴿خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١٥٨]، حيث قال: «فإنّ ظاهر لفظها لا يقتضي أنّ السعي فرض، وقد ذهب بعضهم إلى عدم فرضيته تمسّكاً بذلك، وقد ردّت عائشة رضي الله عنها هذا الفهم بسبب نزولها، وهو أنّ الصحابة تأثموا من السعي بينهما لأنّه من عمل الجاهلية»[1].

١- وبعد الزمان والمكان من العناصر السياقية التي اهتم بها المفسرون، فإنّ الفرق في المكي والمدني فرق خطابي أساساً يعتمد على الموضوعية التي تعتمد بدورها على الأحوال المكانية والزمانية في المسموع مكان أو زمان نزوله، وهذه إشارة واضحة عميقة لسياقي النص والموقف عند المفسرين، للبحث عن دلالات النصوص والاستنباط منها[2].

٢- إنّ السياق القرآني مهم عند المفسرين في حلّ الخلاف والإشكال والتشابه اللفظي في الآيات، والسياق من أعظم القرآن في الترجيح، لأنّ المفسرين تناولوا القرآن من الناحية اللغوية والدلالية في تحليل النص (الآية — السورة) من الناحية اللغوية (صوتية وصرفية ونحوية)، ومن الناحية الدلالية (لفظية وتركيبية وأسلوبية) (معاني وبيان)[3].

قال ابن القيم: السياق يرشد إلى تبيين المجمل وتعيين المحتمل والقطع بعدم احتمال غير المراد وتخصيص العام وتقييد المطلق وتنوع الدلالة.

قال تعالى: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾ [الدخان: ٤٩] تجد

---

(١) الإتقان في علوم القرآن: ١/١٠٩.

(٢) ينظر: دلالة السياق: ١١٣، ١١٥.

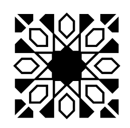
(٣) ينظر: المصدر نفسه: ١١٠؛ وأرشيف ملتقى أهل الحديث: ٧٣٠٤.

سياقه يدل على إنّه الذليل الحقير[1].

وَقَالَ ابن جزي فِي وجوه الترجيح: «أن يشهد بصحة القول سياق الكلام، ويدل عليه ما قبله أو ما بعده»[2].

١- والسياق والنسق هو الدال على المناسبات والكاشف لأسرار التعبير، وإنّ الربط بين الصدور والفواصل في الآيات، وعلاقة أولها بآخرها، وعلاقتها بين الآيات وبين السور هو دراسة نصيّة السياق فيها، ويظهر ذلك بوضوح فيما سمي (علم المناسبات)، ثم اختصت لأبي الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي (ت ٨٨٥هـ)، وتفسير (تناسق الدرر في تناسب الآيات والسور) لجلال الدين السيوطي[3].

٢- وتأتي أهمية السياق والنسق القرآني في فهم المعنى، وذلك أنّ الكلمة تكتسب مدلولها من السياق، وأنّ النظم يتوخى معاني النصوص وأحكامه ووجوهه فيما بين معاني الكلم، ولا يُتصوّر أن تفتقر المعاني المدلول عليها بالجمل المؤلفة إلى دليل يدل عليها زائد على اللفظ، لأنّه لا يمكن فهم أية كلمة بمعزل عن الكلمات الأخرى ذات الصلة بها[4].



(١) ينظر: بدائع الفوائد: ٤/٩، ١٠.

(٢) تفسير ابن جزي: ١/١٩.

(٣) ينظر: دلالة السياق: ١٢٠؛ ودلالة السياق القرآني: ٢٢.

(٤) ينظر: دلائل الإعجاز: ٣٨٢، ٣٨٥؛ ينظر: في النص الأدبي: ٦٧؛ ينظر: اللغة والمعنى والسياق: ٨٣؛ ينظر: دلالة السياق القرآني: ٢١.

المبحث الثالث

مفهوم السياق في الفكر الغربي والعربي

يطلق مصطلح السياق (Context) في الفكر الغربي على أجزاء القول أو النص أو القريبة من الوحدة اللغوية المراد تفسيرها[1].

وهو على نوعين[2]:

الأول: ما يعني من نص يحيط بكلمة أو قطعة معينة يحدد معناها، وهو ما يعرف بالسياق اللغوي للنص، أو سياق النص.

والثاني: ما يعني الظروف المختلفة التي يقع فيها حدث معين وتحدد معناه سواء أكانت هذه الظروف مستقرة أم متغيرة، وهو ما يعرف بسياق الموقف، وسياق الثقافة.

فالسياق في الفكر الغربي وحده المسؤول عن إيجاد المعنى الدقيق لأي نصٍّ لا العلاقات العقلية بين الدال والمدلول[3].

❑ مفهوم السياق في الفكر العربي[4]:

إنّ مفهوم السياق في الفكر العربي هو مطلع النص السابق وآخر النص اللاحق، أي إنّ السياق هو علاقة المعنى بالمعنى السابق واللاحق أو هو تتابع

---

(١) السياق والمعنى: ١٢؛ دلالة السياق: ٥١.

(٢) ينظر: السياق والمعنى: ١١؛ ودلالة السياق: ٩٢.

(٣) ينظر: السياق والمعنى: ١١؛ جدلية السياق والدلالة في اللغة العربية للنص القرآني أنموذجاً: ٣٦.

(٤) ينظر: نظرية السياق القرآني: ١٥، ١٩.

المعاني في سلك الألفاظ القرآنية، لتبلغ غايتها الموضوعية في بيان المعنى المقصود، دون انقطاع أو انفصال.

المطلب الأول: أنواع السياق

ينقسم السياق إلى أنواع عدة، باعتبارات مختلفة، هي:

أولاً: باعتبار العموم والخصوص وينقسم إلى:

١- السياق العام أو سياق السورة.

٢- السياق الخاص أو سياق المقطع.

١- والسياق العام (سياق السورة):

هو الذي يكون من بداية السورة حتى منتهاها، والذي يشكل وحدة عضوية متكاملة متتامة[١]، وهو يعني المعاني المنتظمة في السورة الواحدة في موضوع واحد أو موضوعات ربطت بينها مناسبة[٢] وهو نوعان[٣]:

أ . سياق ذو مقاطع متعددة.

ب. سياق غير متعدد المقاطع.

النوع الأول: هو ما يتناول عدة موضوعات تدور حول ركيزة أساسية في السورة، تتوجه الموضوعات والمعاني نحوها، ويختلف الناظرون أحياناً في توصيف وتحديد موضوع هذه الركيزة، ويتفقون أحياناً أخرى.

---

(١) ينظر: نظرية السياق القرآني: ٧٧.

(٢) ينظر: دلالة السياق القرآني: ١٨؛ ينظر: دلالة السياق وأثرها في التفسير: ١٠٤.

(٣) ينظر: نظرية السياق القرآني: ٧٧، ٧٨.

والنوع الثاني: فتوصيف وتحديد الموضوع فيه يكون أقرب إلى الموضوع في رؤية الباحثين.

ومثال السياق العام ما ذكره ابن جرير الطبري -رحمه الله- في تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ [الصافات: ١٥٨] وهل المعنى هنا حضور العذاب أو حضور الحساب؟

قال: «وأولى القولين في ذلك بالصواب قول من قال: إنّهم لمحضرون العذاب، لأنّ سائر الآيات التي ذكر فيها الإحضار في هذه السورة، إنّما عُني به الإحضار في العذاب، فكذلك في هذا الموضع»[(١)].

وترجيح الطبري رحمه الله لهذا المعنى كان بناءً على رؤيته لسياق السورة.

٢- السياق الخاص (سياق المقطع):

وهو معرفة المعاني التي احتواها المقطع في السورة، وذلك لبيان الوجه الراجح من الوجوه المحتملة للألفاظ القرآنية أي: المعاني التي انتظمت في مجموعة من الآيات أو في الآية الواحدة إذا كانت طويلة[(٢)].

ومثال السياق الخاص ما ذكره الطبري رحمه الله في تفسيره لقوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١٩٤]، قال: إنّما هو في سياق الآيات التي فيها الأمر بالقتال والجهاد، والله جلَّ ثناؤه إنّما فرض القتال على المؤمنين بعد الهجرة؛ لأنّ قوله تعالى في هذه الآية مدني لا مكّي، إذ كان فرض قتال المشركين لم

---

(١) ينظر: جامع البيان: ١٢٢/٢١.

(٢) ينظر: نظرية السياق القرآني: ٩٠؛ دلالة السياق القرآني: ١٨.

يكن وجب على المؤمنين بمكّة[1].

المطلب الثاني: ثانياً: باعتبار مفهومه المعنوي

ينقسم إلى[2]:

١- السياق الثقافي (الاجتماعي).

٢- السياق العاطفي (الانفعالي).

والسياق الثقافي: هو السياق الذي يكشف عن المعنى الاجتماعي أو الثقافي الذي توحي به الكلمة أو الجملة في إطار حضارة معينة أو مجتمع معين أو جماعة معينة، لذا فهو يحدد المحيط الثقافي والاجتماعي الذي نشأ فيه النص، فكلّ عصر له ثقافته -الاجتماعية والسياسية والدينية- التي تميزه عن غيره من العصور، واللغة بوصفها انعكاساً لهذه الثقافة أو تلك تحوي كلّ منها خصوصيتها، ذلك أنّ للكلمة ارتباطاً وثيقاً بالثقافة، فهي تحمل مدلولات تتغير من عصر لآخر، فالكلمة والجملة واللغة تأثرت بالمجتمع وأثرت فيه، فوجدت بينهما علاقة قوية لا يستطيع أي شخص أن ينكرها، فمن متطلبات الفهم الصحيح للنص يتطلب الإحاطة والإلمام بثقافة ذلك العصر. ومن أمثلة ذلك استخدام كلمة (عقيلة) للدلالة على الطبقة الاجتماعية المتميزة بالنسبة إلى كلمة (زوجة) في العربية المعاصرة، أو كلمة (كريمة) بالنسبة إلى كلمة (الابنة الكبرى).

أمّا **السياق العاطفي**: وهو الذي يحدد درجة الانفعال قوةً وضعفاً

---

(١) ينظر: جامع البيان: ٥٨١/٣.

(٢) ينظر: نظرية السياق: ٨٢، ٨٣، ٨٤؛ وينظر: السياق والمعنى: ٢٦، ٢٧.

وسكوناً، إذ يختار المتكلم الكلمات ذات الشحنة التعبيرية القويّة إذا تحدّث عن أمر فيه شدة انفعال، فهو يتولى الكشف عن المعنى الوجداني ويحدد طبيعة استعمال الكلمة بين دلالاتها الموضوعية ودلالاتها العاطفية، بمعنى استعمال الكلمة في غير معناها الموضوعة هي له، لباعث عاطفي، كاستخدام لفظ (يودّ)، فهو غير لفظ (يُحب)، على الرغم من اشتراكهما في أصل المعنى، وهو الحب، فإنّ مضمونهما العاطفي متفاوت، ومثل (يكره) مع (يبغض). ويسمى المفهوم المعنوي بنوعيه السياق المقاصيدي(١).

فلا يمكن فهم اللغة وقوانين تطورها بمعزل عن حركة المجتمع الناطق بها في الزمان والمكان المعينين؛ لأنّ فيها من الإنسان فكرة، وطرائقه الذهنية، وفيها من العالم الخارجي تنوعه وألوانه، كما يصحب هذان القسمان أداء صوتي خاص يشحن المفردات بمعانٍ انفعالية، وقد تصاحب الكلام إشارات وإيماءات (تنبيهات) خاصةً ترمز إلى مثل هذه المقاصد. وهذا الاعتبار يقوم على أساس التشابك العلائقي القائم بين النص، والمتعرض دوماً للتغيير والتحوير في البنى المعجمية والتركيبية الخاصة به، ممّا أدى إلى تحديد دلالة الكلمة يحتاج إلى تحديد مجموعة السياقات الواردة فيها، فجعلها تتكئ على عدة مفاهيم أخرى، مثل (الوضع)، و(الاستعمال) و(المقام التواصلي)، ممّا يساعد على إنتاج تلك الدلالة(٢).

ثالثاً: باعتبار النظم اللفظي للكلمة وموقعها والقرائن والأحوال:

---

(١) ينظر: مجلة الإحياء، العدد ٢٥، ١٤٢٨هـ-٢٠٠٧م؛ أثر السياق في فهم النص القرآن، عبد الرحمن بودرع: ٧٥.

(٢) ينظر: أرشيف منتدى الفصيح* ٣: ٣٦٨٦٣.

ينقسم إلى:

١- السياق اللغوي (سياق النص).

٢- سياق الموقف (سياق المقام أو الحال).

❑ والسياق اللغوي:

هو النظم اللفظي للكلمة والبيئة اللغوية للنص من مفردات وجمل وخطاب، المحيطة بالعنصر اللغوي، مثل قوله تعالى: ﴿بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ [البقرة: ١٣٥]، حذف الفعل (نتبع) والذي يقدر فعلاً ناصباً لـــ(مِلّةَ)، إذ يستعين بالسياق السابق للآية نفسها كأنّه قيل لهم: اتّبعوا، حين قيل لهم: ﴿كُونُواْ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ﴾.

ويحلل السياق اللغوي على وفق مستويات لغوية مختلفة: كالمستوى الصوتي ويدخل فيه النبر، والتنغيم، والمستوى الصرفي والمعجمي، المستوى النّحوي (التركيبي)، المستوى الدلالي، وَهَذَا المستوى الأخير هُوَ الركن الرئيس فِي النظرية السِّياقية، وخاصةً فِي التفسير القرآني[١]، إذن فالسياق اللغوي هُوَ حصيلة استعمال الكلمة داخل نظام الجملة[٢].

❑ سياق الموقف:

هُوَ القرائن والأحوال الخارجية التي تحيط بالكلام من ظروف وملابسات، والبيئة غير اللغوية التي تحيط بالخطاب وتبيّن معناه، وتشمل القرائن والأحوال أو

---

(١) ينظر: دلالة السياق: ٥٢، ٥٣؛ وينظر: السياق والمعنى: ١٣؛ ينظر: أصول النظرية السياقية الحديثة عند علماء العربية: ١/٧.

(٢) ينظر: نظرية السياق: ٨٢.

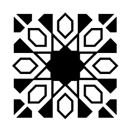
البيئة زمن المحادثة ومكانها والعلاقة بين المتحادثين، والقيم المشتركة بينهما، والكلام السابق للمحادثة. وسياق الموقف يحدد العلاقة بين موضوع التركيب والأسلوب الذي جاء عليها[1]. ويقترب مفهومها من (دلالة الحال) عند النحاة[2].

وسياق الموقف نجده ممثلاً فِي علم المخاطب بغرض المتكلم وموضوع الكلام حيث يستعان بعناصره فِي فهم الكلام بعد إنتاجه، وَهَذا النوع من السياق متمثلاً فيما عُرف «بأسباب النزول»، لأنّ تحكمه قرائن الأحوال وإشارات وحركات، ومن أمثلة ذَلِكَ: إلقاء التحية بعبارة (السلام عليكم) أنّه قَدْ يريد بها التحية فقط، أو تمهّد لكلام بعده، قَدْ يكون عتب، أو تشجيع على أمر، أو ثناء[3].

وكما أفاد المفسرون من السياق فِي تفسير النصوص القرآنية، أفاد علماء علوم القرآن فِي معرفة أسباب النزول -كما تقدم- ومعرفة إعجاز القرآن فِي كُلّ جوانبه العلمية، والتربوية، والبلاغية، واللفظية، والسياسية، والاقتصادية، والاجتماعية. وعلماء النحو فِي معرفة الحال من سياق الموقف، والبلاغيين فِي معرفة حقيقة الطلب فِي الأمر والنهي، والمجاز، والمشترك اللفظي. فضلاً عمّا تقدم أفاد علماء الأصول من القرائن السياقية، وَهي القرائن اللفظية والقرائن المقامية، وفهموا الأثر الذي تقوم به هذه القرائن فِي تحديد دلالة النص، ومن

(١) ينظر: البينة الأسلوبية فِي التركيب النحوي: ١٧٦/٨؛ وينظر: السياق والمعنى: ٢٥؛ ينظر: نظرية السياق: ٨٢.
(٢) ينظر: أصول النظرية السياقية الحديثة: ١٦/١.
(٣) ينظر: المصدر نفسه: ١٤/١.

عناصر السياق اللغوي التي اعتمد عليها الأصوليون فِي رصد الدلالات المختلفة للأمر والنهي وما يسمى بالنبر والتنغيم فِي الدراسات اللغوية الحديثة، وكذلك البحث فِي الدليل وتحليله باعتباره لغة، ليتحقق فهم النصوص وتفسيرها من جهة الحقيقة والمجاز، والعموم والخصوص، والإطلاق والتقييد، والمنطوق والمفهوم، والمظنون والغامض، أي: دلالة النص من حيث الوضوح والخفاء، وَهَذَا يعني أنّ بعض ألفاظ النص غير واضحة غامضة لا يعرف معناها عَلى تحديد الأمر الذي يجعل الفقيه يبحث عن القرائن اللفظية والمعنوية والحالية للكشف عن دلالته[1].



(١) ينظر: دلالة السياق: ١٣٣؛ ينظر: أصول النظرية السياقية الحديثة: ١/١٣؛ ينظر: أرشيف منتدى الفصيح: ٣: ٣٦٨٦٣؛ ينظر: أصول الفقه فِي نسيجه الجديد: ٥٥٦.

المبحث الرابع

السياق اللغوي وأثره فِي تناسق آيات القرآن ومستوياته

تجتمع المفردات فِي مجالات دلالية، لأنّ الكلمة مكانها فِي نظام من العلاقات التي تربطها بكلمات أخرى فِي المادة اللغوية[1]، وَهَذا النظام هُوَ السياق اللغوي الذي يقوم عَلى أساس التشابك العلائقي القائم بين وحدات اللغة والمتعرض دوماً للتغيير والتحوير فِي البنى المعجمية والتركيبية الخاصة به، لأنَّه عبارة عن النظم اللفظي للكلمة والبيئة اللغوية للنص، ممّا أدى إلى أنّ تحديد دلالة الكلمة يحتاج إلى تحديد مجموعة السياقات الواردة فيها، فلا تتوافر للكلمة معنى كامل خارج السياق، فضلاً عن المعنى المركزي للمنطوق، وَهُوَ أصل دلالة المنطوق، فضلاً عن دورانه فِي فلك الأنساق الكلامية المتنوعة[2] وهذا يدل على أثره فِي تناسق آيات القرآن الكريم، والتناسق والربط تارة يكون ظاهر جلي، وتارة يكون باطن خفي[3] وهذا التناسق والربط بنوعيه بين الآيات أو النص القرآني، له أثرهُ فِي فهم المعنى الدلالي والانفعالي والذوق الحسي والمعنوي والفني للآيات القرآنية.

وهذا الأثر للسياق اللغوي فِي تناسق آيات القرآن يتعين من خلال مستويات أربعة تساعد على التجانس والترابط اللفظي والمعنوي للآيات الكريمة، وكيف لا يوجد ترابط وتناسق وتجانس بينها وهي من لدن حكيم عليم.

وهذه المستويات هي:

---

(١) ينظر: أرشيف منتدى الفصيح: ٣٦٨٦٣.

(٢) ينظر: المصدر نفسه: ٣٦٨٦٣.

(٣) مناهج فِي تحليل النظم القرآني: ١٥٥.

المطلب الأول: المستوى الصوتي

هناك علاقة بين الصوت والدلالة فِي اللغة العربية أظهر ممّا فِي اللغات الأخرى، لأنّ اللغة نظام من الرموز الصوتية التي تقوم على مجموعة من العلاقات والقواعد والعناصر المتوافقة فيما بينها، وإن دراسة دور الأصوات فِي بيان المعنى يسمى فِي علم الأصوات العام بعلم وظائف الأصوات ومعرفته من المسلمات فِي النظرية السياقية، والمستوى الصوتي يعد من الملامح النطقية غير التركيبية المصاحبة للعملية الكلامية، والمشاركة فِي أداء الرسالة اللغوية، وَهَذَا المستوى له ظواهر أسلوبية مميزة فِي الكلام المنطوق[(١)] لذا فالمستوى الصوتي أو الدلالة الصوتية هُوَ المعنى المستفاد من نطق ألفاظ معينة[(٢)] وَهُوَ طريقة الداء اللغوي المصاحب للمنطوق، والذي يسمى فِي الدراسات الحديثة الفونيم، وهي:

أ - **النبر**: هُوَ درجة أو قوة النفس التي ينطق بها صوت أو مقطع، والصوت معروف. أمّا المقطع فهو عبارة عن صوتين الأول صامت والثاني صائت[(٣)] والنبر يعني الضغط على مقطع معين من مقاطع الكلمة، فيعطي لهذا المقطع المنبور قدراً من التمييز أو الوضوح السمعي، والذي يحمل بدوره قيمة دلالية كالانفعال أو الاهتمام أو التقرير أو التأكيد[(٤)]. أو هُوَ الذي يترجم لنا

---

(١) ينظر: دلالات الظاهرة الصوتية فِي القرآن الكريم: ٧٣؛ ينظر: السياق والمعنى: ١٤، ١٥؛ ينظر: أخطاء اللغة العربية المعاصرة: ٤٠.

(٢) الدلالة الصوتية الصرفية فِي سورة يوسف: ١.

(٣) السياق والمعنى: ١٥.

(٤) أصول النظرية السياقية الحديثة: ٤١؛ وينظر: النحو والسياق الصوتي.

المواقف الانفعالية التي تنطوي عليها نفسه أو هُوَ ارتفاع الصوت وانخفاضه مراعاةً للظروف المؤدى فيها[1].

والنبر على ثلاث درجات: النبر القوي، النبر المتوسط، النبر الضعيف.

ويقوم النبر بوظيفة التمييز بين المعاني فِي داخل الكلمة ويعمل جنباً إلى جنب مع التنغيم فِي التمييز بين الأساليب، لذا فهو ملمح من ملامح الكلمة أو عنصر من عناصرها التي تميزها عن غيرها، وتحيلها كلاًّ متكاملاً من حيث البناء والطلاء، وَهُوَ ضرباً من التطريز، تأكيداً لقيمته النسبية فِي بنية الكلمة، وهذا التطريز لا يعني مجرد التجويد والتزيين وإنّما يعني فضلاً عن ذَلِكَ أنّه عنصر يكسب بنية الكلمة تكاملها، ويمنحها قواماً متميزاً خاصّاً بها، الأمر الذي يجعل الكلمة وحدة متكاملة متسقة البناء والطلاء معاً، فيعد النبر مرتبطاً بقوة الصوت وعلوّه. وأنّ النبر يقع فِي أي مقطع من المجموعة الكلامية[2].

ومثال النبر فِي قوله تعالى: ﴿يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ﴾[3]، فلفظة (المفر) هذه، موضع النبر فيما يغير المعنى كاملاً، فإذا كانت النغمة هابطة عند النطق بالكلمة (مفر) بحيث تنتهي بحرف الراء، فإنّ المعنى ينقلب تماماً (مفَرْ) وبالتالي لابد لقارئ القرآن أن يتنبه إلى أن يكون النبر صاعداً عند النطق بالفاء وينتهي بالراء: م ف ر[4].

وَقَدْ يكون رسم الكلمة واحداً، إلاّ أنّ النطق يختلف، مثل: (ألم) و(ألف

---

(١) أرشيف ملتقى أهل الحديث: ١٤١٥٦.

(٢) ينظر: السياق والمعنى: ١٦؛ ينظر: مناهج البحث فِي اللغة: ١٦٣.

(٣) سورة القيامة: ١٠.

(٤) ينظر: أرشيف ملتقى أهل التفسير: ١٤١٥٦.

لام ميم). الأحرف المقطعة. و(ألم) على اعتبار الهمزة للاستفهام و(الألم) من الإيلام، فالنبر وحده هُوَ الذي يحل الإشكال[١].

ومثاله أيضاً فِي قوله تعالى: ﴿ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفۡسِهِۦۖ﴾[٢]، فيكون النبر على (امرأة)، ويكون المعنى كما يلي: امرأة متزوجة مُحصنة وتفعل فعلتها تلك هذا شنيع، والنبر أيضاً على (العزيز)، ويكون المعنى: امرأة العزيز تفعل ذَلِكَ، هَذَا شنيع، لأنّها ليست زوجة فلاّح أو فرّاش. وحُوّل النبر إلى (تراود)، فيكون المقصود كما يلي: المعوَد عند بني آدم -بل وحتى عند الحيوان- أن يكون الذكر هُوَ الطالب للأنثى فهو الذي يراود وهي التي تتدلل وتمتنع. وكذلك فِي لفظة فتاها: فما أشنع ما قامت به امرأة العزيز، وفيه معنى لا يخفى على أحد، لو راودت مثلاً شابّاً، أو رجلاً من طبقتها[٣]. لهذا يعد النبر من القرائن المهمة التي تساعد على فهم المقصود، لأنه التشديد فِي تلفظ صوت أو مقطع، لذا فهو مصطلح صوتي يعني الضغط على مقطع من مقاطع الكلمة ليجعله بارزاً وواضحاً فِي السمع أكثر من غيره من مقاطع الكلمة. وله وظيفة دلالية تتحدد وفق نوع النبر، فإن كَانَ النبر كلميّاً أظهر التباين الدلالي فِي السياق، وإن كَانَ نبراً مقطعيّاً أي: على مستوى المقطع أظهر التباين فِي الكلمة، فهو إبراز نطق حرف بكلفة دون غيره، فلهذا يكون النبر نداءً نفسيّاً يحمل كُلّ معاني الكلام، وتغيير النبر (الصوت) وتحويله يناسب أغراض الكلام، وَهُوَ الرسالة التي توصل المعنى إلى المستمع[٤]. فإنّ كُلّ زيادة

(١) أرشيف ملتقى أهل التفسير: ١٤١٠٦.
(٢) سورة يوسف: ٣٠.
(٣) أرشيف ملتقى أهل الحديث- ٣: ٢/٣٢٠.
(٤) أرشيف ملتقى أهل التفسير: ١٤١٥٦.

فِي قوة الصوت وجهده تستلزم قوة فِي الدلالة، وارتقاء فِي المعنى، وهذه من أبرز الخصائص للغة العربية، التي يدق فيها الالتحام بين الصوت والدلالة وفيها إشارات لانفعالات خاصة وألوان من الإحساس، فالأصوات القوية تناسب مواقف الشدة والزجر والتعنيف، والأصوات اللينة الهادئة الجرس تناسب حالات الرّخاء والهدوء والارتياح[١]. لذا انصهر فِي النصوص القرآنية الشكل مع المضمون، والصوت مع الدلالة، فانتظمت الأصوات فِي سياقات تركيبية مناسبة، فاكتسبت قوة ومتانة وقدرة إيحائية وتعبيرية خاصة.

ب- **التنغيم**: هناك معاني عدة لمصطلح التنغيم وهي:

- هُوَ الإطار الصوتي الذي قالت أو قيلت به الجملة فِي السياق[٢].

- وَهُوَ رفع الصوت وخفضه فِي أثناء الكلام، للدلالة على المعاني المختلفة للجملة الواحدة[٣].

- وَهُوَ عبارة عن تتابع النغمات الموسيقية أو الإيقاعات فِي حدث كلامي معين[٤].

- وَهُوَ المصطلح الصوتي الدال على الارتفاع (الصعود) والانخفاض (الهبوط)[٥]. أو هُوَ نوع من التلوين الصوتي الذي يكسو به المتحدث نطقه للكلمات أو الجمل، أو العبارات، فتبدو النغمة هابطة أو عالية، أو متوسطة،

---

(١) ينظر: دلالات الظاهرة الصوتية فِي القرآن الكريم: ٢٢٠، ٢٢١.

(٢) الدلالة الصوتية والصرفية فِي سورة يوسف: ٩؛ واللغة العربية معناها ومبناها: ٢٢٦.

(٣) المدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث اللغوي: ١٠٦؛ ومناهج البحث فِي اللغة: ١٦٤.

(٤) أسس علم اللغة: ٩٣.

(٥) علم اللغة مقدمة القارئ العربي: ١٥٩.

أو طويلة، أو قصيرة، لينة أو خشنة، رقيقة أو مفخمة، الأمر الذي يؤثر تأثيراً مباشراً على معنى الوحدة المصحوبة النغمة[1].

ولكل أسلوب نغمته الخاصة التي توضح الفرق بين الجمل الخبرية والإنشائية والاستفهامية، لذا هُوَ تغيرات موسيقية تتناوب الصوت من صعود إلى هبوط، أو انخفاض إلى ارتفاع لغاية أو هدف حسب المشاعر والأحاسيس التي تنتابنا من رضا أو غضب، ويأس أو أمل، تأثير أو لا مبالاة، إعجاب أو استفهام، شك أو يقين، نفي أو إثبات، فهو تنويعات صوتية تكسب الكلمات نغمات موسيقية متعددة، ويعد من قرائن التعليق اللفظية فِي السياق[2]. فالوظيفة الصوتية للتنغيم هي النسق الصوتي الذي يستنبط التنغيم منها بيان وتوضيح الدلالة من خلال التنغيم العام للمقطع فِي النموذج الفني، فهو يعد وسيلة للتمييز بين المعاني، ويجلّي النص ويوضحه ويبيّن مقاصد الكلام، وَهُوَ أكثر إيصال للمعنى[3].

فالتنغيم له دور فِي الأداء الصوتي والتناسب التركيبي فِي بيان الدلالة، وَهُوَ قمة الظواهر الصوتية التي تكسو المنطوق كله، وتتخلل عناصره المكونة له وتكسبه تلويناً موسيقيّاً معيناً بحسب مبناه ومعناه وبحسب مقاصده التعبيرية وفقاً لسياق الحال أو المقام[4]، وَهَذَا ما يفسر لنا قلة اختلاف النحويين والبلاغيين فِي النص القرآني، لسماعهم إياه من القرّاء بنبره وتنغيمه ووصله

(١) أصول النظرية السياقية الحديثة: ٤١.

(٢) الدلالة الصوتية والصرفية فِي سورة يوسف: ٩؛ ينظر: علم اللغة مقدمة للقارئ العربي: ١٦٠؛ ينظر: اللغة العربية معناها ومبناها: ٢٢٦.

(٣) ينظر: مناهج البحث فِي اللغة: ١٦٤؛ ينظر: مجلة جامعة أُم القرى: ٢٣.

(٤) ينظر: السياق والمعنى: ١٧.

وفصله، لأنّ فيه صفة إيقاعية وانسجام موسيقي بين مقاطع الكلمات ومن ذَلِكَ قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾[1]، فلا اختلاف فِي إنّ الأداة (هل) تفيد التحقيق؛ لأنّها بمعنى (قَدْ) وَهَذَا الأسلوب هُوَ خبري لا إنشائي، والذي رجح هَذَا المعنى هُوَ سماع هذه الآية من القرّاء بالتواتر، فمعرفة التنغيم أو الأداء يعين كثيراً فِي تحديد الأسلوب[2].

فالنص القرآني يحرص على الإيقاع النغمي فِي تعيين الأسلوب لبيان المعنى فضلاً عن الحفاظ على التناسب بين أصوات كلماته، لذا فهو راعى فكرة العلاقة بين الأصوات ودلالاها ووضعها فِي نسيج لغوي بلغ الغاية فِي الدقة والإحكام[3].

واللافت للنظر وبخاصة لقارئ القرآن الكريم يجد دقّة المستوى الصوتي على مسائل كثيرة، لعل أهمها مسألة المتقابلات فِي الظاهرة الصوتية، ونعني بها أنّ فِي القرآن ألفاظاً ترد فِي نمط صوتي معين فِي بعض السياقات، وترد على نمط صوتي آخر فِي سياق آخر أو سياقات أخرى، نحو (يشاق) و(يشاقق)[4].

فالأقوال من جمل وعبارات ونصوص ليست مجرد تتابعات من الكلمات فهناك ظاهرتان صوتيتان متميزتان، تعلوان الكلمات المتتابعة، أي: الأجزاء المنطوقة هي موسيقى الكلام والمصاحبات اللغوية، وتشمل هذه السمات: النبر والتنغيم[5] فكل منهما له وظيفة دلالية فِي تحديد المعنى، وهما من مهمات القرائن

---

(١) سورة الإنسان: ١.

(٢) ينظر: السياق والمعنى: ١٩.

(٣) ينظر: دلالات الظاهرة الصوتية فِي القرآن الكريم: ٧٤.

(٤) ينظر: المصدر نفسه: ١٦٣.

(٥) ينظر: اللغة وعلم اللغة: ٣٢.

للدلالة فهي ترشد إلى المراد، وتفرق بين الخبر والإنشاء وبين الجد والتهكم. إذن فثمّ علاقة بين المعنى فِي النفس، وبين تجلّيه فِي الأصوات والحركات.

فتأتي أهمية هذه المفاتيح الصوتية من إنّها تنتج نحو ٣٨٪ من الرسالة اللغوية[1] لذا يربط التنغيم عناصر التركيب بعضها ببعض. وتسمى هذه المفاتيح الصوتية أو المستوى الصوتي بالفونيمات وهي: أصغر وحدات صوتية تغييرها يغير المعنى، ولها أثر فِي بنية الكلمة وما يصاحب هذه البنية من معاني ودلالات. وهي على قسمين[2]:

١- **فونيمات رئيسية:** وهي تلك الوحدة الصوتية التي تكون جزءاً من أبسط صيغة لغوية ذات معنى منعزلة عن السياق. وهي النبر، لأنّها تتعلّق بالكلمة الواحدة.

٢- **فونيمات ثانوية:** وهي ظاهرة أو صفة صوتية ذات مغزى فِي الكلام المتصل؛ فالفونيم الثانوية لا تكون جزءاً من تركيب الكلمة، وإنّما تظهر وتلاحظ فقط حين تُضمّ كلمة إلى أخرى، أو حين تستعمل الكلمة بصورة خاصة، كأن تستعمل فِي جملة. وَهُوَ التنغيم، ويتغير نتيجة تغيره فِي السياق اللغوي الجاري فيه.

المطلب الثاني: النبر وعلاقته بالتنغيم[3]

إنّ النبر يكون على الكلمة وحدها، ودلالته صرفية والتنغيم يكون على مستوى الجملة ومجاله التراكيب، التي كونتها الكلمات داخل السياق، فالنبر

(١) أخطار اللغة العربية المعاصرة: ٤٠.

(٢) ينظر: بحوث فِي اللغة: ٤؛ وينظر: أسس علم اللغة: ٦٢؛ وينظر: دلالة السياق: ٣٥٢.

(٣) ينظر: بحوث فِي اللغة: ٤، ١٠؛ وينظر: دلالة السياق: ٥٣.

صنو التنغيم مثالاً على الفونيم الثانوية، فلا يكون جزءاً من تركيب معين للكلمة الواحدة، كالفونيم الرئيسة، فالنبر يكون بزيادة كمية من الهواء على صوت أو أكثر من أصوات الكلمة فِي التركيب الواحد، فيعلو هَذَا الصوت على بقية الأصوات الأخرى التي تشكل مقاطع الكلمة فيحدث التفاوت قوة وضعفاً بين الأصوات، فالصوت أو المقطع الذي ينطق أقوى يسمى صوتاً منوراً، وَهُوَ قوة التلفّظ، وتؤثر درجة النبرة فِي طول الصائت وعلو الصوت وللنبر أثراً فِي تغيير بنية الكلمة من معنى صرفي إلى آخر، فلو نطقنا كلمة (كَذَبَ) بفتحة على عين الفعل، لوجدت أنّ الأصوات فيها متساوية نبراً، لكن إذا ما نقطناها بـــ(كذّبَ) بالتضعيف، فإنّ عين الفعل تفاوت فِي النبر عن الأصوات الأخرى، ممّا جعله ينقل الكلمة إلى بنية أخرى ذات دلالة معينة، فتغيير الصفة الصرفية يؤدي إلى نوع من التغير فِي الوظائف النحوية والدلالية، ومن هنا جاءت أهمية النبر والتنغيم، فبينهما صلة وثيقة، فلا يحدث تنغيم دون نبر، لأنّ التنغيم تغيرات موسيقية تتناوب الصوت من صعود إلى هبوط، أو من انخفاض إلى ارتفاع، فهذا التغيير النغمي يقوم بدور كبير فِي التفريق بين الجمل، فهو حَكَم فِي دلالات التراكيب والجمل(١).

فالاتساق الصوتي الدلالي يبلغ ذروته فِي الأسلوب المحكم للقرآن الكريم، حيث نجد أصوات السياق تنهض لأداء الدلالة مصحوبة بجرسها اللائق، وصيغتها المناسبة، وإيحائها المميز، والجرس والإيقاع وعلاقته بالدلالة فِي القرآن الكريم بلغ الكثير منه، فهو يتخير الألفاظ تخيّراً يقوم على أساس من تحقيق

---

(١) ينظر: بحوث فِي اللغة: ٦، ٧؛ وينظر: اللغة العربية معناها ومبناها: ٣٠؛ وينظر: دلالة السياق: ٣٤٧.

الموسيقى المتسقة مع جو الآية، وجو السياق كله، بل جو السورة كلها، لأنّ مادة الصوت هي مظهر الانفعال النفسي، وأنّ هَذَا الانفعال بطبيعته إنّما هُوَ سبب فِي تنويع الصوت، بما يخرجه فيه مدّاً أو غنّة، أو ليناً أو شدّة[1].

۲- المستوى الصرفي والمعجمي:

المستوى الصرفي يعنى بدراسة الكلمة المنفردة وما يعتريها من ظواهر صرفية معروفة، وهي أبنية الصيغ المكونة لأسلوبنا، أي: مجال انتقال المفردات وتغيرات دلالتها وتغير بنيتها الصوتية وما يحدث فيها من اشتقاقات وإسقاط وحذف أو تسكين أو إدغام أو إبدال وإعلال ودمج، وتبادل بين الحركات يؤدي إلى تفريق صرفي وظيفي، فتنتمي صيغة ما إلى جنس صرفي معين، وبتغير مجال انتقالها أو إحدى حركات هذه الصيغة إلى جنس صرفي آخر[2].

والمستوى المعجمي وهي الدلالة الأساس التي تأخذها من الألفاظ الظاهرة على المعنى، إذ تعد من العوامل الرئيسية فِي فهم النص سواء كَانَ مسموعاً أو مقروءاً، فنجد لكل كلمة فِي اللغة دلالة معجمية مستقلة عن الدلالة الصوتية أو الصرفية أو النحوية، وهذه الدلالة متصلة بالمعنى الأساسي أو الأولي أو المركزي[3].

فالصرف يتكون من نظام من المعاني التي تعبّر عنها المباني، لأنّ هذه المباني

---

(۱) ينظر: دلالات الظاهرة الصوتية فِي القرآن الكريم: ۲۳؛ وينظر: نظرية السياق: ۲۳۰، ۲۳۱؛ ينظر: ظواهر أسلوبية فِي القرآن الكريم: ۳۳۸، ۳۳۹، ۳۷۹.

(۲) ينظر: السياق والمعنى: ۲۰؛ وينظر: أرشيف منتدى الفصيح- ۱: ۲٤۳۳؛ ينظر: مجلة مجمع اللغة العربية- القاهرة: ۲٥؛ ينظر: دراسات فِي علم اللغة: ۲۰۱، ۲۰۲.

(۳) ينظر: الدلالة والمعنى: ۲٥٥؛ وينظر: السياق والمعنى: ۲۱.

تتحقق بدورها بواسطة العلاقات، فمن المعاني والمباني تتكون اللغة ومن العلاقات يتكون الكلام، وأنّ الكلمات العربية يلحقها تعديل أو تحويل أو تحوير وتغيير بواسطة الحركات، فينتج عنه مجموعة من الصيغ الصرفية لكل منها قيمة معجمية دلالية مختلفة، فالألفاظ بوضعها الإفرادي المعجمي أو بعدّها مجموعة من الأصوات المنظمة على وفق قانون اللغة تحمل فِي ذاتها من المعاني نختار منها ما يناسب الموضوع الذي نتكلم عنه، فالمتكلم لديه مجموعة من الاحتمالات وَهُوَ يختار من هذه الاحتمالات المتاحة الأكثر ملائمة لما يريد قوله، والألفاظ فِي معانيها لا تكون على درجة واحدة فِي الاستعمال، فمنها متداولة بكثرة ومنها أقل دوراناً فِي حياتنا اليومية ومنها قليل الاستعمال أو نادر(١).

وتلجأ اللغة إلى صنع الكلمات من أساسها من خلال هَذَا النظام الصرفي على ألفاظ جديدة بتوليد مفردات جديدة من المواد اللغوية فتتطور الدلالة المعجمية وفق ذَلِكَ النظام. والدلالة المعجمية أو المعنى المعجمي هُوَ ذَلِكَ المعنى الذي تدل عليه الكلمة المعجمة، ويسمى المعنى المطلق، أو المعنى العرفي الذي أُعطى للكلمة ويصلح أن يسجله المعجم، والعلاقة بين الكلمة ومدلولها هي تلك العناصر اللغوية التي تعبّر عن ماهيات التصورات(٢) واتخاذ الكلمات المعجمية مراكز ضبط فِي حل المشكلات فِي النص إنشاءً وتحليلاً، لأنّها تترابط فِي الجملة من حيث هي ذوات دلالات مفهومية فِي الشكل(٣).

(١) ينظر: اللغة العربية معناها ومبناها: ١٦٤؛ وينظر: دراسات فِي علم اللغة: ٢٠١؛ وينظر: السياق والمعنى: ٢١.

(٢) ينظر: الدلالة والمعنى: ٢٥٦، ٢٥٧؛ وينظر: دلالة السياق: ٢٨٩.

(٣) ينظر: دلالة السياق: ٢٩٦، ٢٩٧.

فقوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ...﴾[1] والمعنى فِي لفظة (يصطرخون) غير المعنى فِي لفظة (يصرخون)، لأنّ الاصطراخ فيه يدعون ويستغيثون ويصيحون[2]، ويتصارخون يفتعلون من الصراخ[3] وَهُوَ الصياح بجهد ومشقة، واستعمل فِي الاستغاثة لجهد المستغيث صوته، وزيادة التحسر على ما عملوه من غير الصالح مع الندم والاعتراف به[4]، ويدعون بالويل والثبور، فضلاً عن إنّهم يطلبون الاستغاثة ولا يجدون ما يطلبون[5]، والاصطراخ فيه من الاضطراب وَهُوَ صوت المعذب مع طلب الاستغاثة وعدم إجابة الدعاء والاستغاثة وطلب الرجوع إلى الدنيا ليعملوا صالح غير الذي كانوا يعملون، يتبيّن من إنّ تغيير المبنى الصرفي للفظة (يصرخون) إلى (يصطرخون) قَدْ غير المعنى السياقي اللغوي لهذه الآية، ممّا أدى إلى تأثير ذَلِكَ على القارئ، بتدبّر أو السامع لهذه الآية فِي الوقع النفسي والعاطفي، والخشية من شدة الهول والفزع لما يكون عليه الكفار والظالمين من العذاب، فضلاً عن البر فِي هذه اللفظة والجرس النغمي الذي يؤثر على الوجدان، وما يهيّئ له من الحركات المختلفة فِي اضطرابه وتتابعه على مقادير تناسب ما فِي النفس من أصولها، وهذا التناسب والتناسق الجمالي في الصوت جعل من العبارة غاية في الدقة وروعة في الجمال.

---

(١) سورة فاطر: ٣٧.

(٢) تفسير الثعلبي: ١١٤/٨.

(٣) تفسير البوغي: ٦٩٨/٣.

(٤) تفسير الزمخشري: ٦١٥/٣.

(٥) تفسير الرازي: ٩٥/٣١.

يتعيّن من ذَلِكَ اختصاص الأبنية ببعض الدلالات لتوافق ما بين الصيغة الصرفية والمعنى الذي سكب فيها[1]، فاللفظ إذا كَانَ على وزن من الأوزان ثم نقل إلى وزن آخر أكثر منه فلابد أن يتضمن من المعنى أكثر ممّا تضمنه أولاً، لأنّ الألفاظ أدلة على المعاني[2]، وما الأبنية الصرفية فِي حقيقتها أبنية دلالية لأنّ بواسطتها يتم تعريف الكلمات لضروب من المعاني الجديدة[3].

٣- المستوى التركيبي (النحوي):

إنّ وظيفة اللغة هي التوصيل أو التعبير بواسطة الأصوات الكلامية المؤتلفة فِي كلمات، حيث تنتظم فِي ترتيب وتركيب معين، ومنها ذوات الصيغ (المعجمة)، ومنها لا صيغة له (الضمائر، وحروف الجر)، وتحتل الأبواب النحوية الأهمية في ذلك، وتقوم الكلمات التركيبية الأخرى بتلخيص العلاقة بين هذه الأبواب، أو الدلالة عليها، فترتبط الكلمات أسر بعضها البعض حتّى تصبح وهي متراصة أفقيّاً لأداء المعنى الدلالي أو المفهوم[4].

وَهَذَا الترابط التركيبي النحوي بين الكلمات هُوَ النظم اللفظي للكلمات والنظام أهم خاصية من خصائص اللغة، لأنَّه يحكم سلوك المتكلمين فِي استعمالهم للمفردات اللغوية، ولا وجود للغة بمجرد توافر المفردات بل لابد من وجود نظام يجمعها، ويحكمها ليكون لها وجود حقيقي فعلي، وواقع عملي، فالمستوى التركيبي يختص بقواعد اللغة التركيبية[5] وبه نعرف نسق

(١) دلالة السياق: ٣٤٩.

(٢) الإعجاز الصرفي: ٣٩.

(٣) الدلالة والمعنى: ٢١٦.

(٤) ينظر: دلالة السياق: ٤٠٢، ٥٤٥.

(٥) ينظر: الدلالة والمعنى: ٢٢٠.

المعاني، ونحدد أجزاءها، وبه أيضاً نربط بين معانيها ولولا هَذَا النظام من العلاقات الشكلية والمعنوية التي تنتظم النص لما كَانَ ما نتلفظ به كلاماً يعرب عن معنى[(١)].

وَهَذَا المستوى يرتبط بتنوع المقام والسياق، ممّا يؤدي إلى تنوع الأنماط التركيبية تبعاً لتعدد وظائفها الدلالية، والوقوف على الوظائف الدلالية للتراكيب النحوية يقتضي تتبع السياقات التي ترد فيها هذه التراكيب، لأنّ التراكيب بطبعها تفسح مجال الدلالة للألفاظ إذا انتظمت فيها، ممّا لا يكون هَذَا المجال لها وهي مفردة، لأنّ الكلمة المنفردة لا تحمل قيمة دلالية فِي ذاتها إلاّ إذا تمّ تنسيقها[(٢)].

والسياق اللغوي عامة عبر علاقاته التركيبية هذه يحقق فائدة فِي النص أو الأسلوب، فهو يرينا المحذوف مذكوراً والمضمر مظهراً، والمجمل مبيناً والعام خاصّاً، والمطلق مقيّداً والمتشابه محكماً، وأمّا اختلط أمره اتضح وما تعددت أوجهه انحصر على وجه واحد، وَقَدْ يكون الكلمة فِي النظم التركيبي أكثر من معنى معروف، فبهذه الحالة نحتكم إلى القرائن المرجِّحة لأحد المعاني، والسياق واحد من هذه القرائن المرجِّحة، إذ يعمل على التفريق[(٣)]، والاختيار بين المعاني، فكل لفظة لها معنى إفرادي تستقل به، فإذا أُدرجت ضمن سياق ما حملت أوجهاً من المعاني المختلفة[(٤)].

---

(١) ينظر: السياق والمعنى: ٢٢.

(٢) ينظر: التراكيب النحوية ووظائفها الدلالية: ٣.

(٣) ينظر: السياق والمعنى: ٢٢، ٢٣.

(٤) السياق والمعنى: ٢٣.

لذا فالظواهر الأسلوبية التي تقتضي التأمل فِي القرآن الكريم، ظاهرة الملازمة فِي التركيب النحوي، إذ تتلازم الأطراف النحوية، كملازمة الفعل للفاعل، والفعل للمفعول به، والنعت والمنعوت، والمعطوف والمعطوف عليه، والمبتدأ والخبر، وَهَذَا التلازم بينها يقع فِي سياق دلالي واحد، فِي أي موضع من مواضع القرآن الكريم، فالسياق النحوي يدرس البنية النحوية التي ترد فيها الكلمة بوصفها وحدة نحوية فِي كُلّ متسق، فحينما نتتبع ملازمة الفعل (أخذ) للفاعل (العذاب) فِي قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[(١)]، نجد إنّ الطرفين المتلازمين يشتملان على العناصر القصصية للسياق الدلالي لقصة ناقة صالح عليه السلام[(٢)].

وهناك ملازمات لغوية (مصاحبات لغوية) لا نكاد ننطقها إلاّ وتستصحب معها ألفاظاً أخرى معينة، مثل: (ريح عاصف)، (نخلة باسقة)، ولاشك أنّ هَذَا التخصيص فِي تراكيب العربية فِي النعت والإضافة والإسناد وَهُوَ نوع من الدقة فِي التعبير؛ لأنّ هذه الألفاظ المخصصة ببعض المعاني والأحوال توحي للسامع والقارئ الصورة الخاصة التي تقترن معها[(٣)]. فالنظام النحوي هُوَ نظام تركيب المفردات للتعبير عن الدلالة، ويعتمد على النظام الصوتي والصرفي والدلالي[(٤)].

---

(١) سورة الأعراف: ٧٣.

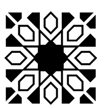
(٢) ينظر: ظواهر أسلوبية فِي القرآن الكريم: ٨٧؛ ينظر: جماليات السياق القرآني: ٣٤.

(٣) ينظر: ظواهر أسلوبية فِي القرآن الكريم: ٨٨.

(٤) ينظر: نظرية النظام اللغوي للقرآن الكريم: ٢٢، ٢٥.

٤- المستوى الدلالي:

إنّ المستوى الدلالي للسياق هُوَ التفاعل بين معاني المادة اللغوية والسياق، لذا تبرز أواصر القربى بين المعاني المختلفة للمادة اللغوية، وتختلف قدرة السياق على اجتذاب معاني المادة اللغوية عن سياق آخر، وكلما كَانَ المعنى السياقي عامّاً زاد قدرته على خلق التقاطع الدلالي بين المعاني للمادة اللغوية الواحدة وعموم المعنى المراد من السياق. والدلالة السياقية هي الدلالة التي يعينها السياق اللغوي وَهُوَ البيئة اللغوية التي تحيط بالكلمة أو العبارة أو الجملة، أو النص(١)، والبحث عن المعنى أو الدلالة هُوَ الركن الرئيسي فِي النظرية السياقية، وَهُوَ النتيجة الحتمية لدراسة المستويات الثلاثة المتقدمة(٢)، لأنه يشغل بتحليل المعاني المباشرة وغير المباشرة والصورة المتصلة بالأنظمة الخارجية عن حدود اللغة، وَهَذَا المستوى من مستويات دراسة العربية هُوَ من أجل ما يعتني به المجتهد والباحث عن تفسير كلام الله تعالى وكلام رسوله ﷺ، والفقه في العربية عبر مستواها الدلالي هو جناح المجتهد(٣).



---

(١) ينظر: ظواهر أسلوبية فِي القرآن الكريم: ١٣٥، ١٣٦؛ وينظر: دلالة السياق: ٥١، ٥٣.

(٢) ينظر: السياق والمعنى: ٢٤.

(٣) ينظر: المنهج البنيوي دراسة نظرية: ٤٢؛ ينظر: أرشيف ملتقى أهل الحديث: ٩٧/٩٦.

الفصل الأول

بلاغة سياق النسق القرآني

المبحث الأول

البيان في بلاغة سياقات ونسق آيات القرآن

المطلب الأول: النسق القرآني لغة واصطلاحاً

النسق القرآني: تركيب يُعبِّر عن دراسة الخطاب القرآني من حيث ترابط ألفاظه وآياته في وضعه واستعماله التعبيري والبياني والإعجازي فضلاً عن دلالته على معانيه التي وضعت له بإيفاء المطلوب منها.

فمعنى **النسق معجميّاً**: هو ما جاء من الكلام على نظام واحد(1).

ومعناه **الاصطلاحي**: انتظام جزيئات الكلام على حالة من الترتيب والنظام والأداء أو هو السمت المطرد في سمو التعبير(2).

والنسق القرآني أوسع معناً من هذا ليشمل ويتعلق بكل ما يرتبط به، فهو: انتظام جزيئات الآيات ابتداءً من بُنية الكلمة وتركيبها مع الأخرى، ثمّ الآية والنص كله على حالة من الترتيب، والنظم والأداء، والصوت والجرس، وقوة التأثير في النفس، ودلالة المعنى، مهما كان مدلول الآية سواءً أكان حكماً أم وعظاً أم إرشاداً أم زجراً، وغيرها من مدلولاته المرادة منه. بحيث يُنزل كلّ لفظة منزلها المناسب تركيباً وتعبيراً وأسلوباً وترتيباً ونظاماً ومعناً وتأثيراً، فتكون الكلمة سداداً في موقعها التي سيقت فيه، إذ لو جاءت الكلمة في موضع آخر لحملت

(١) مختار الصحاح: ٢٧٤ (نسق).

(٢) ينظر: النسق القرآني، دراسة أسلوبية: ١٥.

وضعاً وظروفاً وإحساساً يختلف عن الأول، كقوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾[1]. فلفظة (ناظرة) اتخذت موقعين لكل واحد منه معنى يختلف. إنّ هذا النسق (النسق القرآني) لا شائبة فيه ولا نقص ولا زلل ولا هزل؛ لأنّه كلام العزيز الحكيم، نزل على محمد ﷺ الذي لا ينطق عن الهوى.

وهناك معنى آخر للنسق هو تماسك بناء السورة القرآنية واتساق معانيها المتشعبة التي تتضمنها ضمن غرض محوري واحد دون تنافر أو تفكك[2].

المطلب الثاني: السياق والتناسق لغة واصطلاحاً

السياق: هو المحيط، وهو الوحدات التي تسبق والتي تلحق وحدة معينة[3].

والسياق: هو تلك الصيغ التعبيرية المشكّلة وفقاً لنظام اللغة أو لما يحتمله هذا النظام من تحوّل وتغيير يأخذ فيه عنصر النسق دلالته المناسبة لخدمة المعنى المراد تحقيقاً لهدف مناسبة المقال للمقام[4].

والتناسق: «هو مظهر من مظاهر الانسجام والتلاؤم في التعبير القرآني مع مستوى النسق عموماً وعناصره المشكّلة له بوجه خاص»[5].

والتناسق أيضاً: هو مجموعة عوامل وفعاليات من الانسجام والملائمة تتحقق في بنية الصورة فتتلاءم عناصر تشكيلها مع بعضها كما تتلاءم مع الوسط التعبيري الذي يطرحها للتداول اختياراً وتوظيفاً وغرضاً ومعنىً ودلالة وأسلوباً[6].

---

(١) سورة القيامة، الآية: ٢٢-٢٣.

(٢) ينظر: وحدة النسق في السورة القرآنية: ١٣٨.

(٣) معجم علم اللغة النظري: ٥٧.

(٤) ينظر: النسق القرآني، دراسة أسلوبية: ٣٥٠.

(٥) المصدر نفسه: ٦٠٧.

(٦) ينظر: المصدر نفسه: ٦٠٧.

المبحث الثاني

دلالة وحدة النسق القرآني

يُعدّ النسق القرآني لون من ألوان التشكيل اللغوي الحالي (المقامي والمقالي) والحسي مرتبطة معاً، فقد يمثل طريقة موحدة في التعبير عن جميع الأغراض، والتي قامت على قاعدة من التناسق العجيب والأسلوب المترابط والفعّال، يختلف عن جميع الأنساق والأساليب البشرية في اختياره وتوظيفه[١]، ودلالة ذلك أنه من أسلم قديماً وحديثاً وحتى من يقرأ القرآن بإمعان يحصل له انفعال إيجابي وجداني وعقلاني يجزيه نحو تلك التعبيرات والمعاني بطريقة مذهلة، تجمع بين الخشوع والانكسار والخوف والرقة والعاطفة، والفرح والحزن والبكاء، والانفعالات جميعها تعترض للإنسان كأنها جاذبية عجيبة بحسب مراد الآية والتصوير الفني الرائع فيها، والهدف المراد منها، فنوع الانفعال بحسب غرض ومراد الآية واستشعارها.

وتبدو أهمية النسق القرآني في اختيار المفردة من مخزون اللغة العربية وتنظيم هذا الاختيار وترتيبه وتنظيمه وترابطه بحيث يتلاءم مع السياق بأنواعه جميعها الداخلية (اللغوية والصوتية) والخارجية (الحالية والثقافية) المحيطة بالآية أو الآيات والنص كله الذي يجري فيه الكلام[٢].

فمن خصائص القرآن الكريم أنه لم يفرد كل سورة من سوره لموضوع معيّن[*] بل كان في السورة الواحدة مواضيع متنوعة وقصص مختلفة وأغراضاً

(١) ينظر: النسق القرآني، دراسة أسلوبية: ١٧.

(٢) ينظر: النسق القرآني، دراسة أسلوبية: ١٧.

(*) استثناءً من ذلك قصار السور فإنّ أكثرها يتناول موضوعاً واحداً.

كثيرة من عقائد وأحكام ومواعظ وإرشاد وعِبر وأمثال وحِكَم، وينتقل بينها من غير فصل.

فالتالي أو القارئ لأيِّ سورة من القرآن الكريم من مطلعها إلى ختامها لا يشعر باضطراب وخلل أو نشاز، ولا يرى انقطاعاً أو انفصالاً محيّر، بل يخلص من معنى إلى آخر خلوصاً طبيعيّاً هادئاً لا عسر فيه، وتنضوي هذه الخصيصة في تمازج وتلاحم المعاني والأغراض في سور القرآن الكريم أحكاماً وحكماً وأموراً عدة، من أظهرها أنه يكون سبباً لطرد سآمة القارئ والسامع، وتجديد نشاطهما، مما يجعل الإنسان لا يملُّ من ترداد القرآن الكريم وسماعه[(١)].

ومن الدلالة على نسق آيات القرآن الكريم وسوره وكونها محكمة التبيان مترابطة ومتناسقة الأركان، هي:

١- إنّ القرآن الكريم المعجزة الخالدة على مر الزمان؛ وهو ليس كلام أحد من البشر، وإنما كلام الحكيم العلام، الذي له الكمال المطلق وله الأسماء الحسنى والصفات العلى، فلا يوجد في كتابه الكريم النقص والزلل، ولا اختلاف وتنافر بين آياته لفظاً ومعنى، قال تعالى: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾[(٢)(٣)].

فكمال حكمته تعالى وسعة علمه سبحانه تقتضي إحكام كتابه لغةً وإيقاعاً على أبدع نظام[(٤)]، فقال تعالى لكمال كتابه بكمال حكمته وعلمه:

(١) وحدة النسق في السورة القرآنية: ١٤١.

(٢) سورة هود: ١.

(٣) ينظر: وحدة النسق في السورة القرآنية: ١٤٢.

(٤) ينظر: المصدر السابق: ١٤٢.

﴿ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴾[1].

وقد وصف الله تعالى كتابه الكريم في آيات عدة منها قوله تعالى في إحكام كتابه: ﴿ يسٓ ۝١ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ﴾[2].

وقوله تعالى في تنزيه القرآن الكريم: ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾[3]، وقوله في بيانه وظهوره وعربيّته: ﴿ الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝١ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾[4]، وقوله تعالى: ﴿ حمٓ ۝١ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴾[5]، لمكانته وعظيم حكمه وإحكامه.

وذكر تعالى في تمام أحكامه: ﴿ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ﴾[6]، فلم يكتفِ سبحانه وتعالى في وصف الآيات فقط، بل وصف السور بالإحكام ووصف القرآن كله بالكمال وبالغ الحكمة، وأنزله متقطعاً، ليثبِّت به فؤاد النبي ﷺ وتتلقاه الأنفس في أول نزوله بالقبول.

وهذه الآيات وغيرها دليل على عظمته وعلو مصدره، وتنبيهاً لقيمه المكنونة والمضمونة وغرضه وبلاغته وإعجازه، ولم يجاريه كتاب قديماً وحديثاً

---

(١) سورة النمل: ٦.

(٢) سورة يس: ١-٢.

(٣) سورة البقرة: ٢.

(٤) سورة يوسف: ١-٢.

(٥) سورة الدخان: ١-٣.

(٦) سورة محمد: ٢٠.

على وجه الأرض ولو اجتمعوا على ذلك فصحاء وبلغاء العالم.

٢- أطلق الله تعالى على مجموعة الآيات القرآنية سواء أكانت قليلة أم كثيرة بالسورة، فقد قال تعالى: ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[(١)]. وإطلاق هذا الاسم يحمل معنى الإحاطة والسوار، لأنها كالسور الذي يحيط بالأبنية أو البستان، والسوار الذي يحيط بمعصم اليد، ولكل منهما معنى خاص، فالسور من الوحدة والاستقلال والعزل عن الغير، والسوار زينة وجمال، أما السورة فتجمع المعنيان وأكثر، فهي تحيط بطائفة من الآيات ذات المعاني المتنوعة التي يجمعها هدف وغاية معيّنة مرتبطة برباط وثيق، ومطلع السورة وختامها بمنزلة الحدود والسور الذي يحف بآياتها ويجعلها مستقلة تميزها عن غيرها من السور الأخرى[(٢)]، أما ما تضمّه وتحويه السورة بين طياتها من مواضيع متكاملة متراصة كنظام متكامل متساوٍ في الجودة، بليغ المعنى غزير الألفاظ، حسن النطق، ذو صوت جرس مؤثر، وإيقاع متناسق، يجمع فيه كل ما يحتاجه الإنسان من نظام حياة الأحكام التي تنظّم سلوك الفرد والمجتمع، وفيه النصح والإرشاد، وفيه الزجر والعِظة، وفيه الإنذار والتخويف، وفيه الترغيب والترهيب.

ونقسم القرآن إلى سور مختلفة منها الطويلة ومنها المتوسطة ومنها القصيرة أحد مظاهر تيسير القرآن وتسهيله للذكر، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾[(٣)]، فضلاً عن جمالية الترتيب وتناسق النظام

---

(١) سورة النور: ١

(٢) ينظر: وحدة النسق في السور القرآنية: ١٤٥.

(٣) سورة القمر: ١٧.

العام للسور والسورة الواحدة.

فالسورة الواحدة من القرآن الكريم كافية للتذكير لمن أراد أن يتذكر ويتعظ ويعي، لتنوع موضوعاتها وتناولها مجالات وجوانب عديدة[1].

٣- وقوع التحدي بالسورة الواحدة من سور القرآن الكريم، فتحدى القرآن الكريم الإتيان بمثله، قال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ﴾[2]، فلما ثبت لهم عجزهم عن الإتيان بمثله ناكصين رؤوسهم، طلب الله تعالى منهم الإتيان بسورة واحدة إن استطاعوا، قال تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾[3]، وقال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾[4] فهذا يدل على عجزهم عن الإتيان ولو بسورة واحدة وإن دعوا شركائهم ومعاونيهم ومن في الأرض جميعاً.

وهذا دليل على أنّ بناء السورة الواحدة وتأليف وتآلف آياتها على هذا النحو المتناسق العجيب أمر معجز للأولين والآخرين، فالسورة الواحدة متأزرة المعاني متّسقة المباني، منتظمة في ترتيبها وبنائها مع تنوع مضامينها، فنسق السورة يتحرك في هذا الفضاء الواسع من مبنى ومعنى، ونظام لغة ونظام

---

(١) ينظر: وحدة النسق في السور القرآنية: ١٤٥.

(٢) سورة هود: ١٣.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٣.

(٤) سورة يونس: ٣٨.

بناء، وتحول الآيات داخل السورة من غرض إلى آخر لتصب في معنى كلّي، وهنا وقوع التحدي والإعجاز، مع قدرتهم على صرف البلاغات وتعرفهم في أجناس الفصاحات[١].

وإنّ نزول القرآن مفرقاً يوجب التحدي، وبمجموعه من دون خلاف في مضمونه واختلافه أكبر تحدي وأعظم إعجاز، وترتيل القرآن الكريم كما أمر الله جلَّ وعلا فيه إمعان وتأمّل في سماعه وقراءته، وهذا إعجاز آخر؛ لأنه لا يسرد كسرد كلام البشر[٢].

٤- إنّ ترتيب الآيات في سور القرآن الكريم أمر توقيفي من عند رسول الله ﷺ مأخوذ من الوحي، خلال بعثة النبي الأكرم ﷺ لم تنزل السورة الواحدة بكامل آياتها كما نراها لأنها مجتمعة، ولا متوالية نزول آياتها في أوقات متقاربة، بل تنزل متفرقة على حسب الداعي لذلك[٣]، ومثال ذلك سورة العلق، فإنّ مطلع سورة العلق من قوله تعالى: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾[٤] في بدء الوحي، ونزل آخرها في وقت آخر بعد نزول آيات من سور المدثر وتتابع نزول الوحي عليه[٥].

فإذا نزلت الآيات على النبي ﷺ يُخبر كَتَبَة الوحي أنْ يضعوها في مكانها

---

(١) ينظر: إعجاز القرآن، للباقلاني: ٢٧-٣٠؛ ووحدة النسق في السور القرآنية: ١٤٥.

(٢) ينظر: غرائب القرآن ورغائب الفرقان: ٥/٢٣٦.

(٣) ينظر: وحدة النسق في السورة القرآنية: ١٤٧.

(٤) سورة العلق: ١-٥.

(٥) ينظر: تفسير الجلالين: ٨٠٥، ٨٢٨.

في السورة التي يحددها لهم، كأنّ هذا التعيين في موضع لآية أو الآيات بوحي من الله تعالى، تلائم الآيات الأخرى في السورة وتتصل بها بروابط معنوية معينة(١).

فإنّ فواتح السور وخواتيمها مرتبطة معاً بمعانٍ ودلالات وصيغ ملفتة للنظر، كأنها نزلت متوالية ومتتابعة، وهذا من عظمة مصدر نزولها.

٥- الجمع بين الآيات المكية والمدنية في السورة الواحدة، نزل من القرآن الكريم على صدر النبي ﷺ قبل الهجرة النبوية، ومنه ما نزل بعدها، فالراجح من قول العلماء أنّ الأول يطلق عليه المكي من القرآن الكريم تغليباً، والثاني يطلق عليه المدني؛ لكون معظمه نزل بالمدينة، تميزه عن الآخر من حيث المخاطبة وإلقاء الشرائع(٢).

ولكن هناك أمراً مهماً هو أنّ في بناء السورة القرآنية الواحدة نجد منها قد امتزجت فيها آيات مكية وآيات مدنية في سياق واحد، لأن وضع تلك الآيات في أماكنها أمر توقيفيٌّ كما أسلفنا ذلك، ومع ذلك نجدها في غاية الالتئام والانسجام وكمال البناء في كل مجالاته، بحيث نحسب أنّ السورة نزلت كلها في مكان واحد، فلا ندري أهي مكية أم مدنية إلاّ من كتب التفسير التي تذكر السورة مكية أم مدنية، وتستثني بعض من آياتها أنها مدنية النزول أو العكس، وتورد كتب التفسير اختلافاً في كونها من هذا القسم أو ذاك(٣).

وهناك تباين بين ترتيب آي السور وبين ترتيب النزول، فزمان النزول

---

(١) ينظر: وحدة النسق في السورة القرآنية: ١٤٧.

(٢) ينظر: النسق القرآني، دراسة أسلوبية: ٥٨٦؛ وينظر: وحدة النسق في السورة القرآنية: ١٥٢.

(٣) ينظر: وحدة النسق في السورة القرآنية: ١٥٣.

إنما كان المقصود منه على مقتضى سُنّة التدرج في تتريل الشرائع، ومراعاة حال المخاطبين في تربيتهم على مبادئها وتكاليفها، تماشياً وحال النفس البشرية وكيفية تقبّلها للأوامر الربانية، لعلم الخالق بشأن خلقه، أمّا حكمة وضع الآيات في المدنية في سورة مكية، أو وضع الآيات المكية في سورة مدنية فهذا أمر توقيفي يخدم مقصود السورة ويتلاءم معها ويلتئم المعنى والأسلوب الذي تدور عليه سائر آياها، فهذا غاية الروعة وبراعة الإعجاز[١].

ومن أمثلة السور المكية التي ذكرت فيها آيات مدنية سورة العنكبوت فقد استفتحت بآيات مدنية أورد ذلك القرطبي في تفسيره راجعاً إلى قول ابن عباس وقتادة وغيرهما أنها مكية إلاّ عشر آيات من أولها[٢].

والسورة المكية التي جاء في أثنائها آيات مدنية سورة الأنعام، فقد قال ابن عباس وقتادة فيها: هي مكية كلها إلا آيتين منها نزلت بالمدينة[٣]، وهما قوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾[٤]، وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ﴾[٥].

والسور المكية التي اختتمت بآيات مدنية سورة النحل، فقد قال فيها عطاء بن يسار: مكية إلاّ ثلاث آيات من آخرها نزلت بالمدينة بعد أُحُد حين قتل حمزة رضي الله عنه ومُثِّل به[٦]، وكذلك سورة الشعراء فإنها اختتمت بآيات مدنية،

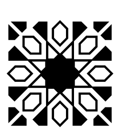
(١) ينظر: المصدر نفسه: ١٥٣.
(٢) ينظر: تفسير القرطبي: ٣٢٣/١٣.
(٣) سورة الأنعام: ٩١.
(٤) سورة الأنعام: ١٤١.
(٥) ينظر: زاد المسير: ٣/٣.
(٦) ينظر: تفسير ابن كثير: ٥٢٧/٤.

على قول ابن عباس وقتادة: مكية إلاّ أربع آيات منها نزلت بالمدينة من قوله: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ﴾[1] إلى آخر السورة[2].

ومن السور المدنية التي ورد في أثنائها آيات مكية، سورة الرعد فهي مدنية إلاّ آيتين نزلتا بمكة وهما قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ﴾[3] إلى آخرها[4].

والسورة المدنية اختتمت بآيات مكية النزول سورة المطففين، فهي على قول ابن عباس وقتادة: مدنية إلاّ ثمان آيات من قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ﴾[5]، إلى آخر السورة[6].

هذه السور القرآنية من الدلائل والشواهد على عظمة مصدرها وكماله وكمال تآليف الآيات وتمازجها تعبيراً وأسلوباً ومعنى، وتكامل مضامينها واتساقها، واتصال بعضها ببعض لغةً ومعنى وتركيباً ونظاماً. وهو من الإعجاز اللغوي والبياني لهذا النص المقدس.



(١) سورة الشعراء: ٢٢٤.
(٢) ينظر: تفسير القرطبي: ٨٧/١٣.
(٣) سورة الرعد: ٣١.
(٤) ينظر: تفسير القرطبي: ٢٧٨/٩.
(٥) سورة المطففين: ٢٩.
(٦) ينظر: تفسير القرطبي: ٢٥٠/١٩.

المبحث الثالث

فوائد وحدة النسق القرآني

إنّ إدراك حقيقة وحدة النسق القرآني والكشف عن المحور الذي تدور عليه جميع مواضيع السورة والوقوف على غرضها وهدفها، وإبراز الروابط والعلاقات التي تربط بين أجزائها بدءاً من فاتحتها وآخراً بختامها يعد من أهم العوامل المساعدة على تفهم معاني آياتها ومقصودها واستجلاء الدلالات المكنونة في طياتها[1].

فالصورة الكاملة لحقيقة النسق القرآني في السورة هو إثارة جميع منافذ الوعي سواء أكانت الصورة التعبيرية من لفظة إلى تركيب وإلى آية وثم نص بوجه عام، أو المضمون والمقصود بوجه خاص، مجموع في النسق القرآني وفقاً لما يقتضيه عرض النص وسياقه، على تفاوت في غلبة منفذ أو مشاركة أكثر من منفذ في عملية الاستيعاب والتأثير، وأهم هذه المنافذ: الحواس كـ(السمع والبصر)، والعقل، والخيال والوجدان، فالسمع والبصر هي منافذ التلقي، وهي وسائل التعرف على العالم الخارجي، والعقل يعمل على إدراك العلاقات وتقريرها، والفكر يستفيد من هذه العلاقات فيوظفها في بناء تصور ذهني، ويأتي دور الخيال الذي يحقن هذا التصور بالحركة والحيوية والفعالية لتصبح الصورة ماثلة أمام الوجدان الذي يدفع بالمتلقي إلى اتخاذ موقف ما، ويربط ما تقدم بالواقع ليسقط الأحكام عليه[2].

وأول من تنبّه إلى حقيقة النسق القرآني هو الإمام الشاطبي، حيث أدرك

---

(١) ينظر: وحدة النسق في السورة القرآنية: ١٨٣.

(٢) ينظر: النسق القرآني، دراسة أسلوبية: ٥٩٩؛ وينظر: التصوير الفني: ٢٢٨.

أنّ مقاصد السور هو الغرض من وراء التعابير والأساليب المنطوية في آيات السورة عند استجلاء معاني الآيات من ألفاظها وتراكيبها، فقرر أنه لا محيص للمتفهم عن استيفاء جميع أجزاء السورة بالنظر باعتبارها كلاماً واحداً من جهة النظم[1].

واستشعر البقاعي فائدة النظر الشمولي إلى السورة القرآنية داخلها وما يحيط بها، ومعرفة مقصودها وتوصل إلى ثمرة مقاصد السور وغايته[2]. فتفسير الآيات بناءً على معرفة موقعها من مقصود السورة العام يكون أدق وأعمق من تفسيرها الخاص دون ربطها بالمقصود العام للسورة، فلا تبدو موضوعات السورة اشتقاقاً مفرقة وأجزاء متباعدة، وإنما مرتبطة بالنسق العام للسورة ملتحمة المقاصد مترابطة المعاني[3].

وخلاصة فوائد النسق القرآني نوجزها بالنقاط التالية:

١- امتزاج الوجه الديني بالبناء الفني، ويبدو ذلك في أوائل القصص الواردة في السور القرآنية، وهذا يكون في التمهيد للقصة أو في أوائلها، كما في قوله تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾[4]، وقوله تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ﴾[5]، وقوله تعالى: ﴿كَدَأْبِ ءَالِ

(١) ينظر: الموافقات: ٣/٣١١.

(٢) ينظر: مصاعد النظر: ١/١٥٥.

(٣) ينظر: وحدة النسق القرآني: ١٨٣.

(٤) سورة يوسف: ٣.

(٥) سورة يس: ١٣.

فِرْعَوْنَ ...﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ﴾[2]، وفي نهاية القصة غالباً تعقيباً دينيّاً يناسب العبرة فيها والمقصود من ذكر القصة والهدف والغاية منه[3]، فامتزجت الصورة في الوجه الديني والوجه الفني.

٢- امتزاج الواقع المشهود بغرض السورة، كما ورد من مشاهد ولوحات واقعية عند الحديث عن صور العرض والعرض شملت من مشاهد الكون كلها كالإنسان والحيوان والنبات والجماد، واختلطت في بعضها مشاهد السماء والأرض، والأفلاك والأجرام والظل والشمس والقمر وغيرها، فضلاً عن ذكر أحداث ووقائع ونماذج من الماضي والحاضر، وهي ما وقع من أحداث بين الأنبياء وأقوامهم، إذ ورد في صورة قرآنية تستهدف العبرة، والوسيلة للتأثير على البيئة الجاهلية[4]، ومن ذلك قصة ابني آدم، قال تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْءَاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾[5]، وطوفان نوح، قال تعالى: ﴿وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ﴾[6].

(١) سورة آل عمران: ١١.

(٢) سورة القلم: ١٧.

(٣) ينظر: النسق القرآني، دراسة أسلوبية: ٥٨٧.

(٤) ينظر: المصدر نفسه: ٥٠٧؛ وينظر: نظرات في قصص القرآن: ١٣٨.

(٥) المائدة: ٢٧.

(٦) سورة هود: ٤٢-٤٣.

فالمفهوم من هذه القصص التي يبيّنها النسق القرآني هي طاعة الله وتقواه أساس النجاة، وكيفية المحاورة بين الحق والباطل، والإصرار على الحق، وغيرها من العبر والعِظات والإرشاد، فتلاءم في النسق القرآني المحكم والقصة بأسلوب رائع وغاية التأثير لدى المتلقي.

٣- الصورة الحرّة في نظام التعبير القرآني، وتأتي على هيئة وصف، أو مشهد، أو صورة حسية يدركها الذهن والخيال والمشاعر، والتي تساهم في جلاء التجربة واستشعارها والكشف عن أبعادها، وهي الصورة الحقيقية للنسق القرآني والتي تتنقل من مشهد إلى آخر ومن وصف إلى آخر داخل السورة الواحدة، قال تعالى: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ ۖ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾(١)، فهنا استشعار حقيقي للخوف يكشفه التوكل على الله تعالى والإخلاص وعدم اليأس من شدة الخطر، وقوله تعالى: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّـارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّـةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾(٢). رسمت هذه الآية صورة حسيّة يدركها الذهن ورسم الخيال ويستشعرها القلب، ونجدها في (خائفاً يترقب) وهي صورة نفسية انفعالية وذهنية، وفي (زحزح عن... وأدخل الجنة) صورة حركية استشعرها الذهن وأثّرت في قوى وإحساس الجسد صوّرها الخيال ليحس بها المتلقّي نفسه.

وقد تحمل الصورة الحقيقية في جزء منها شيئاً من المجاز لكنه ليس هو

---

(١) سورة القصص: ٢١.

(٢) سورة آل عمران: ١٨٥.

الصورة بأبعادها وفضائها ومبتغاها؛ لأنّ السورة القرآنية تستوعب علاقات كثيرة وروابط متماسكة وتعطي على مدى السياق معنى أقرب إلى الحقيقة، وتعطي دلالات أخرى، والحكم الأخير عليها لا يقوم مجرد تفحّص مشهد جزئي خاص بل يتعدّاه إلى مشهد عام ينظّمه شعور نفسي متكامل(١)، وهذا يستدرجنا إلى فائدة علم المناسبات الذي أشار إليه العلماء والمرتبط بنسق السورة القرآنية، وهو باب عظيم يظهر لنا جملة من دقائق ولطائف القرآن الكريم ومظاهر الإعجاز، واستلهام روحها الخاصة في تفسير أجزائها وربطها بمناسبات لها علاقة بالغرض العام الذي سيقت من أجله الآيات وتنقلها من مشهد إلى آخر ومن وصف لغيره، وفيها ترويض وتربية النفس البشرية واستحضار مشاعرها.

وإنّ أكثر دقائق الأحكام وفهمها ولطائف القرآن الكريم وإشاراته وإيماءاته مودعة في الترتيبات والعلاقات والروابط(٢).

فالسورة القرآنية تُعد بمثابة حلقات مترابطة داخل إطار شامل وحلقة أكثر منها، وقد تكون الحلقات وهي الآيات متعلقة مع بعضها، فالآية مرتبطة مع ما قبلها أو مع ما بعدها، أو قد تكون متصلة بالحلقة الكبرى التي تمثّل مقصود السورة الرئيس(٣).

٤- الاستبصار بمقصود السورة القرآنية استجلاءً لأسرار تكرار القصص واختلاف الآيات المتشابهة في التعبير، فإنّ كل سورة أعيدت فيها قصة

---

(١) ينظر: الصورة البيانية بين البلاغة والنقد: ٣٧.

(٢) ينظر: الأساس في التفسير: ١/٤٤٧، ٤٤٨.

(٣) ينظر: قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله ﷻ: ٢٨.

فلمعنى غير الأول الذي سيقت إليه في السورة السابقة، فتختلف ألفاظ وعبارات القصة بحسب الأغراض، وتغيّر النظوم بالتأخير والتقديم والإيجاز والتطويل والحذف والذكر، مع إنها لا تخالف شيئاً من ذلك في أصل المعنى الذي تكوّنت به القصة، لأنّ القصة القرآنية إنما تساق لتفيد عبرة من العبر، أو حكمة ما ودرس جديد، ودلالات كثيرة[1]، فاستثمر النسق القرآني العلاقات التعبيرية للقصص المكررة في السور القرآنية من حيث الاختيار والتوطئة فتمكن من تحقيق مقولة: (لكل مقام مقال) في المستوى الذي يجعله نموذجاً متميزاً من غيره من النصوص الأدبية، فيكون غني التفاعلات والعلاقات والمناسبات والدلالات، وشامل لنواحي الحياة وكل ما يحتاج إليه الإنسان[2]، ومثال تكرار الآيات بما يناسب مقصود السورة ذكر الله تعالى قصة زكريا ومريم (عليهما السلام) في سورة آل عمران وسورة مريم وفي كل سورة مقصدها من القصة مع مراعاة الإيجاز والإطالة وأسلوب التعبير والتعريض بين الآيات، ففي ذكر زكريا عليه السلام في سورة عمران قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ﴾[3]، وفي سورة مريم قال تعالى: ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞ وَقَدۡ خَلَقۡتُكَ مِن قَبۡلُ وَلَمۡ تَكُ شَيۡـٔٗا﴾[4]، وقال تعالى في آل عمران في قصة

(١) ينظر: الانتصار للقرآن: ٢/٨٠٣؛ ينظر: نظم الدرر: ١/١٤؛ وينظر: وحدة النسق القرآني: ١٩٠.

(٢) ينظر: خصائص التعبير القرآني: ١/٣٣٣؛ وينظر: النسق القرآني: ٣٨٥.

(٣) سورة آل عمران: ٤٠.

(٤) سورة مريم: ٩.

مريم عليها السلام: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ﴾[1]، وفي مريم قال تعالى: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ۝١٩ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ۝٢٠ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾[2]، فلأجل اختلاف مقاصد السور تغيّرت نظم القصص وألفاظها وأساليبها بحسب المقصد، فمقصود سورة آل عمران التوحيد وابتدأت السورة بالتوحيد، وختمت بما بنى عليه من الصبر وما فيه من عظمة التقوى، وكرّر الاسم الأعظم الدال على الذات الإلهية الجامع لجميع الصفات، أما مقصود سورة مريم شمول الرحمة[3].

٥- مراعاة نسق السورة وطابعها الخاص على الأسرار البيانية المنطوية تحت الفروق اللغوية والتعبيرية البلاغية في السورة القرآنية، فنجد المعنى الواحد يرد في أكثر من سورة، ولكن بتعبير آخر يلائم سياقها، ويناسب مقصودها، ويناسق غرضها، وجوّها الخاص، وهذه التحوّلات المختلفة التي تطرأ على السياق فتأخذ المفردة خلالها دلالات متعددة لم تخرجها عن نظام اللغة ما يحتمله هذا النظام من تحوّل وتغيير، وذلك لأنَّ الكلمات ومفردات التراكيب تتجه برمّتها لخدمة مقصود السورة القرآنية، وتتأثر في صياغتها وسبكها بروحها[4]. ومثال ذلك قوله تعالى:

---

(١) سورة آل عمران: ٤٥.

(٢) سورة مريم: ١٩-٢١.

(٣) ينظر: مصاعد النظر: ١٥٢/١، ١٥٣.

(٤) ينظر: المتشابه اللفظي في القرآن ومسالك توجيهه عند أبي جعفر بن الزبير الغرناطي: ١٠٢، ١١٠.

﴿إِن تُبۡدُواْ خَيۡرًا أَوۡ تُخۡفُوهُ أَوۡ تَعۡفُواْ عَن سُوٓءٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوّٗا قَدِيرًا﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿إِن تُبۡدُواْ شَيۡـًٔا أَوۡ تُخۡفُوهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٗا﴾[2]، فهذا السر البياني في التحوّل في التعبير والفروق اللغوية بين الآيتين يتعيّن بمقصود السورة، إذ يعزوا التعبير بإبداء الخير في آية سورة النساء إلى مناسبة الطابع العام الذي يغلب عليها وهو طرق الخير وعمل البر، كإصلاح ذات البين والندب إلى العفو والتجاوز عن السيئات، أما في الآية الثانية فقد ذكر تعالى في السورة الطلاق، وكتمان القول، وتقوى الله، وأمر الحجاب، والتبنّي، واللعان، والخلع[3]، فناسب تعميم لفظة ﴿تُبۡدُواْ﴾ بلفظة ﴿شَيۡـًٔا﴾ بقوله تعالى: ﴿إِن تُبۡدُواْ شَيۡـًٔا﴾. ومثاله أيضاً قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ﴾[4]، وقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ﴾[5]، إنّ في الآية الأولى تفويض الأمر والفعل كله لله، وقد ورد في قصة زكريا عليه السلام، ففيه تفويض الأفعال وقدرة الله على كل شيء، أما الآية الثانية جاءت في قصة مريم لنفس السورة، وفيها خلق عيسى عليه السلام وخلقه من الطين بهيئة الطير، وإحياء الموتى وهذا كله بإذن الله تعالى وقدرته على الخلق. فلفظة ﴿يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ يشمل الخلق وغيره، وفي الآية الثانية تركز الحديث على خلق عيسى عليه السلام ومعجزاته.

---

(١) سورة النساء: ١٤٩.

(٢) سورة الأحزاب: ٥٤.

(٣) ينظر: ملاك التأويل: ١/٣٦١، ٣٦٣.

(٤) سورة آل عمران: ٤٠.

(٥) آل عمران: ٤٧.

٦- تفيد وحدة النسق القرآني الأداء بتنوّع أساليبه وظواهره، لتعطيه جمالية عالية بعيدة عن التكلّف والملل؛ لأن التفنّن في ضروب الفصاحة أعلى من الاستمرار على ضرب واحد، لهذا أوردت بعض آي القرآن متماثلة المقاطع وبعضها غير متماثل[١]، لهذا ظهرت فعاليات النظم وعناصره لإنتاج الدلالة المقصودة من التعبير والأسلوب؛ إذ ظهرت عناية النص القرآني بتنوّع الأساليب وظواهر التعبير كالحذف والذكر والالتفات والتضمين والتكرار، وغيرها من الظواهر الأسلوبية، وأساليب التعبير متنوعة تشمل الشرط، والقسم، والاستفهام، والاستثناء، والمدح والذم والتعجب والنداء وغيرها، والقرآن الكريم قد أكثر من أساليب التعبير أشار إلى بعضها علماء البلاغة والأدب[٢]، ولا تزال أساليب أخرى تنتظر جهوداً جديدة تكتشفها من خلال ما يستجد من وسائل أسلوبية في دراسة النص الأدبي لتجد تطبيقها في النص القرآني، وكتاب (التعبير القرآني) للدكتور فاضل السامرائي أقرب مثال لذلك، والدليل القرآني لتعدد أساليبه قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾[٣]. ومن أمثلة ذلك، أسلوب الشرط والأصل فيه أن يقع الشيء لوقوع غيره فيتوقف الثاني على الأول، قال تعالى: ﴿فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ

(١) ينظر: منهاج البلغاء: ٣٨٩.

(٢) ينظر: دراسات في أساليب القرآن: ٦٢؛ وينظر: التحرير والتنوير: ١/١٠٧؛ وينظر: إعجاز القرآن والبلاغة النبوية: ١٤؛ النسق القرآني، دراسة أسلوبية: ٣٨٦.

(٣) سورة لقمان: ٢٧.

﴿فَمَا ٱسۡتَيۡسَرَ مِنَ ٱلۡهَدۡيِۚ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسۡرَةٖ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيۡسَرَةٖۚ وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾[2]، وقد يخرج الشرط عن هذه العلاقة والأصل، فيكون الشرط والجزاء متقارنين في زمان، قال تعالى: ﴿وَمِنۡ حَيۡثُ خَرَجۡتَ فَوَلِّ وَجۡهَكَ شَطۡرَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۖ وَإِنَّهُۥ لَلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾[3]. ومثال أسلوب الاستفهام، الذي ينحو في فواتح بعض السور منحى التشويق لمعرفة المقصود، كما في قوله تعالى: ﴿أَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ﴾[4]، فالسامع يتشوق لمعرفة من هو هذا المكذب، فإذا رآه يدرك أنه يستحق العذاب، وهذا التساؤل يأتي للتحذير منه أو لتجنّبه[5].

ويكشف الاستعمال القرآني عن قوة دلالة (هل) على الاستفهام من (الهمزة)، ففي قوله تعالى: ﴿أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرّٖ مِّن ذَٰلِكُمُۗ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾، وقوله تعالى: ﴿أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرّٖ مِّن ذَٰلِكُمُۗ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾[6]، وقوله تعالى: ﴿هَلۡ أُنَبِّئُكُم بِشَرّٖ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِۚ﴾[7]، استفهم

---

(١) سورة البقرة: ١٩٦.

(٢) سورة البقرة: ٢٨٠.

(٣) سورة البقرة: ١٤٩.

(٤) سورة الماعون: ١.

(٥) ينظر: النسق القرآني، دراسة أسلوبية: ٤٠٦.

(٦) سورة الحج: ٧٢.

(٧) سورة المائدة: ٦٠.

القرآن بهل والهمزة مع الفعل (نبأ) والسياق يبيّن أنّ هل أقوى وآكد في الاستفهام من الهمزة، فالسياق الثاني فيه قوة وتبكيت لا نجدها في السياق الأول[1].

ومثال أسلوب النداء بـــ(يا) الذي ينادي بها البعيد والقريب، نحو قوله تعالى: ﴿يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئۡهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡۖ﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأۡمَ۬نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ﴾[3] كما ينادي به من غفل وسهى وإن قرب، تتريلاً له متزلة من بعد، قال تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾[4]، والقرآن الكريم لم يستخدم لفظة (الله) منادى وإنما استغنى بكلمة (اللهم)؛ لأنّ التعظيم فيها واضح أكثر من (يا الله)، ومنها قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ﴾[5]، وغيرها[6].

وقد يستعمل النداء لأغراض أخرى[7]، كالتعجب، نحو قوله تعالى: ﴿يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِۚ﴾[8]، والتحسّر، قال تعالى: ﴿يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ تُرَٰبَۢا﴾[9].

وهكذا في باقي أساليب التعبير، وسنعرض أساليب التقديم والتأخير،

---

(١) ينظر: معاني النحو: ٦٢٢/٤.

(٢) سورة البقرة: ٣٣.

(٣) سورة يوسف: ١١.

(٤) سورة الأعراف: ٢٧.

(٥) سورة آل عمران: ٢٦.

(٦) ينظر: من بلاغة القرآن: ١٦٩.

(٧) ينظر: معترك الأقران: ٣٤٠/١.

(٨) سورة يس: ٣٠.

(٩) سورة النبأ: ٤.

والحذف والذكر وغيرهما لاحقاً، وبيان فائدتها في موضعها.

٧- رعاية العامل النفسي في الدلالة والإيقاع، إنّ رعاية النسق النفسي للعامل الوجداني والنفسي يأخذ حيزاً كبيراً في بنية النص والسياق القرآني، فإنّه يرسم منحنيات مختلفة في السورة كلها؛ لأنّ من أهداف هذا النسق التعامل مع النفس الإنسانية من منطلق الإثارة العاطفية وتحفيز الوجدان لإعمال الذهن وتحريض الفكر من أجل اتخاذ موقف وتحقيق سلوك حسن[١].

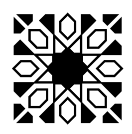
وأنّ هذه الصورة الأدبية في القرآن الكريم تحتل في النسق القرآني مساحة كبيرة وواسعة وأكثر عمقاً وأثراً في النفس البشرية، بحيث تشكل أسلوباً مميزاً ومفضلاً في التعبير القرآني عن المضمون بواسطة الصورة الفنية والصوتية والإيقاعية، وتعد نمطاً غالباً في النص القرآني، يحول التعبير في داخله من التقرير إلى التصوير لإثارة الأحاسيس والمشاعر الإنسانية لدى السامع والقارئ للقرآن الكريم، وهو أسلوب تعبيري ولد في رحم نسق النظم اللغوي، وهذا الأسلوب تفرد عن غيره بتخصصه في صناعة الصورة الفنية التعبيرية الموحية وهي تتكئ على جناحي الخيال والوجدان بخاصة، وتسهم في تشكيلها عناصر ذهنية وعقلية وحسية وشعورية ولغوية، بحسب المواقف والدواعي والمناسبات، وهذه الصورة الأدبية تحمل شحنة تأثيرية ترد في ثنايا السورة، وهذه الآثار الوجدانية صريحة وواضحة أحياناً أو لامحة خفية موحية أحياناً أخرى[٢].

ومثال هذا، قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ إِذْ جَآءُوكُم

(١) ينظر: النسق القرآني: ٣٢٣، ٧٣٣.

(٢) ينظر: المصدر نفسه: ٤٨٣، ٤٨٤، ٧١٥.

مِّن فَوۡقِكُمۡ وَمِنۡ أَسۡفَلَ مِنكُمۡ وَإِذۡ زَاغَتِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلۡقُلُوبُ ٱلۡحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبۡتُلِيَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَزُلۡزِلُواْ زِلۡزَالٗا شَدِيدٗا ﴾[1]، وهنا يكاد القارئ والمرتّل للقرآن الكريم أو السامع يحس بالإثارة النفسية ونبض المشاعر والوجدان في كلّ كلمة سواء بالصيغة الموحية ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾، أو الصريحة ﴿وَإِذۡ زَاغَتِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلۡقُلُوبُ ٱلۡحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴾، ثمّ عقبت عليه بالنتيجة التي تنتهي بها آيات النعم وكشف المكروه، وإبراز قدرة المنعم والتفاعل مع هذه المشاعر التي وصفها النص القرآني محل رعايته ونظره[2].



(١) الأحزاب: ٩، ١٠، ١١.

(٢) ينظر: النسق القرآني: ٣٢٣.

المبحث الرابع

الكشف عن وحدة نسق السورة القرآنية

إنّ النظر الشمولي إلى الهيكل العام للسورة والتمييز بين الأغراض الرئيسية والمعاني الواردة على سبيل الاستطراد والتتميم يعد الأساس في فهم المحور الأساسي للسورة؛ لأنّه يحتل في النسق القرآني مساحة كبيرة عميقة وواسعة، وإنّ تجلية بناء السورة القرآنية وإبراز اتساق عناصرها وتلاحم أجزائها ينطلق من الكشف عن مقصود السورة، أو المحور الفكري الذي تدور عليه سائر تفاريع معانيها، إذ تصب في النسق القرآني فعاليات النظم وعناصره لإنتاج الدلالة المقصودة من التعبير على مستوى المفردة والجملة والآية والسياق وفقاً لخصوبة اللغة من حيث توليد الألفاظ بتعدد الدلالة وتنوع طرق الاشتقاق، ومن حيث القدرة على التصرف في النظم على أساليب متعددة تعطي النسق امتيازه وتفوقه، ويتحقق فيها حسن الرصف وتناسق الألفاظ وبراعة الأداء وحلاوة التأتي -كما أسلفنا في دراسة ذلك- ولاشك في أنّه أمر دقيق يحتاج إلى إحالة النظر في أجزاء السورة وإمعان الفكر في تدبّر معانيها المتشعبة؛ لأنّ ملاحظة وحدة بناء موضوعات السورة القرآنية هو المصباح الذي يستضيء به للإفادة من اكتشاف الجذع المشترك التي تتفرع عنه، ويبقى أنّ التعبير عنه قد يكون عامّاً بحيث يستطيع شمول سائر تلك الموضوعات، وقد يكتفي بعرض تلك القضايا وبيان التحامها، وظاهرة التناسق الموضوعي خصيصة من خصائص السور القرآنية، وما من سورة إلاّ ولها هدف محوري تتجه إليه جميع موضوعاتها، وأنّ علمي (المناسبات) و(مقاصد السور) اللذان أبدعهما أئمة التفسير هما الأساس الذي استلهم

الغرض المحوري للسورة ومقصدها العام[1].

وإذا تجاوزنا مجال اللفظة والتركيب في البنية الداخلية للآية الكريمة إلى ساحة المناسبات والعلاقات التعبيرية والدلالية بين الآيات وجدنا ظواهر أخرى تكتنف هذه العلاقات والمناسبات تلفت النظر إليها، يمكن بوساطتها الكشف عن وحدة نسق السورة القرآنية، وإدراج ذلك في النقاط الآتية:

١- فواتح السور وخواتمها، يمكن التماس ما تضمنته فواتح السور وخواتمها من معانٍ ودلالات ملفتة للنظر، وذلك بتتبع جميع آياها، إمّا لتهيّئ السامع أو القارئ المتدبّر لتلقّي التوجيهات التالية، والتي تشير إلى أهم القضايا التي ستعالجها الآيات بعد ذلك، أو استيعاب العبرة والنتيجة من خلال خاتمتها أو لتعود للتذكير بإحدى تلك القضايا وتأكيدها وترسيخها، أو توجيه الاهتمام لاستقبال السورة التي تليها بما ترشحه من إيحاءات في ذلك[2].

فهناك مناسبة بين مطلع السورة والموضوع الذي يغلب على آياها وبين ختامها، لذا تستثمر في كشف الغرض المحوري والمقصود الذي تلتقي فيه جميع مواضيع السورة، فتتكون السورة من ديباجة وموضوع وخاتمة، فتوضع الآيات الافتتاحية لمعالجة الموضوع بخطوطه الرئيسية، ثمّ يتبع ذلك التدرج في

---

(١) ينظر: منهاج البلغاء: ٣٨٩؛ وينظر: دراسات في أساليب القرآن: ٦٢؛ وينظر: النسق القرآني، دراسة أسلوبية: ٣٨٦، ٤٨٣؛ وينظر: وحدة النسق في السورة القرآنية: ١٩٥، ٢٠٦.

(٢) النسق القرآني، دراسة أسلوبية: ٣٣٦؛ وينظر: وحدة النسق في السورة القرآنية: ١٩٥.

عرض المرفوع بنظام دون تداخل أجزاءه، وإنما يحتل كلّ جزء مكانه المناسب له، وأخيراً تأتي الخاتمة التي تقابل الديباجة(١).

ومن أمثلة فواتح السور الحروف المقطعة وهي تعد كدلالة فنية أو موضوعية، و لم يعهد أنْ جاء في كتاب سماوي هذه الحروف(٢)، وهذه الحروف إمّا أن تعد آيات في أوائل السور مثل: الم، المص، كهيعص، وأمثالها، وتكتب في المصحف الشريف على صورة الحرف لا على صورة اسمه، وهذه الحروف شملت صفات حروف اللغة العربية جميعها، وغالباً ما تنطوي عليه معاني ودلالات تلك السور التي تبدأ بهذه الحروف أنْ تتحدث عن مبدأ الخلق، والوسط الذي هو المعاش من التشريع بالأوامر والنواهي، والنهاية التي هي المعاد(٣).

أو لا تُعدّ آيات في أوائل السور التي افتتحتها مثل: الر، المر، طس، ق، ن، وهذا الاعتبار علم توقيفي أشار إليه معظم العلماء والمفسرين(٤)، وقد لوحظ في السورة التي بدأت بحرف واحد أنّ هذه السورة مبنيّة على الكلمات التي تحمل هذا الحرف، مثل سورة ق، فالسورة مبنيّة على الكلمات ذوات القاف، مثل: القرآن، الخلق، القول، قال، القريب، الرقيب وغيرها كثير، وأنّ معاني السورة مناسبة لما في حرف القاف من الشدة والجهد والقلقلة، ومثل سورة ص، فالخصومات متعددة في هذه السورة كخصومة الكفار مع النبي، واختصام الخصمين، وتخاصم أهل النار، واختصام الملائكة في الملأ الأعلى في

---

(١) ينظر: مدخل إلى القرآن الكريم: ١١٩.

(٢) ينظر: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: ١/٣٢.

(٣) ينظر: البرهان في علوم القرآن: ١/٢٢١؛ وينظر: الكشاف، للزمخشري: ١/٦٩، ٧٣؛ وينظر: النسق القرآني: ٣٣٧.

(٤) ينظر: البرهان في علوم القرآن: ١/٢٢٠.

العلم، وتخاصم إبليس في أمر السجود[1].

أمّا فواتح السور الأخرى التي جاءت آيها عادية، فقد جاءت لأغراض ودلالات مرتبطة بخصائص النص القرآني التعبيرية وأهدافه الموضوعية أو المقصود العام للسورة، مثل قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[2] فارتبط تحميد الله تعالى بغرض موضوعات الآيات التي تتلوها؛ فتحميد الله تعالى لرحمته وتملّكه يوم الدين، وتحميده لعبادته والاستعانة به والهداية لطريق الإسلام، وإبعادنا عن المغضوب عليهم وهم اليهود، والضالين وهم النصارى كما ذكر ذلك المفسرون.

ومن أمثلة دلالة فواتح السورة وخواتمها على مقصودها وغرضها الأساس سورة الرعد، ففي الآية الأولى منها يوجد موضوع السورة، قال تعالى: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ۗ وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[3]، وتتضمن هذه الآية الكلام على عناصر ثلاثة، وهي: (١) رسالة الحق (٢) رسول الصدق (٣) مُرسل إليهم أكثرهم لا يؤمنون، أمّا الكلام على الرسالة فيستدعي إقامة الدليل على أسسها وإثباتها، وجاءت مجموعة من الآيات لإقامة الدليل على وجود الله ﷻ وعظيم صفاته لإثبات صدق ما أنزله، وأمّا الكلام على الرسول والمرسل إليهم فيستدعي بيان مال الصراع الذي تم بينهم، وأتت الآيات لعرض الحوار بينهم وحججهم، وكيف عالج الرسول ﷺ إصلاحهم ضمن التعليمات والبيانات الربّانية، وكما يتضمن

(١) ينظر: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: ١/٣١؛ وينظر: النسق القرآني: ٣٣٧.

(٢) سورة الفاتحة: ٢.

(٣) سورة الرعد: ١.

عرض تربية الرسول أمام ما لاقى من المكذبين[1].

وسورة يونس؛ إذ يظهر الترابط والصلة في سياق السورة وبين مطلعها وختامها في مطلعها قال تعالى: ﴿الٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ﴾[2]، ويجيء في الختام قوله تعالى: ﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾[3]، فالحديث عن قضية الوحي هو المطلع وهو الختام، كما وأنه هو الموضوع المتصل والملتحم بين المطلع والختام[4]. وهكذا الترابط ووحدة الموضوع بين المطلع والختام والمحور الأساس للسورة والعلاقات المتصلة بينها يسير في سور القرآن كله، بسحب موضوع السورة الخاص بها، فضلاً عن الموضوع العام للقرآن الكريم (الله) الذي هو موضوع توحيد وتصديق للكتب السماوية السابقة التي نزلت لتوحد الله تعالى، وهداية البشرية والتشريع لها لتنظيم سلوكياتها وتربيتها، وختاماً بالوعد الذي هو مناط الآخرة.

٢- تقسيم السورة إلى أقسام بحسب مضمونها من المعاني الجزئية والمحاور الصغرى التي تناولتها، فالسورة تتكون من جملة من الآيات وهي أحد عناصر نسق النظم، ومن ظواهر النص القرآني، وأنها جزء تعبيري يمثل الوحدة الأساسية في النص القرآني عموماً، وهي سوى المفصل متعددة

(١) ينظر: قواعد التدبّر الأمثل: ٣٢.

(٢) سورة يونس: ١-٢.

(٣) سورة يونس: ١٠٩.

(٤) ينظر: في ظلال القرآن: ٣/١٧٤٥؛ وينظر: الأساس في التفسير: ١٠/٦٠٠٩.

الموضوعات، ويتحتم على المتدبّر ألاّ يشتت نظره مع تفاريعها وتشعباتها، بل عليه أن يقسم السورة إلى مقاطع بحيث يكون كل مقطع متكوناً من مجموعة من الآيات التي تدور حول موضوع ومقصد واحد، ثم يحاول البحث عن المواضيع التي تشمل جملة من تلك المقاطع، مميزاً بين ما هو محوري فيها وما هو وارد على سبيل التكميل والتتمة والتفريع، لتتحصل لديه أقسام السورة التي تمثل القضايا الكبرى التي تعالجها، ثم يحاول اقتناص الرابط المعنوي الدقيق الذي يجمع بين تلك الأقسام والذي يكون بمثابة الجذع الذي تتفرع عنه سائر معاني آيات السورة[1].

وتتعاون الآيات داخل كل قسم بالتعبير عن جزء من الموضوع، وهذا التعبير هو مجموعة الفعاليات اللغوية والعلاقات الإيحائية والإثارة الذهنية والوجدانية التي يحققها النص أو القسم من خلال وحداته الأساسية وتتبع هذه الفعاليات يكشف عن طبيعة نسق النظم في القرآن الكريم[2].

فإذا تدبّرنا كل قسم أو نص تبيّن أنه بني من المقاصد الكلية على أسس وأصول، وأقيم على كل أصل منها شعب وفصول، وأنّ الصلة بين أقسام السورة لا يعني اتحادها أو تماثلها أو ما إلى ذلك، بل إنّ القرآن سلك في الانتقال من معنى إلى آخر مسالك شتى، يجعلها تتعاون في أحكامها يسوق بعضها إلى بعض مساق التنظير أو التفريع أو الاستشهاد أو الاستنباط أو التكميل أو الاحتراس وإلى غير ذلك[3].

---

(١) ينظر: النسق القرآني: ٣١٤، ٣٤٢؛ وينظر: وحدة النسق في السورة القرآنية: ١٩٨.

(٢) ينظر: النسق القرآني: ٢٦٧، ٣١٩.

(٣) ينظر: النبأ العظيم: ١٣١.

ومثال ذلك سورة البقرة تتألف من مقدمة وثلاثة أقسام وخاتمة، فتكون المقدمة من الآيات العشرين الأولى، وفيها أقسام الناس بحسب التقسيم الربّاني الإسلامي: متقين وكافرين ومنافقين، وصفة كل منهم، أمّا القسم الأول فمن الآية (٢١) إلى نهاية الآية (١٦٧)، وفيها دعوة عامة إلى الناس جميعاً وتعليمهم الطريق الموصل إلى تقوى الله، ويتركوا كل ما ينافي ذلك[١].

وأمّا القسم الثاني فمن الآية (١٦٨) إلى نهاية الآية (٢٠٧)، وهو استمرار القسم الأول في تربية الإنسان وتعليمه كيفية التقوى، ففيه دلالة على التقوى وتفصيلاً في شأنها وتبياناً لأركانها وشروطها وما يدخل فيها، وموقف الناس منها وغير ذلك من معان.

أمّا القسم الثالث فمن الآية (٢٠٨) إلى نهاية الآية (٢٨٤) وفيه دعوة إلى الدخول في الإسلام كله، وتبيان لكثير من شرائع الإسلام، وتبيان ما يلزم لإقامة الإسلام كله، وفيه التوجيهات الرئيسية في قضايا المال وملامح النظام الاقتصادي في الإسلام، النظام القائم على الصدقات، والنظام الربوي، والنظام القائم على التعامل المنضبط مع تقديم المالكية لله تعالى.

وتأتي الخاتمة التي يدخل فيها هذا كله، إذ مرجعه إلى الإيمان والسمع والطاعة والتوبة من التقصير، ومرجعه ما مرّ يعود إلى التكليف المستطاع للإنسان الذي يفضي به إلى الجزاء والعقاب، ومقصوده الأساس ومحور الرئيسي هو العبودية الكاملة لله تعالى وأنّ التوفيق منه تعالى، وهذا ما عليه أصل الدعوات[٢].

---

(١) ينظر: الأساس في التفسير: ١/٦٧٣.

(٢) ينظر: الأساس في التفسير: ١/٦٧٤.

وسورة الرحمن مثال على ذلك أيضاً، إذ تنقسم إلى أقسام ثلاثة كل قسم منها يختص بمقصد، ترتبط تلك المقاصد بمحور أساس يجمعها، فالقسم الأول استهل بنعمة الرحمن وفضله بخلق الإنسان وتعليمه القرآن وبيانه، وأنَّه خالق كله شيء ومالكه، فعدد في هذا القسم ما في الكون والفلك والبحار مما خلق، وعجز الجن والإنس عن الخلاص من غضبه إذا أراد إهلاكهم.

والقسم الثاني ذكر حال أهل النار، والقسم الثالث ذكر حال أهل الجنة والنعيم الذي فيها والمفاز، وكثر تعداد نعمها للترغيب فيها بطاعة الله تعالى، وختمها بالتسبيح والتبجيل والإكرام، وهو مرتبط بمستهل ومطلع السورة، أمّا المحور والمقصود الأساس هو آلاء الله تعالى ونعمه التي لا حصر لها ولا عد، قال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ﴾[1].

٣- معرفة الفترة الزمنية التي نزلت فيها معظم آيات السورة، والطابع الذي يغلب عليها أهو المكي أو المدني، وتتبع أسباب نزول جملة من آياها، ومن خلال ذلك يمكن التعرف على هدف السورة العام أو أغراضها الكبرى التي تدور عليها، فمن المعلوم أنّ السور المكية عرضت أسس العقيدة الإسلامية، وقد توخّت تقرير أربع قضايا كبرى: الإيمان بالله وحده، والإيمان بالآخرة، والإيمان بالرسل والرسالات السماوية، والدعوة إلى أمهات الأخلاق، سواء اجتمعت تلك الأسس أو انفردت في السورة الواحدة[2].

---

(١) سورة النحل: ١٨.

(٢) ينظر: مباحث في التفسير الموضوعي: ٤٢؛ وينظر: المنهج السياقي وأثره في تطوير دراسات التفسير: ٤٥، ٤٧؛ وينظر: وحدة النسق للسورة القرآنية: ٢٠٠، ٢٠١.

أمّا السور المدنية فهي تتوخى بناء المجتمع الإسلامي على أسس الإيمان والطاعة وفيها تفصيل للتشريع في شؤون الحياة كافة، وحماية الأمة من الأخطار الداخلية والخارجية، والتحذير من اليهود والمنافقين وفضح أضغانهم، ومحاورة أهل الكتاب وإقامة الحُجّة عليهم[1].

والفائدة من معرفة الفترة الزمنية هو الاستدلال على مقصود السورة من خلال معرفة زمن نزولها وملاحظة القسم الذي تنتمي إليه من السورة في مجمل آياتها، فالوسط التعبيري الذي يستمد مقصود القسم دلالته في ثناياه، وهذا يعيننا على فهم استعمال الفعل ودلالته على غير زمنه الذي خص به وضعاً.

والفعل في السياق (ماضياً ومضارعاً وأمراً) يمنحه السياق دلالته والذي يخضع لاعتبارات أسلوبية، وكما أسلفنا أنّ الآيات المدنية والمكية لكل منها أسلوبها الخاص. فالشاطبي اعتبر سورة (المؤمنين) مكية، بعد استقراءه واستعراض جملة من آياتها توصل إلى أنّ القضية الغالبة على نسقها هي ذكر إنكار الكفار للنبوة، كما أنّه ذكر سورة الأنعام نزلت في الفترة المكية مبيّنة لقواعد العقائد وأصول الدين[2].

ولا يلزم أن يكون الغرض المحوري للسورة موافقاً تماماً لمواضيع القسم الذي يندرج فيه من مكي أو مدني فقد يكون مقصود السورة عامّاً يشمل هذه الأغراض المتفرعة التي تغلب على أقسامها، فإنّ سورة آل عمران مدنية ومع ذلك أنّ مقصدها العام هو ترسيخ فكر التوحيد[3].

---

(١) ينظر: مباحث في التفسير الموضوعي: ٤٣.

(٢) ينظر: الموافقات: ٣/٣٠٤.

(٣) ينظر: مصاعد النظر: ٢/٦٧، ٦٨؛ وينظر: في ضلال القرآن: ١/٣٥٧.

٤- الاستئناس باسم السورة أو أسمائها التي جاءت في حديث النبي ﷺ يشكّل اسم السورة جزءاً من موضوعها، أو يكون له رابط مناسبة أو علاقة بينه وبين السورة من خلال تطور هذا الموضوع أو توالي وحداته الجزئية من آية إلى أخرى إلى نهاية السورة.

ومثاله سورة آل عمران فهناك رابط بين أسمها ومقصودها، فمقصود السورة التوحيد، و لم يعرب عن هذا المقصود في السورة، ولكن ما أعرب عنه ما ساقه سبحانه وتعالى فيها من أخبار آل عمران، بما فيها من الأدلة على القدرة التامة الموجبة للتوحيد، والذي ليس في درج الإيمان أعلى منه(١). فالمناسبة هي توحيد آل عمران لله تعالى ومقصود السورة والذي هو التوحيد المطلق لله تعالى.

ومن ذلك أيضاً الاستئناس باسم سورة النساء، ولما كان مقصودها الاجتماع على ما دعت إليه سورة البقرة وآل عمران من التوحيد، وكان السبب الأعظم في الاجتماع والتواصل عادة الأرحام العاطفة التي مدارها النساء، والعدل الذي هو لباب التوحيد(٢)، فضلاً عن ورود كثير من أحكام النساء فيها. وهذا المسلك طريق بديع في استكشاف مقصودها، غير أنّ هذا التطبيق ليس مباشر في ارتباط اسم بعض السور بمقصودها، وإنما يلتمس منه وجه المناسبة بينهما بعد أن يتوصل إليه.

ومن أسماء السور ما يخدم موضوعها إذا كان محوراً واحداً، فيتتابع سيرها وتواليها، فتؤدي غرضها تباعاً، أو ضمن حزمة أو مجموعة من الآيات

---

(١) ينظر: نظم الدرر: ١/١٨، ١٩.

(٢) ينظر: ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل: ١/١٧٤، ١٧٥.

يتم الانتقال بها من جزئية إلى أخرى إلى نهاية السورة، حتى يكتمل موضوع السورة، مثل: الشمس، الليل، الضحى، الانشراح وغيرها.

ومن ذلك سورة الكهف، فإنّ اسمها توقيفي من حديث الرسول ﷺ: «من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف عُصم من الدجال»[1].

فاسم السورة مرتبط بقصة أهل الكهف، وأنّ هذه السورة انفردت بأربع قصص لم تتكرر في سورة أخرى وهي: قصة أهل الكهف وقصة صاحب الجنتين، وقصة موسى عليه السلام مع الخضر، وقصة ذي القرنين، وهذه القصص الأربعة تشترك في بيان أسباب الفتن الكبرى في الحياة الدنيا، والتي هي مقصود السورة ومحورها: فتنة السلطان، والمال، والعلم، والأسباب المادية[2]، وإنّ العصمة من جميع الفتن التي ورد ذكرها في سورة الكهف هي قراءة الآيات العشرة الأولى من سورة الكهف بحسب قول النبي ﷺ، وفي مقدمتها فتنة المسيح الدجال[3].

٥- محاولة اقتناص الروابط المعنوية والمصاحبات اللغوية والقرائن الداخلية والخارجية، والتي تصل بين المعاني الجزئية للخلوص إلى أهم القضايا التي تعالجها السورة؛ لأنّ السياق المبهم يفسره غيره، وهذا نوع آخر من سياقات النص القرآني.

فقد يفسّر عنصر من عناصر النسق في السياق ما بدلالة سياق آخر يتلوه بعد قليل في نص آخر؛ لأنّ السياق مخصص وهو الذي يوجه المعنى بأي نوع

(١) صحيح مسلم: ٧٧/٦ برقم ١٨٣٣.
(٢) ينظر: وحدة النسق في السورة القرآنية: ٢٠٤.
(٣) ينظر: معترك الأقران: ٩٩/١.

من أنواعه (اللغوية، والثقافية، والحالية (المقالية)، وسياق الموقف) أي: السياق الداخلي والخارجي المحيط بالنص أو السورة القرآنية.

فيمكن الاستفادة من هذه النقطة في الكشف عن دلالة سياق بسياق آخر يحدد معناه، أو يحمله عدة احتمالات أي: يحرره، فتتعاون عناصر النسق فيه لتؤدي دلالات بدلالات بعضها، لترتبط في المحور الأساسي لنسق السورة العام.

وقد ورد بالاستقراء إلى أنّ الحكم بدلالة واحدة للمفردة داخل السياق على وجه القطع غير متحقق باطراد إلاّ في آيات معدودة، والحكمة فيه أنّ الله سبحانه أراد أن يتفكّر عباده في كتابه فلم يأمر نبيّه ﷺ بالتنصيص على المراد في جميع آياته؛ لأنّ نظم القرآن الكريم مبني على وفرة الإفادة وتعدد الدلالة، فمن هذا يحمل اللفظ داخل السياق أكثر من دلالة قد لا تتعيّن واحدة منها على وجه القطع بأنها هي المقصودة، بل إنّ الدلالة الظنية ظاهرة فيها، لذا فإنّ بعض المفسرين تنبّهوا لذلك واستوعبوا هذه الظاهرة فجاءت أقوالهم متعددة الاحتمالات دون ترجيح أحياناً[١].

فمن هذا النوع قوله تعالى: ﴿وَّيُحِبُّونَ أَن يُحۡمَدُواْ بِمَا لَمۡ يَفۡعَلُواْ ...﴾[٢]، فقد أبهم فهم هذه الآية، فقال فيها ابن عباس رضي الله عنه: «إنّما أنزلت هذه الآية في أصل الكتاب»[٣] فذكر الآية التي قبلها وهي قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكۡتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمۡ وَٱشۡتَرَوۡاْ

---

(١) ينظر: التحرير والتنوير: ١/١٠٠؛ وينظر: النسق القرآني: ٣٨٤، ٣٨٥.

(٢) سورة آل عمران: ١٨٨.

(٣) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ٢/١٤١.

بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًاۖ فَبِئۡسَ مَا يَشۡتَرُونَ﴾[1].

وهذه العلاقات تبدو فعالياتها داخل الجملة والآية والسياق، فهي وسائط ومناسبات توثق جزئيات النص مع بعضه وفقاً لمقتضيات النظم ووفاء بالدلالة السياقية التي يستمد النص معظم معطياته منها، أو في ضوئها في حالات مختلفة[2].

وقد تكون بعض الروابط المعنوية والعلاقات استطراداً دعا إليه الموقف أو طرأ جديد اقتضى الإشارة إليه، أو يكون من قبيل التمثيل الواقع يُضرب له مثلاً أو يستشهد بحادثة، ففي قوله تعالى: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلًا مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ إِلَى ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا ٱلَّذِي بَٰرَكۡنَا حَوۡلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنۡ ءَايَٰتِنَآۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ﴿١﴾ وَءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ وَجَعَلۡنَٰهُ هُدٗى لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُواْ مِن دُونِي وَكِيلٗا ﴿٢﴾ ذُرِّيَّةَ مَنۡ حَمَلۡنَا مَعَ نُوحٍۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبۡدٗا شَكُورٗا﴾[3]، فإنّ وجه الاتصال بينها هي صلة بيت المقدس بماضي الرسالات وفي أولها رسالة موسى عليه السلام، وهي حلقة في سلسلة النبوات بدءاً من نوح عليه السلام وانتهاءً بالنبي محمد صلى الله عليه وسلم.

وأنّ طرائق الكشف هذه عن وحدة نسق السورة ومحوره الأساس أمراً اجتهاديّاً لا يمكن القطع به، ولا خير في الاختلاف فيه، فهو مظهر من مظاهر الإعجاز القرآني ومظهر من ثرائه، وكرم عطاءه إلى آخر الزمان[4].

---

(١) سورة آل عمران: ١٨٧.

(٢) ينظر: دلائل الإعجاز: ٤٩، ٥١؛ وينظر: النسق القرآني: ٢٩٩.

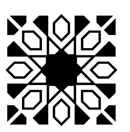
(٣) سورة الإسراء: ١-٣.

(٤) ينظر: وحدة النسق في السورة القرآنية: ٢٠٥.

وهذا المستوى في القرآن الكريم يمنح صفة الإعجاز في الأداء، لأنّه المعنى الذي يحويه النص[1].

وأنّ بعض المعاني تجمعها علائق دلالية في حين تغيب هذه العلائق بين معانٍ أخرى حسب ما يقتضيه السياق، حيث يفضي إلى وجود علائق دلالية وفنيةً واجتماعية بين المعاني والسياق، أي إنّه هناك تفاعل بين معاني المادة اللغوية والسياق، والدلالة السياقية هي الدلالة التي يعينها السياق اللغوي فملازمة لفظة ما لسياق دلالي معين هو لون من ألوان الدقة اللغوية التي نسعى لتوظيفها في مجالات التعبير المختلفة[2].

ومثال هذا المستوى قوله تعالى: ﴿ ذُقۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡكَرِيمُ ﴾[3]، فمن سياق النص نجد إنّه يدل على إنّه الذليل الحقير[4]، لذا فالمستوى الدلالي يعتمد على النظام الأسلوبي الذي يعتمد على أنظمة اللغة جميعها في تعيين المعنى المراد[5].



---

(١) ينظر: أرشيف ملتقى أهل التفسير: ٩٩٧٧.

(٢) ينظر: ظواهر أسلوبية في القرآن الكريم: ٣٥، ١٣٦، ١٣٧.

(٣) سورة الدخان: ٤٩.

(٤) ظواهر أسلوبية في القرآن الكريم: ١٣٦.

(٥) ينظر: نظرية النظام اللغوي: ٢٥.

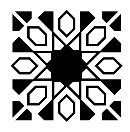
الفصل الثاني

أثر دلالة السياق القرآني في نسق المناسبات

إنّ المناسبة على مستوى الآية الواحدة هي حكمة تنزيل العزيز الحكيم، أمّا المناسبة على مستوى ترتيب آيات القرآن الكريم وسوره توقيفي من عند الرسول ﷺ، فإنّ تقديم آية كذا على غيرها، أو سورة كذا على أخرى، أو سر، والرابط بينهما إمّا أن يكون لفظيّاً أو معنويّاً(١).

وتكون المناسبة إمّا جزئية ببيان الرابط في موضع ما لبعض الآيات القرآنية، أو مناسبة كلية لآيات السورة كلها أو لعدة سور أو عامة للقرآن الكريم كلّه.

والمناسبات إمّا داخلية: مناسبات ترتيب أو تركيب.



(١) ينظر: دلالة السياق: ٣٦٧.

المبحث الأول

أثر دلالة السياق في المناسبات

❑ الكلمة بين حالتي الإفراد والسياق:

الألفاظ داخل السياق لها ترتيب ونظام، وهي بمفردها لا تخدم النظم بصورة مطلقة إلاّ إذا روعيت ووضعت في تركيب سياق العمل والآيات والنصوص، ولا تُقبل على إنّها نحو إلاّ أنّ تدخل في بناء الجملة، فترتب الوحدات الصرفية والكلمات، وتراعى الإعراب وتغييره للتعبير عن المعاني المختلفة، لذا فليس الكلام مجرد رصّ لمجموعة من الكلمات كيف جاء واتفق، وإنّما هناك قواعد وعلاقات ثابتة لكلّ لغة تحكم أماكن الألفاظ في السياق[1] والقوالب والصيغ الصرفية لها معانٍ وظيفية ودلالات معجمية تختلف في حالة السياق عنها في حالة الإفراد. فينظر للدلالة الإفرادية على إنّها بمثابة مادة أولية لا غنى عنها في التعبير عن معانيها ومقاصدها، صالحة للتشكيل في السياق وإعطاء معنى وفق الدلالة المحددة التي يقصدها المنشئ المبدع للكلام، وهذا المعنى المحدد يتعين عن طريق القرائن السياقية والمقامية التي لا تظهر إلاّ في حالة تركيب السياق[2]. هذا يعني أنّ الكلمات المفردة خارج السياق ما هي إلاّ مبانٍ تحمل معنيين: أحدهما صرفي لن يتحقق إلاّ في سياق، والثاني معجمي، وهذا المسلك الذي تسلكه عند الإفراد سرعان ما يخضع للتحديد في إطار السياق لخضوعه لعلاقات وقرائن تشكل وظائفها[3].

---

(١) ينظر: السياق والمعنى: ٦٢؛ وينظر: النحو والسياق الصوتي: ٢٠.

(٢) ينظر: الإعجاز الصرفي: ٤٩، ٥٠.

(٣) ينظر: النحو والسياق الصوتي: ٤٦، ٤٩.

ودليل ذلك قضية الزمن في الفعل يبيّن اختلاف التعامل مع الكلمة، والنظام الزمني الصرفي بسيط بحيث يمكن التعبير عنه بالآتي[1]:

أ - صيغة فَعَلَ وتفيد وقوع الحدث في الزمن الماضي.

ب- صيغة يفْعل وتفيد وقوعه في الحال أو الاستقبال.

ج- صيغة أفعل وتفيد وقوعه أيضاً في الحال أو الاستقبال.

ولكن عند دخول هذه الصيغ في التراكيب السياقية للآيات تختلف تبعاً للقرائن والعلاقات السياقية فيها، والروابط والرتبة التي تحكمها.

ومثال ذلك الاستعمالات القرآنية المختلفة للفعل (أتى)[2]:

١ - ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾[3].

٢ - ﴿قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ﴾[4].

٣ - ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾[5].

٤ - ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾[6].

وكذلك الفعل (جاء):

١ - ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ...﴾[7].

---

(١) ينظر: النحو والسياق الصوتي: ٤٩.

(٢) ينظر: النحو والسياق الصوتي: ٥١.

(٣) سورة النحل: ١.

(٤) سورة النحل: ٢٦.

(٥) سورة الشعراء: ٨٩.

(٦) سورة الإنسان: ١.

(٧) سورة البقرة: ٩٢.

٢- ﴿... وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾(١).

٣- ﴿كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾(٢).

٤- ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا ...﴾(٣).

٥- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَـَٔامِنُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ ...﴾(٤).

٦- ﴿...حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾(٥).

٧- ﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ ۖ ...﴾(٦).

٨- ﴿فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ۚ﴾(٧).

نجد هنا أساليب و(دلالات) مختلفة ينسجم كلّ منها مع آياته، فصيغة (أتى) وكذلك (جاء) جاءت بصيغة الماضي، وتارة جاءت بصيغة الحال والمستقبل. وهذه المفارقة الكبيرة بين الدلالة الإفرادية التحليلية الأولى للصيغة

---

(١) سورة البقرة: ١٤٥.

(٢) سورة آل عمران: ٨٦.

(٣) سورة النساء: ٤٣.

(٤) سورة النساء: ١٧٠.

(٥) سورة الأنعام: ٦١.

(٦) سورة الأنعام: ١٠٤.

(٧) سورة الأنعام: ١٥٧.

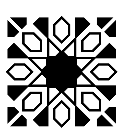
معزولة عن سياقها وبين دلالتها حال السياق[١].

يتضح ذلك من خلال تبيّن أواصر القربى بين ألفاظ المادة اللغوية الواحدة وانسجامها مع السياق وبتعدد النماذج يتضح كيف إنّ الكلمة في سياقها لها سلوك يختلف عن إفرادها[٢]. فضلاً عن النبرات الصوتية والتناغم والإيقاع المتناسق الذي تتزينه الكلمة داخل سياق الآية، وكذلك الأسلوب المتناسب بين تراكيب الآيات.

❑ أثر دلالة السياق القرآني فِي بيان معنى الكلمة القرآنية:

تعد نظرية السياق أكثر قرباً والتصاقاً بعلم الدلالة، وذلك لدورها الرئيس فِي تحديد معنى اللفظة فِي النص وكشف مغاليقه، فالكلمة إذا وقعت فِي سياق ما لا تكتسب معناها وقيمتها ومقصودها إلاّ بمقابلتها لما سيق لها وما هُوَ لاحق لها أو لكليهما معاً[٣]، وللسياق أثراً كبيراً على مقصود دلالة اللفظة، وتحديد هوية العبارة، ومعرفة المراد منه، وتحديد أسلوبه.

ويبدو لنا أنّ المعاني تجمعها علائق دلالية فِي حين تغيب هذه العلائق بين المعاني الأخرى فِي سياقات ومقامات وأحوال تختلف عنها[٤].



(١) ينظر: الإعجاز الصرفي: ٥١.

(٢) ينظر: ظواهر أسلوبية في القرآن الكريم: ٩٠؛ وينظر: النحو والسياق الصوتي: ٥٠.

(٣) ينظر: السياق والمعنى: ٥.

(٤) ينظر: ظواهر أسلوبية فِي القرآن الكريم: ١٣٥.

المبحث الثاني

المناسبة على مستوى

كلمتين داخل التركيب (النسقي)

إنّ لكلّ كلمة دلالة معجمية لها قيمتها من حيث هي ذات مدلول معجمي له أهميته البالغة في تكوين الجملة النصية، وهذه الكلمة بشكلها الصيغي تحمل معنىً إضافيّاً ينتمي إلى المعاني التركيبية[1]، ولها قيم نحوية لموقعية المناسبة (النسق) بين مستوى كلمتين داخل التركيب[2]. وهاتان الكلمتان هما لفظتين لكلّ منهما شقين وظيفي (تركيبي) ومعجمي، يفضي اجتماعهما أو تكافلهما إلى المعنى الدلالي داخل التركيب أو النص. وأنّ المناسبة بين اللفظ والمعنى بينهما يؤدي وظيفة في تركيب النص، وهذه الوظيفة هي المعنى الذي يؤديه المبنى اللغوي في الجملة والنص[3]. ونعني بالمناسبة على مستوى كلمتين أو على مستوى التركيب كلّه هي علل ترتيب الكلمات أو الآيات متسقة المعاني ومنتظمة المباني، أو البحث عن المعاني الرابطة بينها حتى تعرف علل ترتيبها[4].

---

(١) ينظر: النحو والسياق الصوتي: ٢٦٠.

(٢) ينظر: دلالة السياق: ٣٧٥؛ وينظر: سر الفصاحة: ١٦٩.

(٣) ينظر: مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور: ١/١٤٢؛ ينظر: أسرار ترتيب القرآن: ١/٥؛ ينظر: المناسبة وأثرها في تفسير التحرير والتنوير: ٢٧؛ ينظر: مصابيح الدرر في تناسب آيات القرآن الكريم: ١٨؛ ينظر: علم المناسبات في السور والآيات: ٢٧.

(٤) ينظر: علم المناسبات في السور والآيات: ٢٨؛ وينظر: علم المناسبات في القرآن الكريم: ٢٣.

وعلل ترتيبها إمّا أن يكون موقعية الكلمة بشتى أنواعها من بعضها، ويتحكم في مواقع الكلمات النظام اللغوي الذي يفترض ترتيباً نظاميّاً للكلمات في الجملة، وهذا الترتيب ما عرف عند النحاة بالرتبة، وهي تعني موقع الكلمة معجمية أو تركيبية من الأخرى باعتبار كلّ منها شغل باباً نحويّاً[1]، أو يكوّن النظام التركيبي؛ لأنّ اللغة تظم أنواعاً من المركبات، منها المركبات الإضافية، والمركبات النعتية، وهذه المركبات تساعد الدلالة المعجمية داخل تركيب الآية أو النص لإيجاد دلالة جديدة هي ناتجة عن مزج بين لفظين لكلّ منهما دلالته الخاصة، وبعد عملية المزج، أو التركيب تحصل على دلالة ثالثة، فيها شيء من دلالة كلّ مكون، لكنها تحتفظ بدلالتها الخاصة التي لا تحصل عليها إلاّ من خلال التركيب[2].

والمناسبة ظاهرة موقعية تحافظ على الانسجام الصوتي والتناسب في التركيب اللغوي، واللغة العربية تحرص على التناسب بين أصوات ومعاني كلماها ما وسعها ذلك، وتسعى إلى التأليف والانسجام، وذلك بطريقة فنية تعمّق حسن الاختيار، من إيجاز لفظ وحسن نسق وتأنق في الصياغة وروعة في التصوير، وأنّ المستوى البلاغي والفني للمعنى هو الذي يراعي تلك الوظيفة الأساسية عند الصياغة[3]، وهذا المعنى الوظيفي للكلمة التركيبية أو مستوى الكلمتين داخل التركيب بشتى صوره يمكن استخلاصه من وجود المناسبة بينهما لفظاً ومعنًى بإحصاء المعاني المعجمية والمعاني التركيبية للكلمتين

---

(١) ينظر: دلالة السياق: ٣٦٩.

(٢) ينظر: الدلالة والمعنى: ٢٥٧.

(٣) ينظر: النحو والسياق الصوتي: ٢٥٣، ٢٥٤؛ وينظر: الإعجاز القرآني: ٧٤.

بدلالتهما الجديدة في التركيب[١]. والقرآن الكريم يحمل جماليات التناسق والتناسب اللفظي والمعنوي في التركيب على مستوى كلمتين داخل التركيب وعلى مستوى الآيات والنصوص والسور والقرآن كلّه، حتى يكون نسيجاً واحداً أو بناءً متسق الأركان والأبعاد والجماليات وتناسق الموضوعات، والنبرة اللفظية، وجرسه الفريد، وتأثيره في النفوس، وهذا التناسب في القرآن الكريم كامل من كلّ جوانبه وأساليبه، ولا يمكن أن تجمع ذلك التناسب والتناسق أساليب العربية أو أي لغة أخرى[٢].

ومن أمثلة التناسب على مستوى كلمتين داخل التركيب، قوله تعالى: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾[٣]، فلفظة ﴿ ٱهۡدِنَا ﴾ و﴿ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ تناسب وتناسق بحسب موقعية الكلمتين في الرتبة، فـ﴿ ٱهۡدِنَا ﴾ فعل فيه دعاء وطلب وقد تقدّم على لفظتي ﴿ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ وهي مفعول ثاني بعد (النون) و(الألف) المفعول الأول، وهذا التناسب والتناسق حسب الموقعية النحوية في الرتبة، و﴿ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ هو تركيب نعتي، لأنّ لفظ ﴿ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ نعت للفظ ﴿ٱلصِّرَٰطَ﴾، وإبدال السين صاداً لتوافق الطاء في الإطباق؛ لأنّ السين مهموسة والطاء مجهورة، فيتبين هنا التناسق والتناسب على مستوى كلمتين داخل التركيب، فضلاً عن التناسب بين أصوات الحروف في الإطباق[٤]، وقوله تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴾[٥]،

---

(١) دلالة السياق: ٣٧٥.

(٢) ينظر: نظرية النظام اللغوي للقرآن الكريم: ٨.

(٣) سورة الفاتحة: ٦.

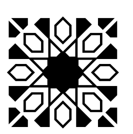
(٤) ينظر: إعراب القرآن، للنحاس: ١/٢٠؛ ينظر: إعراب القرآن، للباقولي: ١/٣٧٧.

(٥) سورة النحل: ١.

وهنا ﴿أَتَىٰٓ﴾ فعل على بنية الماضي وهو دائم، أو مستقبل، وهو قد تقدّم لفظ ﴿أَمْرُ﴾ بالرتبة، لتقدم الفعل على الفاعل نحويّاً[1] و﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ وهو الفاعل وهو مضاف ومضاف إليه أي: تركيبة إضافية، تبيّن معناها من خلال التركيبة العامة للآية.

وهنا يتبيّن المعنى على مستوى كلمتين مرتبة أو مركبة داخل التركيب، فيكون المعنى أنّه المراد بـــ﴿أَتَىٰٓ﴾ المبنية على الماضي المستقبل، لّما كان خبر الله صدقاً، جاز أن يعبّر بالماضي عن المستقبل[2].

وكذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَٰحِرٍ﴾[3]، وقوله: ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾[4]، وهناك الكثير من الكلمات التي تعطي معنًى جديداً على مستوى كلمتين داخل التركيب، لأنّ كما قال الرازي: «أكثر لطائف القرآن مودعة في الترتيبات والروابط»[5].



(١) تأويل مشكل القرآن: ١/١٨٠.

(٢) ينظر: التبيان في إعراب القرآن: ٢/٧٨٨.

(٣) سورة طه: ٦٩.

(٤) سورة الشعراء: ٨٩.

(٥) تفسير الرازي: ٣٠/١١٣؛ ينظر: ظواهر أسلوبية في القرآن الكريم: ٨٧.

المبحث الثالث

مناسبة الكلمة القرآنية للسياق

إنّ المناسبة في الكلمة على ضربين، مناسبة في المعاني، ومناسبة في الألفاظ فالمعنوية أن يبتدئ الله تعالى الكلام بمعنى ثم يتم كلامه بما يناسبه معنى دون لفظ، كقوله تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾[1]، فإنّه سبحانه لّما قدم نفي إدراك الأبصار له، عطف على ذلك قوله: ﴿وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾، خطاباً للسامع بما يفهم، لأنّ كلّ لطيف لا تدركه الأبصار، ألا ترى أنّ حاسة البصر لا تدرك اللون من كلّ متلون والكون من كلّ متكون، فإدراكها إنّما هو للمركبات دون المفردات، ولذلك لّما قال: ﴿وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾ عطف على ذلك قوله: ﴿ٱلْخَبِيرُ﴾ تخصيصاً لذاته بصفات الكمال، لأنّ كلّ من أدرك شيئاً كان خبيراً بذلك الشيء[2] لذا فإنّ موقعية الإدراك تتناسب مع معنى اللطف والخبرة، أي إنّ الإدراك تناسب مع سياق اللطف والخبرة، فجاءت الكلمة مترتبة ومترابطة المعنى في سياق الآية ومتناسقة المعنى من حيث الوضوح.

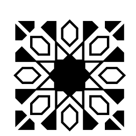
أمّا المناسبة اللفظية فهي توخي الإتيان بكلمات متزنات في سياق الآية، وهي على ضربين تامة وغير تامة، فالتامة أنْ تكون الكلمات مع الاتزان مقفات وأخرى ليست بمقفات، فالتقفية غير لازمة للمناسبة داخل سياق الآيات القرآنية، ومثل المناسبة اللفظية التامة قوله تعالى: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيْلِ

(١) الأنعام: ١٠٣.

(٢) ينظر: تحرير التحبير: ٣٦٣.

إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ﴿٤﴾ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ﴾[1]، فالألفاظ (الضحى) و(سجى) و(قلى) و(الأولى)، هنا[2] الألفاظ متزنات وتامات، أي إنّها مقفات، مترابطات بترتيب ونسق خاص في سياق الآيات القرآنية، أمّا المناسبة التي ليست تامة، كقوله تعالى: ﴿قٓ وَالْقُرْءَانِ الْمَجِيدِ ﴿١﴾ بَلْ عَجِبُوٓا أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ الْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ﴾[3]. فلفظتا ﴿الْمَجِيدِ﴾ و﴿عَجِيبٌ﴾، هي لفظتان مناسبتان للسياق القرآني لكنهما غير مقفات[4].

وهذا التناسب للكلمة داخل سياق الآية أو الآيات القرآنية تناسب لفظي معنوي في نفس الوقت وهذا من أسرار الإعجاز القرآني، فتأتي الكلمات متناسبة الترتيب ومترابطة المعنى تدل دلالة على جماليات النسق القرآني من حيث الترتيب والأداء.



(١) سورة الضحى: ١-٥.

(٢) ينظر: تحرير التحبير: ٣٦٧.

(٣) سورة ق،: ١- ٢.

(٤) ينظر: التحرير والتحبير: ٣٦٧.

المبحث الرابع

مناسبة الفاصلة القرآنية للسياق النسقي

إنّ المعنى هو السيد في التعبير القرآني، وأصبح من المعلوم أنّ السياق له دور كبير في استجلاء المعنى الدلالي للآيات والسور، والقرآن الكريم يعنى بالانسجام الموسيقي في الفواصل القرآنية داخل معاني السياق، والفواصل تدور في فلك المعنى لا العكس، مهما تنوعت أبنية الفاصلة، كلّ ذلك طلباً للمعنى[1]، وفواصل الآي الكريم تتعلق بمضمون الآية وتتناسب مع سياق نظمها، وهذا من إعجاز القرآن الكريم، فاختلاف الفاصلة القرآنية تبعاً لاختلاف مضمونها وسياقها الخاص[2].

ومناسبة الفاصلة القرآنية للسياق النسقي لا يقتصر على التنغيم والإيقاع والجرس الصوتي فقط، بل يكون في استجلاء الفهم القريب، وسرعة الحفظ لآيات القرآن الكريم، فضلاً عن التأثير الدعوي وإثارة النفس في إيجاز الفاصلة والشد والتحمس لما نزل من الذكر، مع راحة النفس والطمأنينة في الآي الطوال، فاطّراد الفاصلة في القرآن الكريم كلّه لم يأتِ اعتباطاً بل لعلّة وحكمة إلهية مرتبطة بسياق النصوص القرآنية ونسقها، وسياق السورة بصورة عامة.

فتناسب الفاصلة وأبنيتها المختلفة من مد وسكون وتتابع إيقاع أو اختلاف مع السياق يتناسب تناسقياً مع مقادير ما في النفس البشرية، هذا كلّه بإيراد المعنى المطلوب؛ لأنّ إيقاع القرآن الكريم مرتبط مع حالات النفس

---

(١) ينظر: من أسرار البيان القرآني: ١٦٣؛ وينظر: البناء اللغوي في الفواصل القرآنية: ١٧.

(٢) ينظر: جماليات السياق القرآني: ١٠٥.

وانفعالاتها، وهو أربى إلى الغاية تعبيراً وتأثيراً[1].

ومن المعلوم فإنّ الفاصلة يشيع إطلاقها عند أرباب الدراسات القرآنية على آخر كلمة تختم بها الآية[2]، ومن أمثلة مناسبة الفاصلة للسياق، قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُۥ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ﴿١٠﴾ نَارٌ حَامِيَةٌۢ﴾[3].

وقال تعالى في سورة الهمزة: ﴿كَلَّا ۖ لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ ﴿٤﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ ﴿٥﴾ نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ﴿٦﴾ ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ﴿٧﴾ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ﴿٨﴾ فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍۭ﴾[4]، فقال تعالى في القارعة: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ﴾، وقال تعالى في الهمزة: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ﴾.

فجاء بالضمير في سورة القارعة و لم يقل: (وما أدراك ما الهاوية)، وكرر الاسم الظاهر في سورة الهمزة فقال: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ﴾، و لم يقل: (وما أدراك ما هيه) كما قال في القارعة. وهذا تعبير مناسب لخواتم الآي في السور، وهو يقتضي الوجه البلاغي أيضاً، إذ إنّ الاسم الظاهر أقوى من المضمر، وإنّ وصف النار في سورة الهمزة أشد وأكثر تفصيلاً ممّا هو في سورة القارعة، ففي القارعة لم يزد على قوله: ﴿نَارٌ حَامِيَةٌۢ﴾.

أمّا في الهمزة أضاف النار إلى الله، ووصفها بأنّها موقدة، وأنّها تطّلع

(١) ينظر: ظواهر أسلوبية في القرآن الكريم: ٤١١.

(٢) ينظر: البرهان في علوم القرآن: ٥٠؛ والإتقان في علوم القرآن: ٣/٢٩٠.

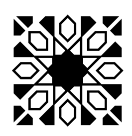
(٣) سورة القارعة: ٨-١١.

(٤) سورة الهمزة: ٤-٩.

على الأفئدة أي: تنفذ إليها وتعلوها، وأنَّها عليهم مؤصدة وأنَّها في عمدٍ ممددة، فذكر من أوصافها ما لم يذكره في القارعة، فناسب ذلك إعادة الظاهر للتهويل والتعظيم إضافة إلى مناسبة الفاصلة(١).

فناسب حسن إيجاز مقطع الآية تناسق ونسق جودة الفاصلة وحسن موقعها وتمكنها في موضعها، فكانت لائقة بما تقدمها من ألفاظ ومستقرة ومتمكنة في موضعها، موافقة للسياق(٢).

واندمج الترتيب والتهذيب للفواصل مع بيان المعنى وحصل الائتلاف مع السياق من حصول الترتيب وجمالية النسق القرآني(٣).



(١) ينظر: من أسرار البيان القرآني: ١٦٧، ١٦٨.

(٢) ينظر: الصناعتين: ٤٤٥، ٤٤٨.

(٣) ينظر: تحرير التحبير: ١٨٧.

المبحث الخامس

مناسبة نسق الآية للآية

إنّ مناسبة نسق الآية لّما قبلها وما بعدها من الآيات هي علل ترتيب أجزائها، أي: إنّه المعنى الذي يربط فيما بينها[1]، فقد يطوي معنى ومقصد الآية لّما بعدها من الآيات، فيناسب مقصد الآية السياق السابق بالسياق اللاحق للآية الأخرى، فالمناسبة تبرز دلالة السياق النسقي الخاص مع دلالة السياق العام للسورة كلها بمجموع آياتها.

ففي قوله تعالى: ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ (١) مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ (٢) وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ (٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ (٤) عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾[2] وربما يسال سائل ما علاقة القسم بالنجم مع نفي الضلال والغوى عن النبي المصطفى ﷺ، وكذلك نفي نطق الهوى عنه. فلفظة ﴿هَوَىٰ﴾ تعني غرب وسقط، وقوله تعالى: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾، فالضلال نقيض الهدى، وهو العدول عن الطريق المستقيم، ويقابل الضلال الهدى، وهذا ما يرد في القرآن الكريم كثيراً، كقوله تعالى: ﴿مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ﴾[3] وقوله تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ﴾[4]، ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ

---

(١) ينظر: نظم الدرر: ١/٥؛ والإتقان في علوم القرآن: ٣/٣٢٣؛ وعلم المناسبات في السور والآيات: ٢٧.

(٢) سورة النجم: ٢-٥.

(٣) سورة الإسراء: ١٥.

(٤) سورة الضحى: ٧.

﴿وَهُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱهۡتَدَىٰ﴾[1].

وضل السعي إذا حبط، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾[2]، وضل الشيء خفي وغاب، وإذا سقط الدرهم عنك فقد ضلت، وإذا ضاعت الدابة فقد ضلّت[3]، كما في الدعاء (اللهم ردّ عليَّ ضالتي)[4].

وأمّا الغي فهو الضلال والخيبة والفساد[5] والاعتقاد والفساد[6] والغي نقيض الرشد، كما يقرن القرآن الكريم بينهما على إنَّهما نقيضان، قال تعالى: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ﴾[7] فنفى عن الرسول ﷺ الضلال والغي، فقال: و﴿مَا ضَلَّ﴾ و﴿وَمَا غَوَىٰ﴾ فهو مهتد رشيد، وكرر (ما) في النفي للدلالة على إنّه لم يحصل له واحد من هذين على سبيل الجمع أو الإفراد ولو جمع بينهما بـــ(ما) لاحتمل نفي الجمع بينهما، أي: لم يجتمعوا فيه، وإنّما حصل له واحد منهما[8].

واحتمل نفي الإفراد أيضاً، واحتمل نفي الأول وإثبات الثاني فمثلاً أن تقول (ما ضربه وشتمه) أي: لم يفعل الاثنين جميعاً، وإنّما فعل واحداً منهما

---

(١) سورة النجم: ٣٠.

(٢) سورة الكهف: ١٠٤.

(٣) ينظر: من أسرار البيان القرآني: ٢١٥، ٢١٦، ٢١٧.

(٤) الدعوات الكبير: ١٨٧/٢.

(٥) لسان العرب: ١٤٠/١٥.

(٦) تفسير البيضاوي: ١٥٧/٥؛ الكشاف: ٩٤/٣؛ روح المعاني: ٤٥/٢٧.

(٧) سورة الأعراف: ١٤٦.

(٨) ينظر: من أسرار البيان القرآني: ٢١٧.

فتكون الواو استئنافية أو حالية، أمّا إذا قلت (ما ضربه وما شتمه) نفيت الأمرين على كلّ حال[1].

«وإنّ علاقة القسم بالجواب ظاهرة، فقد أقسم بالنجم إذا هوى ما ضل صاحبكم وما غوى، وهوى معناه سقط وعزب، والضلال والغواية سقوط، فناسب سقوط النجم سقوط الإنسان وهويّه»[2] وهذا من روائع التناسب النسقي في القرآن الكريم.

«وقوله تعالى: ﴿ **وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ** ﴾، نفي النطق بالفعل المضارع للدلالة على استمرار النطق ونفي النطق عن الهوى»[3]، وهنا إشارات بلاغية عظيمة، ودلالات على تلاحم القرآن بعضه ببعض، وترابط آياته يوضحه التناسب النسقي والترتيب للآية [4].

وإنّ اللفظة الثانية ﴿**هَوَىٰ**﴾ من الآية الأولى مرتبط بمقصد الآيتين اللاحقتين لها، فتناسب اللفظ والمعنى للآيات، فالكلام بارع المطلع، له روعة تستوي اللب أي: مغزى السورة، وتخفّ على السمع، فوقعت من القلب موقعاً حسناً، يقبل عليه السامع[5]، لأنّ لفظة ﴿**هَوَىٰ**﴾ في آية القسم ناسبت وناسقت لفظة هوى في الآية ﴿ **وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ** ﴾ وناسب ما قبله من الجواب، فالهوى الذي يستحل الإنسان يترك لأجله الحق إنّما هُوَ هويّ

---

(١) ينظر: المصدر نفسه: ٢١٧.

(٢) من أسرار البيان القرآني: ٢١٨.

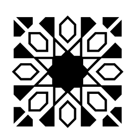
(٣) المصدر نفسه: ٢١٨.

(٤) ينظر: البيان في الإعجاز والتناسب في القرآن الكريم: ٣١٠ .

(٥) ينظر: الإمام البقاعي ومناهجه في تأويل القرآن الكريم: ١/١٩٤.

وسقوط وَهُوَ ضلال وغي، فناسب ذَلِكَ ما قبله وارتبط به أحسن ارتباط فضلاً عن إنّه رتبت هذه الأمور وتناسقت من العام إلى الخاص، فقدم الضلال على الغي وقدم الغي على النطق؛ لأنّ الضلال عام فِي الإنسان وغيره من الحيوان والجماد، وَهُوَ عام فِي السلوك والقول والاعتقاد، فهو أعم من النطق، فإنّ الغي يكون سلوكاً اعتقاداً وعملاً ثم آخرها النطق وَهُوَ أخص[1].

إذن مناسبة الآية للآية يقصد منها الترابط والنسق بين الآيات مع بعضها، من حيث ترابط نسق مطلع الآية بما بعدها من الآيات، وتناسب نسق ألفاظها لمدلولها ومقصودها وغرضها، وَهَذَا من وجه التحدي فِي القرآن الكريم بنظمه وصحة معانيه وتوالي فصاحة ألفاظه ووجه إعجازه[2].



---

(١) ينظر: من أسرار البيان القرآني: ٢٢.

(٢) ينظر: البيان فِي الإعجاز والتناسب فِي القرآن الكريم: ٣٠٦.

الفصل الثالث

أثر السياق القرآني
فِي بيان تناسق مدلول المفردة القرآنية في اشتراكها اللفظي

المبحث الأول

المفردة القرآنية ومشتركاتها اللفظية

إنّ موضوع المفردة فِي القرآن موضوع واسع متشعب الأطراف متعدد المناحي وأنّ كُلّ مفردة وضعت وضعاً فنيّاً مقصوداً فِي مكانها المناسب يعرب عنه السياق ويبيّن دلالتها ومقصودها ويوضح جمال نسقها وترتيبها فيه(1).

ومعنى الكلمة فِي المعجم متعدد يتحدد بالسياق الذي يرد فيه، بسبب ما فِي السياق من قرائن تعين على التحديد، لا نعني به السياق اللغوي (الداخلي) وحده، بل جميع أنواع السياق، الذي يشترك فِي تحديد معنى الكلمة(2).

فقد يتشابه تعبيران فِي القرآن الكريم مع شيء من الاختلاف فِي اللفظة وذلك لأغراض يقتضيها السياق والمقام فيكون كُلّ تعبير أنسب فِي مكانه يفضي إلى علائق دلالية وفنية واجتماعية بين هذه المعاني والسياق(3).

ومن أمثلة أثر السياق فِي بيان مدلول ومعنى الكلمة القرآنية ما ورد فِي سورة الأنعام قوله تعالى: ﴿وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ﴾(4)، وَفِي

---

(1) ينظر: بلاغة الكلمة فِي التعبير القرآني: ٣، ٤.

(2) ينظر: اللغة العربية معناها ومبناها: ٣١٦؛ وينظر: السياق والمعنى: ٥.

(3) ينظر: من أسرار البيان القرآني: ١٤٠؛ وينظر: السياق والمعنى: ١٣٥.

(4) سورة الأنعام، من الآية: ٩٩.

قوله تعالى: ﴿مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍۗ﴾[1]، فذكر ﷻ فِي الآية الأولى: ﴿مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍۗ﴾ وَفِي الآية الثانية: ﴿مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍۚ﴾، مع إنّ الموضعين كما يبدو متشابهان، والآيتان فِي السورة نفسها، وذكر المفسرون أنَّ اشتبه وتشابه بمعنى واحد كاشترك وتشارك واستوى وتساوى ونحوها ممّا اشترك فيه باب الافتعال والتفاعل[2]، والذي يظهر أنَّهما ليسا بمعنى واحد؛ وأنّ كُلّ لفظة اختصت بالموطن المناسب لها، والسياق هُوَ الذي حدد صيغة اللفظة فِي التعبير[3] وهذا التناسق العجيب في ترتيب الألفاظ يوضح أنَّ هذا القرآن من لدن حكيم خبير أبدع وأتمَّ وأعجزَ.

وبالنظر فِي سياق كُلّ من الآيتين يتضح الفرق بين التعبيرين، ففي سياق الآية الأولى فِي بيان قدرة الله وآياته الباهرة فِي خلقه، قَالَ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰۖ يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَيِّۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًاۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ

(١) سورة الأنعام، من الآية: ١٤١.

(٢) ينظر: البحر المحيط: ٤/١٩١؛ وينظر: الكشاف: ١/٥٢٠.

(٣) ينظر: بلاغة الكلمة فِي التعبير القرآني: ٨٠.

﴿مُتَشَٰبِهٍۗ ٱنظُرُوٓاْ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ وَيَنۡعِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمۡ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾[1].

«وأمّا سياق الآية الأخرى، ففي بيان الأطعمة وما يحلله ويحرمه أهل الكفر افتراءً على الله وبيان عقائدهم الباطلة»[2].

قَالَ تعالى: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلۡحَرۡثِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ نَصِيبٗا فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعۡمِهِمۡ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَاۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمۡ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمۡۗ سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ ﴿١٣٦﴾ وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ قَتۡلَ أَوۡلَٰدِهِمۡ شُرَكَآؤُهُمۡ لِيُرۡدُوهُمۡ وَلِيَلۡبِسُواْ عَلَيۡهِمۡ دِينَهُمۡۖ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُۖ فَذَرۡهُمۡ وَمَا يَفۡتَرُونَ ﴿١٣٧﴾ وَقَالُواْ هَٰذِهِۦٓ أَنۡعَٰمٞ وَحَرۡثٌ حِجۡرٞ لَّا يَطۡعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعۡمِهِمۡ وَأَنۡعَٰمٌ حُرِّمَتۡ ظُهُورُهَا وَأَنۡعَٰمٞ لَّا يَذۡكُرُونَ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَا ٱفۡتِرَآءً عَلَيۡهِۚ سَيَجۡزِيهِم بِمَا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ﴿١٣٨﴾ وَقَالُواْ مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ خَالِصَةٞ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِنَاۖ وَإِن يَكُن مَّيۡتَةٗ فَهُمۡ فِيهِ شُرَكَآءُۚ سَيَجۡزِيهِمۡ وَصۡفَهُمۡۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٞ ﴿١٣٩﴾ قَدۡ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوۡلَٰدَهُمۡ سَفَهَۢا بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفۡتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِۚ قَدۡ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ ﴿١٤٠﴾ ۞وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٖ مَّعۡرُوشَٰتٖ وَغَيۡرَ مَعۡرُوشَٰتٖ وَٱلنَّخۡلَ وَٱلزَّرۡعَ مُخۡتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهٗا وَغَيۡرَ مُتَشَٰبِهٖۚ كُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوۡمَ حَصَادِهِۦۖ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ

(١) سورة الأنعام: ٩٥-٩٩.

(٢) بلاغة الكلمة في التعبير القرآني: ٨١.

﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾[1].

وَقَدْ اتسمت الآيتان كلتيهما بسمات السياق الذي وردت فيه كُلّ آية منهما، فالآية الأولى فِي بيان قدرة الله وآياته، والأخرى فِي بيان ما يؤكل، من الفواكه والزرع، فكان كُلّ تعبير مناسباً لسياقه ومتناسقاً ومرتباً بحسب المقام الذي سيق إليه، فالأمور المشتبهة تحتاج إلى زيادة نظر وتأمّل لإدراك حقيقة أمرها، فوضع ﴿مُشۡتَبِهًا﴾ فِي السياق الدال على قدرته تعالى وآياته، وَفِي موضع الأمر بالنظر (انظروا إلى ثمره) دون الموضع الآخر ممّا ليس فِي هَذَا السياق، فكان كُلّ تعبير أنسب فِي سياقه الذي ورد فيه.

«أمّا قوله تعالى فِي الموضعين: ﴿وَغَيۡرَ مُتَشَٰبِهٍۗ﴾ فنفي التشابه دون الاشتباه؛ لأنّ التشابه ينفي الاشتباه ونفي الاشتباه لا ينفي التشابه، وإيضاح ذَلكَ إذا قلت: (هذان الشيئان غير متشابهين) فقد نفيت التشابه بينهما ونفيت الاشتباه من باب أولى، وذلك لأنّ الاشتباه إنّما يحصل من شدة التشابه بين الشيئين، فإذا نفيت التشابه زال الالتباس والاشتباه»[2].

«أمّا إذا قلت: (هذان الشيئان غير مشتبهين) فقد نفيت الاشتباه وعدم التمييز بينهما، ولكنك لم تنف التشابه، فقد يكون بينهما تشابه لا يوقع فِي اللبس، فعلى هَذَا يمكن النوعان متشابهين فِي وجه من الوجوه، فأراد أن ينفي ذَلكَ فَقَالَ: ﴿وَغَيۡرَ مُتَشَٰبِهٍۗ﴾ وَهَذَا أدل على القدرة، فإن جعل الأشياء بعضها متشابه وبعضها مختلف أدل على القدرة من جعلها كلها متشابهة أو جعلها كلها مختلفة، والله أعلم»[3].

---

(١) سورة الأنعام: ١٣٦-١٤١.

(٢) ينظر: بلاغة الكلمة فِي التعبير القرآني: ٨٢.

(٣) المصدر نفسه: ٨٥.

«وإن (اشتبه) أكثر ما يفيد فِي الالتباس والإشكال، وإن (تشابه) أكثر ما يفيد معنى التشابه بين الشيئين أو الأشياء المشاركة بينهما فِي معنى من المعاني سواء أدى ذَلِكَ إلى الالتباس أم لم يؤد»[1].

إنّ جودة النظم وحسن سياق النصوص أظهر تغير مجال الاستعمال للفظتي (مُشتبهاً) و(متشابهاً) فِي الآيتين، وبيّن بلاغة المعاني فِي التحوّل الدلالي (الانتقال الدلالي)، أي: انتقال دلالة اللفظ من قيمة دلالية معينة إلى قيمة أخرى؛ بسبب وجود علاقة لغوية بين المعنى الأول والمعنى الثاني فعلى هَذَا فإنّ عملية الصياغة إنّما هي محصلة ما يحدثه السياق من صور وأحاسيس وتناغم وتفاعل وترتيب ونسق ومجموعها يكون المقصود والمراد من معنى الآيات الذي أظهره أثر السياق القرآني في جمالية النسق القرآني وبيان هذا التقسيم والترتيب العجيب.

ولا يستعمل اللفظ المشترك إلاّ مع قرينة تبيّن المراد من معانيه المشتركة، لأنّ فِي المشترك اللفظي يكون أمر المعنيين أولى من الآخر فِي ارتباطه فِي ذَلِكَ اللفظ، والسياق هُوَ الذي يعين ويحدد المعنى المراد من المعاني المشتركة بلفظ الواحد، وَهَذَا السياق لا يقوم ويعتمد على كلمة تنفرد وحدها فِي الذهن، وإنّما يقوم على تركيب وجد الارتباط والتلاحم بين إفراد الجمعة.

فيخلع على اللفظ المعنى المناسب، والقرينة التي ارتبطت مع أجزائه التي حواها السياق هي التي تعني إيجاد المقصود والمراد من الآية أو الآيات[2].

والسياق هُوَ محصلة بيان المعنى المراد من المشترك اللفظي الناتج من تطور الأصل الدلالي لكثير من ألفاظ اللغة بسبب الوضع والاستعمال المجازي.

(١) بلاغة الكلمة فِي التعبير القرآني: ٨٣.

(٢) جواهر البلاغة: ٣٠ .

المبحث الثاني

أثر السياق القرآني فِي

تحديد وتحرير المعنى المراد من المشترك اللفظي

ونعني بالمشترك اللفظي «لفظ وضع بأوضاع متعددة لأكثر من معنى واحد وبتعبير أدق ما اتحد لفظه وتعدد وضعه ومعناه»(١)، أي: إنّ هناك لفظ يشترك فيه معنيين أو أكثر على التساوي فِي الاستحقاق الدلالي، ويأتي دور السياق فِي تحليل نظري دقيق فِي تحرير أو تحديد المعنى الدلالي للمشترك اللفظي.

والسياق الذي يحدد اللفظ أو يحرره سواء أَكَانَ سياق مقتضى الحال والمقام والذي نعني به الواقع الخارجي المحيط بالنص أو السورة كاملة، وما يسمى بالسياق الموضوعي، له من الأهمية ما للسياق اللغوي داخل النص، حيث يرشد إلى تعيين المحتمل والقطع بعدم احتمال غير المراد، أو تنوع الدلالة واحتمال المعنيين معاً، فأثر السياق مباشر فِي تحليل دلالات النص القرآني وتعيينها.

أ - أثر السياق القرآنِي فِي تحديد المعنى المراد من المشترك اللفظي:

السياق له أثر فِي تحليل المعنى وتعيينه المقصود، والمراد من المشترك اللفظي وبيان المراد منه يكون من معنى يفهم من السياق الموضوعي واللغوي وشيئاً من الحقائق التي يتضمنها السياق العام أو الخاص.

فالسياق العام يمدنا بالمحدد الدلالي الأول، ويأتي بعده دور السياق اللغوي بعد تقريب فهم السياق العام، حيث يحدد معلماً جديداً من معالم المعنى(٢). ولا

---

(١) أصول الفقه فِي نسيجه الجديد: ٤٦٦.

(٢) ينظر: علم الوجوه والنظائر: ٦٤، ٩٥.

يستعمل اللفظ (المشترك اللفظي) إلاّ مع قرينة تعيّن المراد من معانيه المشتركة، لأنّ فِي المشترك اللفظي يكون أحد المعنيين أولى من الآخر فِي ارتباطه فِي اللفظ الواحد، والسياق لا يقوم ويعتمد على كلمة تنفرد وحدها فِي الذهن، وإنّما يقوم على تركيب يوجب الارتباط والتلاحم بين أجزاء الجملة، فيخلع على اللفظ المعنى المناسب، والقرينة التي ارتبطت مع أجزائه التي حواها السياق هي التي تعني فِي إيجاد المقصود والمراد من الآية أو الآيات[1].

ومن أمثلة أثر السياق فِي تحديد المعنى فِي المشترك اللفظي، ما ورد فِي قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمْرَأَةٌ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ﴾[2]، فلفظ (كلالة) مصدر من الفعل الثلاثي (كلّ)، وَهُوَ لفظ مشترك لدلالات عدة، ذهب المفسرون فِي تأويلها إلى معانٍ عدة، منها: تأتي الكلالة أولاً: بمعنى الميت الذي لم يترك ولداً ولا والد[3]، أي: إنّ الدلالة تقتصر على الميت دون غيره من الورثة، والمعنى الثاني بمعنى الوارث المباشر، لأنّ الكلالة مأخوذة من التكلل بمعنى الإحاطة أي: أقاربه الذين يحيطون به كالة كليل[4]، وتأتي بمعنى ثالث هُوَ الوارث من الأقارب الأباعد[5]، والكلالة تأتي بالمعنى الرابع على المال الموروث[6]، لكن الأقرب لمعنى (الكلالة)

---

(١) ينظر: جواهر البلاغة فِي المعاني والبيان والبديع: ٢٩؛ وينظر: الدلالة والمعنى: ٢٦٤.

(٢) سورة النساء: ١٢.

(٣) ينظر: أحكام القرآن: ٥/٥٩؛ وينظر: الدر المصون: ٢/٣٢٥؛ وينظر: الجامع لأحكام القرآن: ٥/٥٩.

(٤) ينظر: التبيان فِي إعراب القرآن: ٩٩.

(٥) ينظر: الدر المصون: ٢/٣٢٥.

(٦) ينظر: التبيان فِي إعراب القرآن: ٩٩؛ ينظر: الكشاف: ١/٤٧٥.

هي الميت نفسه، لا ورثته ولا ماله ولا أقاربه الأباعد، لأنّ اللفظة (الكلالة) مشتقة من التكلل، والإحاطة، وأنّ دلالة (كلالة) مع كسر الراء فِي (يورث) تختلف عمّا هي عليه مع فتحها، لأنّ مع فتحها تدل على المال الموروث، أمّا مع كسر الراء تشديداً وتخفيفاً تدل على الميت، وجمهور الفقهاء والمفسرين أجمعوا على الأخذ بالمعنى الأول القائل بأنّ (الكلالة) تدل على الميت نفسه لا ورثته ولا ماله ولا أقاربه الأباعد، لأنَّه يوصف بهذه الحالة إذا ترك مالاً وليس له أب ولا ولد(١).

فدور السياق هنا إحكام المعنى وذلك فِي توجيه دلالة الأسلوب بما لا يدع مجالاً لتعدد تأويل المعنى، وذلك بحصر الدلالة بمعنى واحد يتحدد به اللفظ، واستبعاد الاحتمالات الممكنة الأخرى(٢) جعل تناسق العبارة مع ترتيب اللفظ في توضيح المعنى المطلوب من خلال تحديد دلالة السياق ودورها في إظهار المعنى.

وَفِي قوله تعالى: ﴿نِسَآؤُكُمۡ حَرۡثٞ لَّكُمۡ فَأۡتُواْ حَرۡثَكُمۡ أَنَّىٰ شِئۡتُمۡۖ﴾(٣).

حيث فسّر العلماء لفظ (أنى) بمعنى (كيف)، وذلك بالقرآن السياقية اللغوية وغير اللغوية (سياق الحال والمقال)، ولفظة (أنّى) تأتي بمعنى (أين) و(متى)، فقد انحرف المعنى إلى دلالة جديد تنتجها دلالة السياق المقالي وَهُوَ لفظ (حرثكم)، فحدد المعنى بهذه القرينة السياقية، فإنّ إتيان النساء فِي غير موضع التناسل لا يوافق كون النساء حرثاً لأزواجهن، وأنّ موضع الحرث

---

(١) ينظر: أثر الدلالة اللغوية فِي التأويل عند المفسرين: ٢٥١، ٢٥٢.

(٢) ينظر: السياق والمعنى: ١٠٦.

(٣) سورة البقرة: ٢٢٣.

موضع الولد، والله تعالى أباح الإتيان فيه فِي غير وقت المحيض، وإباحة الإتيان فِي موضع الحرث يشبه أن يكون تحريم إتيان غيره[1] والدليل على ذَلِكَ قوله تعالى ما سبق الآية من قول: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ﴾[2]، «فإنّ السياق يقتضي أن يكون الغرض إباحة ماعدا محال الأذى، والمراد تعميم الإباحة فِي الأحوال لا المحال، فيكون المراد قصر الاتصال بالمرأة على الموضع الذي هُوَ طريق النسل، وإباحة إتيانها على أي وجه من وجوه الإتيان لذلك الموضع المأتيّ»[3].

فالكلمة لا تعطي معنىً بمعزل عن السياق اللغوي الأكبر أو بعض العناصر الخارجية الأخرى دلالة ما، فيحتاج توجيه المعنى إلى عناصر سابقة أو لاحقة له أو خارجة عنه، وهذا التناسق والترتيب في الآية انعكس على بيان قوّة الأحكام الشرعية وإحكامها وضبطها من خلال الفهم السليم لمقتضى مجيء سياقها ونسقها [4].

وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ﴾[5]، فلفظة ﴿عَسْعَسَ﴾ مشترك بين إقبال الليل وإدباره، وهنا يأتي دور السياق فِي تحديد دلالة أحد المعنيين، فجاءت الآية اللاحقة تعصين معنى الإدبار للفظة ﴿عَسْعَسَ﴾ كقرينة سياقية لبيان ذَلِكَ، قوله تعالى: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ﴿١٧﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾، فبالسياق

---

(١) ينظر: أحكام القرآن: ١/١٩٤؛ وينظر: نظرية السياق: ١٣٥.

(٢) سورة البقرة: ٢٢٣.

(٣) نظرية السياق: ١٣٥.

(٤) ينظر: السياق والمعنى: ١٠٧.

(٥) سورة المدثر: ١٧-١٨.

يتبين أنّه الإشراق يأتي بعد إدبار الظلمة[1] فهذا التناسق السياقي من خلال اللفظتين ﴿عَسۡعَسَ﴾ ﴿تَنَفَّسَ﴾ حدد دلالة المعنى ووضحه وأجلاهُ.

إذن فالسياق هُوَ محصلة بيان المعنى المراد من المشترك اللفظي الناتج عن تطور الأصل الدلالي لكثير من ألفاظ اللغة بسبب الوضع والاستعمال المجازي، وَهَذَا راجع إلى الأصل الدلالي للفظ لما يحمله من خصائص دلالية لا يمكن أن تتطابق جميعها مع خصائص لفظ آخر[2].

ب- أثر السياق القرآني فِي تحرير المعنى المراد من المشترك اللفظي:

تتقارب بعض الألفاظ فِي اللغة العربية تقارباً يكاد يصل فِي بعض الأحيان إلى درجة الترادف غير التام، فيكون لفظ من ألفاظ النص مشتركاً، لا يعرف معناه على التحديد، فيؤدي ذَلِكَ إلى عدم استقلال اللفظ بإفادة المعنى، فيبقى بينهما بعض الفروق الدقيقة التي تميز بعضها عن بعض، الأمر الذي يجعل علماء الأصول والتفسير، والفقه والبلاغة، يبحثون عن القرائن اللفظية والمعنوية والحالية للكشف عن دلالته[3].

وهناك ألفاظاً مشتركة تؤخذ على إطلاقها فيما تدل عليه من معاني، وَهَذَا يحرره أثر السياق فيها، وتنوع الدلالة يدل عليه السياق، فالسياق من أعظم القرائن الدالة على مراد المتكلم.

وتربط دلالات الألفاظ علاقات متشابكة ومشتركة تحمل على إطلاقها فِي إفادة المعنى داخل النص، يسمح به السياق بأنواعه اللغوية وغير

(١) ينظر: علم الوجوه والنظائر: ٧٤.

(٢) ينظر: جواهر البلاغة: ٣٠؛ وينظر: من الإعجاز اللغوي فِي القرآن: ٣٧.

(٣) ينظر: من الإعجاز اللغوي فِي القرآن: ٣٦؛ وينظر: نظرية السياق: ١٣٤.

اللغوية[1]. ومعنى تحرير المعنى المراد من المشترك اللفظي هُوَ أخذ المعنيين مطلقاً للفظ المشترك، أو هُوَ تعميمه للمعنيين فِي سياق واحد، واعتماده كلاهما سواء أكانت المعاني حقيقية أم مجازية[2]، ومن أمثلة ذَلِكَ قوله تعالى: ﴿ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٖ﴾[3]، فلفظ ﴿قُرُوٓءٖ﴾ مشترك بين الطهر والحيض حيث يحتمل السياق القرآني المعنيين[4].

وقوله تعالى: ﴿وَلۡيَطَّوَّفُواْ بِٱلۡبَيۡتِ ٱلۡعَتِيقِ﴾[5]، ولفظ ﴿ٱلۡعَتِيقِ﴾ يطلق بالاشتراك على القديم، وعلى المعتق من الجبابرة وعلى الكريم، وكلها قيل به فِي الآية، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيۡتٖ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ﴾[6] يدل على قدم وضع البيت[7].

وقوله تعالى: ﴿قُل لِّعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا بَيۡعٞ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ﴾[8]، فالخلال هنا لفظ مشترك يحتمل أن يكون جمع (الخلة)، ويمكن أن تكون مصدر (خالّ) وهي من المصادقة، وتحتمل أن تكون مصدر (خاللت) أيضاً الدال على المشاركة،

---

(١) ينظر: علم الوجوه والنظائر: ٧٣.

(٢) ينظر: نظرية السياق: ١٤٠.

(٣) سورة البقرة: ٣٢٨.

(٤) ينظر: علم الوجوه والنظائر: ٧٤؛ وينظر: أصول الفقه فِي نسيجه الجديد: ٤٦٧.

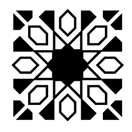
(٥) سورة الحجّ: ٣٩.

(٦) سورة آل عمران: ٩١.

(٧) ينظر: علم الوجوه والنظائر: ٧٤.

(٨) سورة إبراهيم: ٣١.

وَقَدْ جاء بها بالجمع أو بالمصدر الدال على المشاركة[1] فيمكن إطلاق المعنيين على لفظ الخلال فِي سياق الآية الكريمة. وهذه الألفاظ من خلال المتابعة يجد القارئ مقدار التناسق والترتيب في مجيئها حتى أنَّ القارئ ليجد قيمة هذه التعابير والكم الهائل من المعاني مضغوط بالألفاظ القليلة وهذا كله يتأتّى من خلال مجيئها في سياق عجيب ومنظم هو من عند خبير عليم.



(١) ينظر: من أسرار البيان القرآني: ١٩١، ١٩٢.

الفصل الرابع

أثر السياق فِي التناسق القرآني في علم المعاني

التناسق فِي آيات القرآن الكريم ونصوصه هُوَ ترتيب الجمل وتتابع كلماتها متتالية ومتلاحمة، بترتيب فِي اللفظ والمعنى وانسجام أصوات ألفاظها فِي نظام متكامل، يبيّنه أثر السياق الداخلي (اللغوي) والخارجي (المقام والحال والموضوع).

وَهَذَا النظام البديع محكم البناء لكلمات القرآن الكريم، يبرهن على استحالة بالإتيان بمثله.

فالصيغة الأنسب لأي كلمة من الآيات القرآنية متفقة مع قبلها وبعدها ومع النظام العام للآيات والسورة كاملة، وهذه الصيغة تتفق من حيث اللفظ والمعنى مع النظام المتسلسل التي هي فيه، ومع الموضوع الذي سيقت من أجله ومن حيث التأثير المعنوي للمتلقي، ومع الجرس والتناغم الصوتي الحاصل المؤثر على الوجدان.

فالسياق له أثر كبير بأنواعه على تناسق وضع الكلمة ومعناها وموضوعها مع الكلمات الأخر فِي الآية أو النص، من حيث حذفها وتقديرها أو من حيث تقديمها وتأخيرها، وغيرها من الحالات التي توضع لأجلها. فلا يقتصر تنظيم كلمات وآيات القرآن وترتيبها على دقة الكلمات والعبارات بل هناك نظام بلاغي لتدرُّج هذه الكلمات عبر آيات وسور القرآن الكريم يظهره السياق القرآني لها(١).

(١) ينظر: البلاغة الميسرة: ٢٤٨.

المبحث الأول

أثر السياق القرآني فِي الدلالة على المحذوف وتقديره

الحذف هُوَ إسقاط كلمة أو حرف يخلف منها ما يقوم مقامها لإيراد المعنى الذي يطلبه السياق(١) من طريق وجود قرينة تدل على المحذوف مع وجود غرض بلاغي يحققه هَذَا الحذف(٢).

وَفِي القرآن صيغ الكلام صياغة منسجمة مع خلو هَذَا الكلام من بعض أجزائه مع قدرة اختبار المتلقي على فهمه لهذا النص مع وجود شيء محذوف منه(٣)، فالحذف إذن «هُوَ اللفظ المدلول عليه بالقرائن»(٤).

وسور القرآن الكريم فيها أنماطاً تركيبية معينة فإذا لم تشتمل على بعض هذه التراكيب يعد ذَلِكَ حذفاً، وَهَذَا الحذف لا يكون عشوائيّاً بل لحكمة قَدْ تنبّه لها العلماء وَقَدْ لا يعلمونها، أو قَدْ علموا جزءاً منها(٥).

ومن أمثلة حذف كلمة من الآية، قوله تعالى: ﴿ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ﴾(٦)، فحذف هنا المضاف وَهُوَ (أهل) وأقام المضاف إليه مقامه، لمعنى ارتضاه السياق، وَهُوَ أسلوب طلب أمر، الغرض منه الالتماس(٧)

---

(١) ينظر: رسالتنا فِي اللغة: ٧٠.

(٢) ينظر: البلاغة الميسرة: ٤٦٥.

(٣) ينظر: المصدر نفسه: ٤٦٥.

(٤) مختصر المعاني: ٤٠.

(٥) البلاغة الميسرة: ٤٦٦.

(٦) سورة يوسف، من الآية: ٨٢.

(٧) ينظر: سر صناعة الإعراب: ٣٩/١؛ وينظر: فقه اللغة وسر العربية: ٢٢٣.

وأهل القرية هم أهل مصر، فحذفت (أهل)، لأنّ القرية والعير لا ينبئان عن صدق أخوة يوسف، لأنّ القرية لا تُسأل ولا تجيب[1] وأنّ أبيهم غير مصدّق لهم، ومصداق ذَلِكَ قولهم: ﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ [2]﴾[3].

وقوله تعالى: ﴿حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةُ﴾[4]، أي: تناولها الميتة، فحذف لفظ (أكل) وَهُوَ المضاف وبقي (الميتة) وَهُوَ المضاف إليه، لأنّ الحكم الشرعي إنّما يتعلق بالأفعال دون الإجرام، وتقدير التناول أولى من تقدير الأكل ليدخل فيه شرب ألبانها، فحذف لفظ (أكل)، وقدر مكانه (تناول) ليشمل كُلّ ما يختص بالميتة[5] والله أعلم.

أمّا حذف حرف من الكلمة داخل الآية لغرض بلاغي يقتضيه معنى السياق والحذف لا ينسب إلى مضمون القرآن بل إلى الغرض البلاغي منه وَهُوَ يرجع إلى تركيب اللغة العربية، فمن روائع البيان القرآني المعجز أنّه يحذف حرفاً من بعض ألفاظه فِي موضع ويذكره فِي موضع آخر، لعلة فِي ذلك[6] ومثاله قوله تعالى: ﴿هَٰذَا فِرَاقُ بَيۡنِي وَبَيۡنِكَۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأۡوِيلِ مَا لَمۡ تَسۡتَطِع عَّلَيۡهِ صَبۡرًا﴾[7]، وردت هذه الآية فِي قصة موسى والخضر، عندما رافق

---

(١) ينظر: تفسير الإمام الشافعي: ٢/٩٨٢.

(٢) سورة يوسف، من الآية: ٨٢.

(٣) ينظر: تفسير الطبري: ١٦/٢١٢.

(٤) سورة المائدة، من الآية: ٣.

(٥) ينظر: الإيضاح فِي علوم البلاغة: ١٧٧.

(٦) ينظر: البلاغة الميسرة: ٤٦٦.

(٧) سورة الكهف: ٧٨.

موسى الخضر وأمره بعدم سؤاله له عمّا يفعله، فكان يفعل أموراً يرى فيها موسى أنّ الخضر مخالف لها، فينكرها عليه، وبعد أن نبّأه بتأويل أفعاله وأخبره أنّه لم يفعل ذَلِكَ من تلقاء نفسه[1] بل هُوَ إلهام من الله[2]، ثم قَالَ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾[3]، ووجه البيان البلاغي هنا أنّه فِي المرة الأولى كَانَ موسى فِي قلق محيّر جرّاء أفعال الخضر فراعى السياق القرآني الثقل النفسي الذي يعيشه موسى عليه السلام فأثبت التاء ليتناسب مع الثقل النفسي لموسى، فالثقل فِي نطق الكلمة بزيادة الحرف، لأنّ زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى[4]، «وحذف فِي المرة الثانية بعد زوال الحيرة وخفة الهم عن موسى، ليتناسب خفة الهم مع خفة الكلمة بحذف الحرف الذي ليس من أصل الكلمة»[5]، وهذا من جمال تناسقات القرآن الكريم وسياقات ترتيبه المبهر والمعجز.

ومثله أيضاً قوله تعالى: ﴿فَمَا ٱسْطَٰعُوٓاْ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقْبًا﴾[6] فحذفت التاء فِي (اسطاعوا) الأولى وأثبتت فِي (استطاعوا) الثانية، وذلك ليتناسب مع السياق، لأنّ تسلق السد أهون من نقبه، ففيه شيء لطيف وخفة وعدة ثقيلة، فناسب ذكر التاء، ليكون ثقل الكلمة مناسب لثقل الفعل

(١) ينظر: البلاغة الميسرة: ٤٦٧.
(٢) ينظر: تفسير الجلالين: ٣٩٣.
(٣) سورة الكهف: ٨٢.
(٤) ينظر: البلاغة الميسرة: ٤٦٧.
(٥) البلاغة الميسرة: ٤٦٧.
(٦) سورة الكهف: ٩٧.

وخفة الكلمة مناسب لخفة الفعل(١).

فالتعبير فِي سياق الآيات لا يحتمل مرة ذكر التاء، ويحتملها فِي موضع آخر، فهذا ما يحكمه أثر السياق البلاغي القرآني، يتبين أنّ الحذف أبلغ من الذكر، لأنّ الحذف يذهب إلى وجوه التعظيم والقوة والثقل(٢). وهذه التوافقات السياقية في الحذف كان للنسق القرآني دوراً واضحاً فيها؛ إذ ناسب ذكر التاء وحذفها تناسقاً موسيقياً وأداءً صرفياً متميزاً لا تجدهُ إلا في كتاب الله فهذا من حُسن النظم والترتيب العجيب والتناسق المبهر لكتاب الله ﷻ.

أ – أهمية الحذف وقيمه الفنية:

إنّ الآلية المادية لبناء الكلام الدال على المعاني التي يراد الإعلام بها وإبرازها وإظهار محاسنها هُوَ الذكر والحذف، والتي تُعرف بقوى الإدراك اللمحي والإشاري، وقوى الاستدلال بقرائن الأحوال وقرائن الأقوال، والغاية التي سيق من أجلها الكلام والتأثير الانفعالي والنفسي، لدى متلقي الخطاب، وخاصةً أهل الفطانة والذكاء، وأهل الخبرة بأساليب وطرائق الكلام المختلفة، فهؤلاء يكفيهم الرمز وتقنعهم الإشارة عن صريح العبارة(٣).

وَقَدْ يعتري الحذف أحد عناصر الجملة فِي اللغة العربية سواء العناصر الرئيسة أو غير الرئيسية، ويتجلى من هَذَا الحذف قيمة فنية تنسجم والنفس الإنسانية وَهَذَا يتجلى فِي روعة أسلوب القرآن الكريم، وإيقاعه وجرسه الفني، الناتج من التركيب اللفظي، الذي يتجلى منه المعنى الدلالي لآياته

(١) ينظر: البلاغة الميسرة: ٤٦٧.

(٢) ينظر: من الإعجاز اللغوي فِي القرآن: ٢٩٤.

(٣) ينظر: البلاغة العربية: ٣١٢/١.

الكريمة[1].

ويعد الحذف أبلغ من الذكر، ويكون للاختصار والاحتراز فِي إظهار المعنى اللائق دون الخل فِي تركيب الجملة بناءً على وجود قرينة تدل على المحذوف، وَهُوَ قسمان[2].

١- قسم يظهر المحذوف عند الإعراب، وَهُوَ ليس من البلاغة شيء، كما فِي قوله: (أهلاً وسهلاً)، فإن ناصب أهلاً وسهلاً، إن نصب الأهل والسهل يدل على ناصب محذوف يقدر بنحو جئت أهلاً ونزلت أو (حللت) مكاناً سهلاً، وليس فِي هَذَا الحذف من الحسن والأريحية.

٢- قسم لا يظهر فيه المحذوف عند الإعراب؛ وإنّما نعلم مكانه إذا تصفحنا المعنى، ووجد أنّه لا يتم إلاّ بمراعاته، مثل: (يعطي، ويمنع)، أي: يُعطي من يشاء، ويمنع من يشاء، ولكن لا سبيل إلى إظهار ذَلِكَ المحذوف، ولو أظهرناه لزال ولضاع ذَلِكَ الرونق والقيمة الفنية.

ب- سياقات الحذف ودلالته الفنية والنسقية:

إنّ حسن دقائق اللغة وعجيب سرها وبديع أساليبها أنك قَدْ ترى الجمال والروعة تتجلى فِي الكلام إذا نحن حذفنا أحد ركني الجملة أو شيئاً من متعلقاتها، وَهَذَا نجده فِي القرآن الكريم فهو كتاب له نمطه الخاص فِي التركيب؛ إذ يجد المتمرس فِي أساليب العربية وطرائقها فِي التعبير أنّ نمط وتركيب الجملة العربية فِي القرآن فريد متميز[3].

---

(١) ينظر: من الإعجاز اللغوي فِي القرآن: ٢٩٤.

(٢) ينظر: من الإعجاز اللغوي فِي القرآن: ٢٩٤؛ وينظر: جواهر البلاغة: ١٠٣؛ وينظر: علوم البلاغة: ٨٩.

(٣) ينظر: علوم البلاغة: ٨٩؛ وينظر: البلاغة الميسرة: ٤٥٦.

إنّ بلاغة الحذف تكمن فِي السبب الدلالي ولا يكون ذَلِكَ إلاّ فِي النوع الاختياري منه لا الإجباري؛ لأنه يذهب إلى وجوه، فضلاً عن إنّه يكون فِي الجملة والكلمة والحرف(١).

والحذف هُوَ تخفيف، وفاعل التخفيف بالخيار فيه إن شاء حذف وإن شاء أقر، وذلك بحسب المواقع والحال والموضوع أي: الصورة الداخلية والخارجية لسياق الجملة(٢).

والدلالة الفنية النسقية للحذف داخل السياق ما كَانَ فيه ما يوجب الإشارات على أسرار اللغة، قَالَ تعالى: ﴿وَنَادَوْا يَـٰمَـٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾، وهنا قَالَ العلماء: يوجد جانب فني وبلاغي يؤدي إلى سبب الترخيم عند قراءة هذه الآية هُوَ أنّهم لشدة ما هم فيه عجزوا عن تمام الكلام، وهذه علة بلاغية؛ لأنّها تشير إلى ما وراء هَذَا الحذف من ضيق الصدر، وغلبة اليأس ومعاناة الهول، ومعاناة شغلهم عن إتمام الكلمة(٣)، وهذا الحذف أعطى نسقاً صوتياً جمالياً جعل منه في غاية الروعة والبراعة التي هي من ضمن الإعجاز الصوتي للقرآن من خلال الاختيار لهذه العبارة الرقيقة والدقيقة.

ج- سياقات الحذف وأغراضه البلاغية والنسقية:

الحذف ملحظ نحوي دقيق المسلك له سماته المتفردة التي تجعله شبيهاً بالسحر، وإذا تأملنا النظم القرآني وجدنا أنّه فِي كثير من الأحيان يؤثر حذف اللفظ على ذكره، خاصةً إذا اقتضى المقام ذَلِكَ، وسياق الحال(٤).

(١) ينظر: من الإعجاز اللغوي فِي القرآن: ٢٩٤.
(٢) ينظر: أدب الخواص: ١/١١٧.
(٣) ينظر: علوم البلاغة: ٨٩.
(٤) ينظر: دلائل الإعجاز: ١٤٦؛ وينظر: من الإعجاز اللغوي فِي القرآن: ٢٩٤.

والأساليب العربية يذكر فيها بعض الألفاظ التي تفيد بعض المعاني ويحذف فِي غير تلك الأساليب لأغراض يرتجيها، ولا يكون الحذف في بعضها الآخر يمكن أن يصح فِي كُلّ موقع من المواقع، بل تكمن إجادة الحذف فِي الموقع الذي يصح فيه ذَلِكَ مع إفادة المعنى، وَهَذَا السر البلاغي فِي العربية[1].

فالكلام ينقسم إلى عمدة، لا يسوغ حذفها إلاّ بدليل، وإلى فضلة يسوغ حذفها لغير دليل وهي متعلقات الجملة، لكن ليس معنى ذَلِكَ أنا مخيرين فِي الحذف متى شئنا، بل يرجع فِي ذَلِكَ إلى النكات البلاغية[2].

فهناك دواعي للحذف وأغراض بلاغية تدل عليها قرينة، ودلالة فحوى الكلام عليها، ويتعلق ذَلِكَ بتركه غرض من الأغراض الآتية[3]:

١- إخفاء الأمر من غير المخاطب، نحو (أقبل)، أي: (تريد علياً مثلاً).

٢- تيسير الإنكار أمست إليه الحاجة نحو (الله ينتقم منه) بعد ذكرنا لشخص لا نذكر اسمه، ليتأتى لنا عند الحاجة أن نقول ما أردته وما قصدته.

٣- الحذر من فوات فرصة سانحة، كقولنا عن منبه صاحب الهاتف (التلفون) أي: يرن هاتفك.

٤- ضيق الصدر من إطالة الكلام، نحو: (نعم) عندما يقبل علينا شخص، أي: (ماذا تريد أتيت)، ومنه إلى ما يكون فيه المتحدث من حزن، وألم، أو ملل وسأم، أو إلى خوفه من فوات فرصة أو ضياع شيء، أو إلى

---

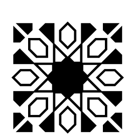
(١) ينظر: البلاغة الميسرة: ٤٦٥.

(٢) ينظر: المصدر نفسه: ٤٦٤.

(٣) ينظر: جواهر البلاغة: ١٠٣؛ وينظر: الخلاصة فِي علم البلاغة: ١٦؛ وينظر: سر الفصاحة: ٢١١، وعلم المعاني: ١٠٢.

سماعه أمراً غريباً يدعو إلى التعجب ويثير الاستغراب، فمنه قوله تعالى: ﴿فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾[1]، فقد حذف المسند إليه وتقديره (أنا عجوز عقيم) وسر بلاغة حذفه يرجع إلى تعجبها من بشارة الملائكة، واستبعادها أن تلد وهي عقيم وقد كبرت وزوجها شيخاً كبيراً، وكأنَّ المقام وما هي فيه من تعجب واستبعاد واستغراب يُضيف بالمسند إليه ويقتضي حذفه وهذا الترتيب في نسق الحذف جعله أكثر تأثيراً وإعجازاً.

وهنا تظهر دقائق البلاغة ومكنون سرها وروائع أساليبها وإبراز دونك سياقها، وشرط حسن الحذف أنّه متى ظهر المحذوف زال ما كَانَ فِي الكلام من البهجة والطلاوة والدقة فِي التأثير.



(١) الذاريات: ٢٨-٢٩.

المبحث الثاني

أثر السياق القرآني النسقي فِي الدلالة على التقديم والتأخير

ولما كانت الألفاظ قوالب المعاني وكان بعضها أكثر دلالة على المعنى، وتقديم اللفظ أو تأخيره هُوَ مطابقته لمقتضى الحال، وإظهار الذوق الجمالي القائم على التحليل اللغوي(١).

والتقديم والتأخير شكل من أشكال العدول التي تحقق فائدة دلالية لا تكون بوضع الكلام على أصله، وتقديم ما من شأنه التأخير أو تأخير ما من شأنه التقديم هَذَا من أغراض البيان، وَهُوَ من أبرز وأهم الظواهر البلاغية فِي لغة العرب(٢).

وتتعدد الأسباب التي يقدم اللفظ من أجلها أو يؤخر عند العلماء، فأرجع سيبويه الأمر إلى الاهتمام والعناية(٣)، وقصده من ذَلِكَ هُوَ اهتمام المتكلم باللفظ المتقدم أو المتأخر وعنايته به، وأرجعه الزمخشري إلى الاختصاص(٤)، أي: يختص بدلالة اللفظ على المعنى، ولو أخّر المقدم، أو قدّم المؤخر لتغير المعنى، لاختصاصهما بما يوجب له ذَلِكَ لبيان المقصود من المعنى(٥).

---

(١) ينظر: اللباب فِي قواعد اللغة: ١٦٤؛ وينظر: من الإعجاز اللغوي فِي القرآن: ٢٦٨.

(٢) ينظر: من الإعجاز اللغوي فِي القرآن: ٢٦٨؛ وينظر: البيان القرآني فِي تفسير رموز الكنوز: ٧٠؛ وينظر: جماليات السياق القرآني: ٦٩.

(٣) ينظر: الكتاب: ١/٥٦.

(٤) ينظر: الكشاف: ١/٥٨.

(٥) ينظر: من الإعجاز اللغوي فِي القرآن: ٢٦٩؛ وينظر: البناء اللغوي فِي الفواصل القرآنية: ٥٨؛ وينظر: البيان القرآني فِي تفسير رموز الكنوز: ٧٠؛ وينظر: أصول النظرية السياقية الحديثة: ٢٣.

ويرتبط التقديم والتأخير بالسياق القرآني نسقياً، وتقدم الكلمات وتؤخر فِي القرآن الكريم لغاية دلالية إعجازية وأليق فِي إفادة المقصود ووقعه على النفس البشرية والتأثير فيها، والسياق هُوَ الذي يلعب الدور الأكبر فِي إفادة ذَلِكَ المقصود(١).

ومن أمثلة التقديم والتأخير، قوله تعالى: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ۝٣٠ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ﴾(٢)، وهنا تقدم لفظ ﴿ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ﴾ على ﴿صَلُّوهُ﴾ أي: تقديم المفعول على الفعل، لاختصاص الجحيم بهول العذاب، ومراعاة لحسن النظم السجعي(٣)، وجمال الأداء النسقي والترتيبي وهذا من روائع الإعجاز.

وقوله تعالى: ﴿وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ فَإِذَا هِىَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾(٤) فآثر التعبير القرآني تقديم الخبر ﴿شَاخِصَةٌ﴾ على المبتدأ ﴿أَبْصَارُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ وذلك لتخصيص الأبصار بالشخوص دون غيرها، وأنّ الشخوص خاص بالكفار دون غيرهم؛ لذا دلَّ بتقديم الضمير أولاً ثم بصاحبه ثانياً(٥)، والأسباب الأخر فِي هَذَا التقديم والتأخير فِي هَذَا الموضع والمقام هُوَ السياق الذي جاء مصوراً لحال هؤلاء الكفار يوم القيامة، إذ تشخص أبصارهم من هول ما يرون من العذاب يومئذ، فلا تطرف أجفانهم، فهذا التعبير يصور ما هم عليه من رعب وفزع(٦). وهذه صورة أخرى لجمال

---

(١) ينظر: جماليات السياق القرآني: ٦٩، ٧٠.

(٢) سورة الحاقة: ٣٠-٣١.

(٣) ينظر: البناء اللغوي فِي الفواصل القرآنية: ٥٩، ٦٠.

(٤) سورة الأنبياء: ٩٧.

(٥) ينظر: المثل السائر: ٣٨/٢.

(٦) ينظر: من الإعجاز اللغوي فِي القرآن: ٢٩٢.

الترتيب النفسي للجوارح، إذ تشاهدهُ العين أولاً وهي التي بها يكون هول المنظر والخوف والفزع والشدة وتأتي بقية الجوارح بحسب أنساقها وترتيبها.

- أهمية التقديم والتأخير بين النحاة والبلاغيين:

الأصل فِي الجملة الترتيب على النمط المعهود من قواعد النحو العربي، فالخبر لا يقدم على المبتدأ، والفاعل لا يتقدم على فعله، فالألفاظ قوالب المعاني، فيجب أن يكون ترتيبها الوضعي بحسب ترتيبها الطبيعي، ومن البيّن أنّ رتبة المسند إليه التقديم، لأنه المحكوم عليه، ورتبة المسند التأخير، إذ هُوَ المحكوم به وما عداهما فتوابع ومتعلقات تأتي تأليه لهما فِي الرتبة، وتسمى الفضلة(١).

واستناداً إلى أهمية كُلّ عنصر من عناصر الجملة فِي البيان وأولويته فِي ترتيب المعاني، وبلاغة الكلام هي مطابقته لمقتضى الحال مع فصاحته ومقتضى الحال مختلف، فإنّ مقامات الكلام متفاوتة، والبلاغة صفة راجعة إلى اللفظ باعتبار إفادته المعنى عند التركيب، فقد يعرض لبعض الكلم من المزايا ما يدعو إلى تقديمه، وإن كَانَ حقه التأخير، فيكون من الحسن تغيير هَذَا النظام ليكون المقدم مشيراً إلى الغرض الذي يراد ومترجماً عمّا يقصد به، لذا يعد التقديم والتأخير واحداً من أهم صور العدول عن الأصل التي اهتم بالحديث عنها النحاة والبلاغيون على السواء كُلّ من منظوره، وَقَدْ غلب الذوق الجمالي القائم على التحليل اللغوي على تحليلات البلاغيين وبعض المفسرين لها(٢).

وتكمن أهمية التقديم والتأخير فِي:

---

(١) ينظر: الدلالة والمعنى: ٢٤٠؛ وينظر: علوم البلاغة: ١٠٠؛ وينظر: البلاغة العربية: ٣٥٠.

(٢) ينظر: البلاغة العربية: ٣٥١/١؛ وينظر: الإيضاح في علوم البلاغة: ١٣؛ وينظر: علوم البلاغة: ١٠٠؛ وينظر: من الإعجاز اللغوي في القرآن: ٢٦٨.

١- الاهتمام والتعيين[1] الأهمية لا تعني الأفضلية، فقد يقدم المفضول على الفاضل، والمتأخر على المتقدم أو العكس، بحسب ما يقتضيه المقام والسياق المراد غايته فيها[2].

٢- التخصيص، هُوَ تخصيص الشيء المراد بيانه وإبراز أهميته ودوره الدلالي والبلاغي[3].

٣- وَقَدْ تكون أهمية التقديم والتأخير إجبارية، لعلة نحوية، فلا يجوز الرجوع عنه إلى الأصل، وحينئذٍ يخرج من مباحث البلاغة[4].

٤- وَقَدْ تكون لفائدة دلالية لا تكون بوضع الكلام على أصله، فيكون التقديم موافق السامع للاهتمام، واختلاف الترتيب بين المعمولات فِي بيان الدلالة إمّا لأمر معنوي، وغرض بلاغي يتعلق بالمعنى يؤمن اللبس، كقوله تعالى: ﴿ وَجَآءَ مِنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ رَجُلٞ يَسۡعَىٰ ﴾[5]، فلو أخّر المجرور لتوهم أنّه من صلة الفاعل، والمراد كونه من صلة فعله[6].

أو لأمر لفظي، وغرض صوتي وإيقاع نفسي، كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلۡهُدَىٰٓ ﴾[7]، فلو قدم الفاعل لاختلفت الفواصل؛ لأنّها مبنية

---

(١) ينظر: الكتاب، لسيبويه: ٥٦/١؛ وينظر: دلائل الإعجاز: ٩٧.

(٢) ينظر: من أسرار البيان القرآني: ١١٥.

(٣) ينظر: الكشاف: ٣/١؛ وينظر: الإتقان: ١٥٨/٣؛ وينظر: الدلالة والمعنى: ٢٤١.

(٤) ينظر: المقتضب: ٣٤٥/٢؛ وينظر: من الإعجاز اللغوي في القرآن: ٢٦٨.

(٥) سورة يس: ٢.

(٦) ينظر: جواهر البلاغة: ١٥٩.

(٧) سورة النجم، من الآية: ٢٣.

على الألف[1].

وَهَذَا يعني أنّ ترتيب الكلمات فِي العبارة يتبع أحوال النفس وما يشار من معانٍ وصور، وإلى الحال والموضوع داخل السياق، أي يتأثر التقديم والتأخير بالسياق اللغوي والخارجي للجمل[2]، وهذا التناسق والترتيب هو الذي أعطى للسياق جمالية في توضيح وتبيين المعنى.

أ – تقديم المسند إليه:

إنّ مرتبة المسند إليه التقديم، وذلك لأنّ مدلوله هُوَ الذي يخطر أولاً فِي الذهن؛ لأنَّه المحكوم عليه، والمحكوم عليه سابق للحكم طبعاً فلهذا تقدم وضعاً، ولتقديمه دواعٍ شتى، منها[3]:

١ – تعجيل المسرة: قَالَ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[4].

٢ – تعجيل المساءة: قَالَ تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾[5].

٣ – التشويق إلى المتأخر: قَالَ تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾[6].

٤ – التلذذ: قَالَ تعالى: ﴿وَبِأَيْمَـٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّـٰتٌ﴾[7].

---

(١) ينظر: جواهر البلاغة: ١٥٩.

(٢) ينظر: الدلالة والمعنى: ٢٢٨.

(٣) ينظر: جواهر البلاغة: ١٢٣؛ وينظر: الخلاصة فِي علوم البلاغة: ١٦؛ وينظر: البلاغة الميسرة: ٤٠٠، ٤٠١.

(٤) سورة آل عمران: ١٣٤.

(٥) سورة البقرة: ١٥.

(٦) سورة الحجرات: ١٣.

(٧) سورة الحديد: ١٢.

٥- التبرك: قَالَ تعالى: ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ مَجۡرٜىٰهَا﴾[1].

٦- ومنها النص على عموم السلب أو سلب العموم: قَالَ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٖ﴾[2].

٧- التخصيص: قَالَ تعالى: ﴿فَإِنَّ حَسۡبَكَ ٱللَّهُۚ﴾[3].

٨- مراعاة الترتيب الوجودة: قَالَ تعالى: ﴿لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ﴾[4]، وهذا الترتيب والتناسق هو مما حددته دلالات الألفاظ، وترتيبها ومدلولاتها المعجمية ؛ إذ قسموا (السِنّة) والذي تبدأ بداياته ومقدماته قبل النوم، وهذا الترتيب وهذا النسق هو من الإعجاز اللغوي؛ إذ الاستحالة للسِنة استحالة للنوم، وهذا محال في ذات الله تعالى.

ب- تقديم المسند:

يقدم المسند إذا وجد باعث على تقديمه كأن يكون عاملاً[5]، قَالَ تعالى: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ﴾[6].

وهناك أغراض أخرى لتقديمهن منها:

١- التخصيص بالمسند إليه: قَالَ تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ﴾[7].

---

(١) سورة هود، من الآية: ٤١.

(٢) سورة لقمان: ١٨.

(٣) سورة الأنفال: ٦٢.

(٤) سورة البقرة: ٢٥٥.

(٥) ينظر: جواهر البلاغة: ١٣٦؛ وينظر: البلاغة الميسرة: ٤٠٧.

(٦) سورة النساء: ١١.

(٧) سورة آل عمران: ١٨٩.

٢- التشويق للمتأخر إذا كَانَ فِي المتقدم ما يُشوق لذكره: قَالَ تعالى: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَأَيَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾[1].

٣- إفادة قصر المسند إليه على المسند: قَالَ تعالى: ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾[2]. وَقَالَ تعالى: ﴿ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ ﴾[3].

- تقديم متعلقات الإسناد:

تقدم متعلقات الإسناد لأغراض منها[4]:

١- **التخصيص:** قَالَ تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾[5]. وقوله تعالى: ﴿لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴾[6]، معناه إليه لا إلى غيره.

٢- **الاستغراق:** قَالَ تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ﴾[7]. معناه لجميع الناس من العرب والعجم لا لبعضهم.

٣- **التعريض:** قَالَ تعالى: ﴿وَبِٱلْأَخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾[8]، يعني فيها تعريض للأهل الكتاب فيما يؤمنون به فِي الآخرة؛ لأنّ أهل الكتاب ينكرون أن تكون

---

(١) سورة آل عمران: ١٩٠.

(٢) سورة الكافرون: ٦.

(٣) سورة الزمر: ٦٦.

(٤) ينظر: بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح فِي علوم البلاغة: ١/٢٠٩، ٢١٠؛ وينظر: جواهر البلاغة: ١٦٣؛ وينظر: خصائص التراكيب: ٣٦٤، ٣٦٧.

(٥) سورة الفاتحة: ٥.

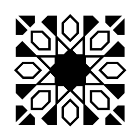
(٦) سورة آل عمران، من الآية: ١٥٨.

(٧) سورة النساء: ٧٩.

(٨) سورة البقرة: ٤.

فِي الآخرة لذائذ جسمانية، فالمؤمنون يوقنون بالآخرة عند الله بكل ما وعدهم الله فيها، وهذا مما حددهُ سياق النسق والترتيب في الآية الكريمة.

اهتماماً بشأن المقدم: قَالَ تعالى: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾[1] اهتماماً بشأن الفعل؛ لأنّها أول آية نزلت، وهذا الترتيب في الاهتمام حددهُ السياق النسقي للآية، واستمر هذا الاهتمام في جميع القران الكريم لأهمية العلم والقراءة ولفضله على غيره من العلوم وما يترتب على العلم من فضل ومزية إلى يوم الدين.



(١) سورة العلق: ١.

المبحث الثالث

أثر السياق القرآني النسقي

فِي الدلالة على الإيجاز والإطناب

ورد الإيجاز والإطناب بكثرة فِي القرآن الكريم، ولكل مصطلح منهما فائدة وغاية تجنى منه، وأهمها هي تأدية دلالة المعنى المطلوب من اللفظ. والإيجاز والإطناب يحتاج إليهما فِي جميع الكلام، ولكل واحد منهما موضع لا يفهم إلاّ به، ولا يليق بمكانه غيره وهذا من حسن نَسقه وتناسقه، وأفضل الكلام أبينه، وأبينه أشده إحاطة بالمعاني، ويكون هَذَا بالاستقصاء، أي: استقصاء المعاني المطلوبة فِي الألفاظ المختارة، قصيدة (إيجاز) أو طويلة (إطناب)[1].

والإيجاز كما عرفه الرماني: «البيان عن المعنى بأقل ما يمكن من الألفاظ»[2]. ويعد الإيجاز عند العرب هُوَ البلاغة؛ لأنَّه من أهم خصائص اللغة العربية[3]، لإيفاء المعاني المطلوبة من الألفاظ القليلة.

ومتى وضع الإيجاز فِي تركيب الآية وقع موقعه فِي رفع شأن الكلام فِي باب البلاغة والإعجاز القرآني، وَهُوَ بليغ بمقتضيات الأحوال واقتضاب الكلام، وأنّ جوهر الكلام ما حاق معناه، وثمنه ما أبلغ الإصغاء وأحسن الاستماع حقه، وأن يتلقى من القبول والتفاعل النفسي بأكمل ما استحقه، ولا يقع حسن الإيجاز ما لم يكن السامع عالماً بجهات حسن الكلام موقناً بأنّ المتكلم تعمدها، وَهَذَا ما حازه القرآن الكريم من الكلام الرفيع، الموجز

---

(١) ينظر: الصناعتين: ١٩٠.

(٢) النكت فِي إعجاز القرآن: ٧٤.

(٣) ينظر: النظم القرآني فِي تفسير الدر المصون: ٩٩.

الوافي بدلالته[1].

وقسم علماء البلاغة الإيجاز إلى نوعين:

١- إيجاز القصر:

«وَهُوَ الكلام الذي قل عدد حروفه وكثر عدد معانيه»[2]، أو هُوَ تضمين الألفاظ القليلة معاني كثيرة من غير حذف، مع القدرة على الإيصال بأقرب طريق مع وفائها بالغرض[3].

ومثاله، قوله تعالى: ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴾[4]، فهذه الآية القصيرة جمعت مكارم الأخلاق بأسرها، مع جواز الحكم بالعرف الصحيح[5]. وهذا الترتيب في نسق الكلمات زادها حُسناً وبهاءً وجلالاً.

وقوله تعالى: ﴿ وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ ﴾[6]، إنّ هذه الألفاظ على إيجازه قَدْ دلّت عن معنى كثير وقصد ضروري من مقاصد الشريعة وأغراضها وَهُوَ الحفاظ على الحياة، لأنّ الإنسان إذا علم أنّه متى قَتل قُتل كَانَ ذَلِكَ زجراً له ورادعاً قويّاً على أن لا يقدم على القتل، «فارتفع القتل الذي هُوَ قصاص كثير من قتل بعضهم لبعض، فكان ارتفاع القتل حياة لهم»[7]، وإنّ هذه الآية

---

(١) ينظر: مفتاح العلوم: ٢٢٦.

(٢) البيان والتبيين: ١٣/٢.

(٣) ينظر: النظم القرآني فِي تفسير الدر المصون: ١٠٠؛ وينظر: والبلاغة الميسرة: ٢١٧.

(٤) سورة الأعراف: ٩٩.

(٥) ينظر: البلاغة الميسرة: ٥١٧.

(٦) سورة البقرة، من الآية: ١٧٩.

(٧) سر الفصاحة: ٢٠٩؛ وينظر: الإيضاح فِي علوم البلاغة: ١٨١/٣؛ وينظر: جواهر البلاغة: ١٩٨.

تضمنت سرّاً من أسرار الشريعة التي عليها مدار سعادة المجتمع الإنساني وبقائه وزيادة ذريته والحفاظ عليها، واحترام لمعنى الحياة واستغلالها للخير والعمل الصالح إلى أن يتوفاها الحي القيوم[1].

٢- إيجاز الحذف:

«وَهُوَ يكون بحذف شيء من العبارة لا يخل بالفهم، مع قرينة تُعين المحذوف»[2]، أو هُوَ «حذف بعض الكلام اكتفاءً بدلالة القرائن على ما حذف»[3]، وعند حذف لفظة من العبارة لا يخل بدلالة المعنى لوجود قرينة فِي سياق الآية تكمل بالمعنى وتعوض المحذوف وتفي بالمقصود.

ففي قوله تعالى: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ﴾[4]، فالمحذوف فِي هذه الآية اسماً مضافاً هُوَ «فِي سبيل الله» ولم يخل حذف المضاف من الآية على دلالة المعنى المقصود، فكان سياق الآية فِي غاية البلاغة فِي إيراد المعنى المطلوب[5]. وهذا من تناسق ألفاظ الحذف كماً ونوعاً وناسب مقدار المحذوف عبارة الحذف وهذا الترتيب لا نجدهُ إلا في كتاب الله العظيم.

وقوله تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾[6]، فحذفت هنا جملة (فاختلفوا فبعث)، وعوض السياق بما يقوم دليلاً على المحذوف مع

---

(١) ينظر: المنهاج الواضح للبلاغة: ١٣٢/٢.

(٢) البلاغة الميسرة: ٥١٨.

(٣) البلاغة العربية: ٢٩/٢.

(٤) سورة الحجّ، من الآية: ٧٨.

(٥) ينظر: البلاغة الميسرة: ٥١٨.

(٦) سورة البقرة، من الآية: ٢١٣.

الإبانة والإفصاح[1]. وهذا الحذف فِي جملة (فاختلفوا) ناسق جملة ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً﴾ فهذا الترتيب العجيب وهذا التناسق من دلائل إعجاز هذا الكتاب المبهر.

أمّا الإطناب هُوَ «أن يكون اللفظ زائداً على أصل المراد»[2].

أو «هُوَ تأدية المعنى بعبارة زائدة عن متعارف الأوساط لفائدة تقويته وتوكيده»[3].

واقترن موضوع الإطناب مع موضوع الإيجاز عند علماء البلاغة، وذلك لأنّ فيها فوائد بلاغية جمَّة توضح عمل المصطلحين ومكانتهما فِي وضع العبارات ودلالاتها[4].

وثَمَّة أسباب تدفع المتكلم على سلوك أسلوب الإطناب فِي كلامه منها تثبيت المعنى فِي نفس السامع أو المخاطب، ومنها توضيح المراد، ومنها التوكيد ودفع الإيهام، ومنها إيراد المقصود وتقويته[5].

فإن لم تكن فِي الزيادة فائدة يسمى (تطويلاً) أو (إسهاباً) إن كانت الزيادة غير متعينة، ويسمى (حشواً) إن كانت الزيادة متعينة، أمّا الإطناب فهو بلاغة لما فيه من تقبّل النفس له وعدم الملل والجزع من جمله[6]، وطول

---

(١) ينظر: البلاغة الميسرة: ٥١٩.

(٢) التعريفات: ٢٥.

(٣) البلاغة الميسرة: ٥٢١.

(٤) ينظر: النظم القرآني فِي تفسير الدر المصون: ١٠٢.

(٥) ينظر: البيان القرآني فِي تفسير رموز الكنوز: ١٤٠؛ وينظر: البلاغة الميسرة: ٥٢١.

(٦) ينظر: البلاغة الميسرة: ٥٢١.

الكلام فيه فائدة وبيان إخراج للمعنى الذي يرسمه السياق وخاصة السياق القرآني فِي معاريض مختلفة وتفصيل له ليحقق للسامع الفهم ويستقر عنده[1].

والإطناب أقسامه كثيرة منها:

١- الإيضاح بعد الإبهام:

وَهُوَ أنّ المعنى إذا أُلقي على سبيل الإجمال والإبهام تشوقت نفس السامع إلى معرفته على سبيل التفصيل والإيضاح، فتتوجه إلى ما يرد بعد ذَلِكَ، ثم تمكن فيها فضل تمكن، وتستشعر به أكثر، ومن ذَلِكَ قوله تعالى: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ﴾[2]، فبعد إبهامه وَهُوَ قضاء ذَلِكَ الأمر قام بإيضاحه وتفسيره وَهُوَ ﴿أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ﴾، وَهَذَا الإيضاح فيه فائدة وهي تفخيم الأمر وتعظيم له[3]، لأنّ ﴿أَنَّ دَابِرَ﴾ ردّاً على ﴿ٱلْأَمْرَ﴾ أو بدلاً منه بوقوع القضاء عليها[4]. وهذا مما حددهُ السياق في النص القرآني ونسقه الجمالي.

٢- ذكر العام بعد الخاص:

وجودة الفائدة فِي هَذَا النوع من الإطناب، وَهُوَ التعميم وإفراد الأول بالذكر اهتماماً بشأنه[5] ومنه قوله تعالى: ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ

---

(١) ينظر: سر الفصاحة: ٢١١.

(٢) سورة الحجر: ٦٦.

(٣) ينظر: بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح فِي علوم البلاغة: ٢/٣٤٦؛ وينظر: المثل السائر: ٢/١٦٠.

(٤) ينظر: تفسير الطبري: ١٤/٨٩؛ وينظر: معاني القرآن، للزجاج: ٣/١٨٢.

(٥) ينظر: النظم القرآني فِي تفسير الدر المصون: ١٠٤.

بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾[1].

٣- ذكر الخاص بعد العام:

ويكون هَذَا النوع من الإطناب للتنبيه على فضله حتّى كأنّه ليس من جنسه[2]، كقوله تعالى: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ ﴾[3]. إذ بعد ذكر الصلوات عامة ذكر ما خصصها بالأهمية والفضل وهي صلاة العصر مع فضلهن جميعهن لكن هذا التناسق في سياق الفضل والأهمية خصصها دون غيرها.

٤- التكرار:

وإطناب التأكيد إمّا يكون للإنذار، كقوله تعالى: ﴿ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾[4]، ووردت ﴿ ثُمَّ ﴾ دلالة على إنّ الإنذار الثاني أبلغ وأشد[5]، أو التكرار للطمأنينة على مجيء الفرج، قَالَ تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴾[6]، والتأكيد لاستمالة المخاطب لقبول الخطاب وزيادة التنبيه[7]، قَالَ تعالى: ﴿ وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ ﴾[8].

---

(١) سورة نوح: ٢٨.

(٢) ينظر: بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة: ٣٤٨/٢.

(٣) سورة البقرة: ٢٣٨.

(٤) سورة التكاثر، الآيتان: ٣-٤.

(٥) بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة: ٣٤٩/٢.

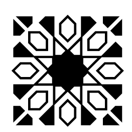
(٦) سورة الشرح: ٥-٦.

(٧) ينظر: البلاغة الميسرة: ٥٢٢.

(٨) سورة غافر: ٣٨-٣٩.

٥- الاعتراض:

وَهُوَ أن يأتي فِي أثناء الكلام أو بين كلامين متصلين فِي المعنى بجملة معترضة أو أكثر لا محل لها من الإعراب، وقد تكون الكلمة أو الجملة إمّا للتتريه[١]، كقوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ ۙ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ﴾[٢] فكلمة ﴿سُبْحَٰنَهُۥ ۙ﴾ اعتراضية جاءت لتتريل الله تعالى من أن يكون له ولد. أو يكون الاعتراض تأكيداً وتسديداً للكلام، كقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾[٣]، فـ﴿لَّوْ تَعْلَمُونَ﴾ اعتراضية لا محل لها من الإعراب جاءت لتسديد الكلام[٤].



(١) ينظر: البلاغة الميسرة: ٥٢٣.

(٢) سورة النحل: ٥٧.

(٣) سورة الواقعة: ٧٦.

(٤) ينظر: النظم القرآني فِي تفسير الدر المصون: ١١٠.

المبحث الرابع

أثر السياق القرآني النسقي

فِي الدلالة على القصر والحصر

إنّ الغرض البلاغي الذي يؤديه أسلوب القصر غرض جوهري يتعلق بمعاني الجمل لا ألفاظها، وَقَدْ يختلف المعنى كليّاً لتقديم كلمة أو تأخيرها بحسب السياق القرآني الذي يحكمه(١).

«والقصر والحصر بمعنى واحد، وَهُوَ تخصيص شيء بشيء بطريق مخصوص»(٢). وأسلوب القصر يتكون من ركنين هما: المقصور والمقصور عليه، ومعنى القصر راجع على تخصيص الموصوف عند السامع بوصف دون ثان(٣).

وطرق القصر أربعة هي:

١- النفي والاستثناء، قَالَ تعالى: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾(٤) فمعنى ﴿أَنَا۠﴾ مقصور على النذارة لا يتخطاها على طرد المؤمنين، فيكون المقصور عليه بعد أداة الاستثناء(٥).

٢- إنّما، قَالَ تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾(٦)، وأفاد معنى

---

(١) ينظر: النظم القرآني فِي تفسير الدر المصون: ٩١.

(٢) دليل السالك إلى ألفية ابن مالك: ٣٤٢.

(٣) ينظر: مفتاح العلوم: ٢٨٨ ؛ وينظر: النظم القرآني فِي تفسير الدر المصون: ٩١ .

(٤) سورة الشعراء: ١١٤-١١٥.

(٥) ينظر: البلاغة الميسرة: ٤٨١؛ وينظر: مفتاح العلوم: ٢٨٩ .

(٦) سورة فاطر: ٢٨.

﴿إِنَّمَا﴾ معنى القصر هُوَ تضمنه معنى (ما) و(إلاّ)، ويكون المقصور عليه مؤخراً وجوباً[1].

٣- العطف بـــ(لا، وبل، ولكن)[2]. كقول الشاعر:

عمر الفتى ذكرهُ لا طولُ مدته ... وموتُه حزنه لا يومُـــهُ الـــدّاني

والمقصور عليه بـــ(لا) العاطفة الواقع قبلها والمقابل لما بعدها، لتأكيد العلم فيها وتعيين ما قبلها[3].

وقوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًاۗ سُبْحَٰنَهُۥۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾[4]، «معناه: بل هم عباد مكرمون»[5]، يعني الملائكة ﴿مُّكْرَمُونَ﴾[6]. ومعنى بل الإضراب عن الأول والإيجاب للثاني[7].

وقوله تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ﴾[8].

و(لكن) العاطفة فتكون مثقلة ومخففة، والمثقلة عاملة والمخففة غير عاملة ومعناها فِي كلا الحالتين الاستدراك والتوكيد[9].

---

(١) ينظر: مفتاح العلوم: ٢٩١.

(٢) جواهر البلاغة: ١٦٨.

(٣) ينظر: النظم القرآني فِي تفسير الدر المصون: ٩٦؛ وينظر: البلاغة الميسرة: ٤٨.

(٤) سورة الأنبياء: ٢٦.

(٥) معاني القرآن، للزجاج: ٢٠١/٢.

(٦) ينظر: البيان القرآني فِي تفسير رموز الكنوز: ١٣٥.

(٧) ينظر: النظم القرآني فِي تفسير الدر المصون: ٩٧.

(٨) سورة الأحزاب، من الآية: ٤٠.

(٩) ينظر: البيان القرآني فِي تفسير رموز الكنوز: ١٣٥، ١٣٦.

«ولا يعطف بـــ(لكن) إلاّ بشروط ثلاث وهي: أن يكون المعطوف مفرداً لا جملة وألا تكون مسبوقة بالواو مباشرةً، وأن تكون مسبوقة بنفي أو نهي»[1].

«والمقصور عليه مع (بل) و(لكن) العاطفتين هُوَ الواقع ما بعدها»[2].

٤- تقديم ما حقه التأخير ويكون المقصور عليه هُوَ المقدم[3].

قَالَ تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴾[4]، فمعنى ذَلكَ أنّه لا يحصل الإيمان إلاّ بالتوكل على الله وحده، ويتبين من سياق الآية أنَّ التوكل شرط الإيمان، فينبغي تفويض الأمر لله تعالى. وهذا السياق مرتبط نسقياً من حيث دلالة المعنى المراد منه.

وينقسم القصر إلى أقسام عدة باعتبارات ثلاث:

أ – القصر باعتبار طرفيه:

١- قصر الموصوف على الصفة:

ولا يتجاوز الموصوف الصفة إلى غيرها[5]، كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤۡمِنَنَّ بِهِۦ قَبۡلَ مَوۡتِهِۦۖ ﴾[6]، فدخلت ﴿إِلَّا﴾ هنا على الصفة لتفيد الحصر[7].

---

(١) المصدر نفسه: ١٢٦.

(٢) البلاغة الميسرة: ٤٨٢.

(٣) ينظر: البلاغة الميسرة: ٤٨١.

(٤) سورة المائدة: ٢٣.

(٥) ينظر: النظم القرآني فِي تفسير الدر المصون: ٩٢.

(٦) سورة النساء، من الآية: ١٥٩.

(٧) ينظر: الدر المصون: ٢/٤٥٩.

۲- قصر الصفة على الموصوف:

«وتكون الصفة مقصورة على الموصوف وحده، وليس لهذه الصفة موصوف آخر غير المنصوص عليه»[1]، قَالَ تعالى: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾[2].

ب- القصر باعتبار الحقيقة والواقع:

۱- القصر الحقيقي:

«وَهُوَ أن يختص المقصور بالمقصور عليه بحسب الواقع بألاّ يتعداه إلى غيره أصلاً»[3]، ﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[4].

۲- قصر غير حقيقي (إضافي):

«وَهُوَ أن يختص المقصور بالمقصور عليه بحسب الإضافة والنسبة إلى شيء آخر معين، لا لجميع ما عداه»[5]، قَالَ تعالى: ﴿طه ﴿١﴾ مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ ﴿٢﴾ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ﴾[6] وتحمل متاعب التبليغ وأنواع الشقاء وتكاليف النبوة إلاّ ليكون تذكرة[7]. وهذا القصر الإضافي جاء

---

(۱) ينظر: النظم القرآني في تفسير الدر المصون: ۹۲.

(۲) سورة النمل: ٦٥.

(۳) البلاغة الميسرة: ٤٨٤.

(٤) سورة الأنبياء، من الآية: ۱۰۸.

(٥) البلاغة الميسرة: ٤٨٤.

(٦) سورة طه: ۱-۳.

(۷) ينظر: الدر المصون: ٥/٥.

متناسقاً حتى من حيث الفاصلة والصوت والمقطع وهذا من جماليات النسق الصوتي الذي جاء متداخلاً مع القصر الإضافي وأعطاهُ بعداً جمالياً آخر.

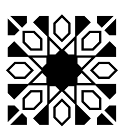
ج- القصر باعتبار حال المخاطب:

ويختص هَذَا النوع بالقصر الإضافي فقط، والمخاطب فِي أسلوب القصر إمّا أن يكون شاكّاً فِي الأمر، أو يكون معتقداً عكس الرأي فِي الحكم أو يكون معتقداً الشركة بين اثنين أو أكثر فِي الحكم، فهو يكون لمقتضى الحال أو تدعيه الحاجة[1]. وله أنواع ثلاث هي:

١- «**قصر إفراد**: إذا اعتقد المخاطب الشركة، قَالَ تعالى: ﴿أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾[2] ردّاً على من اعتقد أنّ الله ثالث ثلاثة»[3].

٢- **قصر قلب**: إذا اعتقد المخاطب عكس الحكم الذي تُثبته، ومثاله (وما علي إلاّ شاعر) إذا اعتقد المخاطب أنّ الشاعر زيد لا علي، فقد قلبت وعكست عليه اعتقاده[4].

٣- **قصر تعيين**: «إذا كَانَ المخاطب يتردد فِي الحكم، كما إذا كَانَ متردداً فِي كون الأرض متحركة أو ثابتة فتقول له: الأرض متحركة لا ثابتة»[5].



(١) ينظر: النظم القرآني فِي تفسير الدر المصون: ٩٣.

(٢) سورة فصلت، الآية: ٦.

(٣) البلاغة الميسرة: ٤٨٤.

(٤) ينظر: البلاغة الميسرة: ٤٨٤؛ وينظر: النظم القرآني فِي تفسير الدر المصون: ٩٤.

(٥) البلاغة الميسرة: ٤٨٤.

المبحث الخامس

أثر السياق القرآني النسقي

فِي الدلالة على التعريف والتنكير

تعد اللغة العربية من أدق لغات العالم من حيث التمييز بين مواضع التعريف والتنكير على حسب معانيها، وهما مرهونان بدائرة الكلمة داخل السياق(١). والتعريف: «ما دلّ على شيء بعينه»(٢).

ويقسم التعريف إلى أقسام خمس هي: الضمائر، وأسماء الإشارة، والأسماء الموصولة، والأعلام، والأعلام التي تدخلها الألف واللام(٣).

أمّا التنكير: «ما دلّ على شيء لا بعينه»(٤)، ويقسم التنكير إلى أقسام ثلاث: (ما يطلق على القليل والكثير، يطلق على مفرد شائع دون تعيين، ما يطلق على أكثر من مفرد)(٥).

ويكون التنكير لأغراض بلاغية، ونكت جمالية، ومعاني دلالية تراد لمعرفة مقصود الآية تفهم من سياق الكلام وقرائن الأحوال(٦).

وتتجلى الدقة فِي التعريف والتنكير فِي استغناء الأعلام عن أداة التعريف

---

(١) ينظر: فن التحرير العربي: ٦٠؛ وينظر: نظرية النظم وقراءة الشعر عند عبد القاهر: ٥٦.

(٢) الطراز المتضمن لأسرار البلاغة: ٨/٢ ؛ ومعجم المصطلحات البلاغية: ٢٨٢/٢.

(٣) ينظر: فن التحرير العربي: ٦٠؛ وينظر: البلاغة العربية: ٣٩٧/١.

(٤) معجم المصطلحات البلاغية: ٢٨٢/٢؛ والطراز المتضمن لأسرار البلاغة: ٨/٢.

(٥) ينظر: البلاغة العربية: ٣٩٨/١، ٣٩٩.

(٦) ينظر: جماليات السياق القرآني: ٥٦.

ولكنها تحمل معنى التنكير فِي بعض المواقع، وكذلك فإنّ الأسماء المنكرة إذا سبقت بأداة نداء، وكانت مقصودة لا تحتاج إلى تنوين التنكير؛ لأنّها تصبح دالة على معرفة، وأكثر الأسماء يلحقها التعريف والتنكير، ولكل واحد منهما معانٍ دقيقة متصلة بأسرار البلاغة القرآنية[١].

وإنّ مجيء لفظ فِي القرآن معرفة، ومجيء لفظ آخر نكرة، ومجيء لفظ معرفة فِي موضع ونكرة فِي موضع آخر لم يكن مصادفة قرآنية، وإنّما هُوَ مقصود ومرتب ومتناسق ومراد فِي كُلّ موضع ورد فيه لأغراض إعجازية بلاغية للقرآن الكريم، ويجيء اللفظ فِي كُلّ حالة من حالاته التعريفية والتنكيرية لينسجم مع السياق الذي ورد فيه ويتناسق معه، وإنّ تدبر السياق فِي الآية يقود إلى معرفة الحكمة من ذَلِكَ، وسر اختيار اللفظ معرفة أو نكرة[٢].

ومن أمثلة استغناء الأعلام عن أداة التعريف، ولكنها تحمل معنى التنكير قول القائل: «قلم الذي زارني صباحاً» و«كتاب الرجل»[٣].

ومن الأسماء المنكرة التي سبقت بأداة نداء «يا رجل» تخاطب رجل بعينه[٤].

وترد بعض الألفاظ نكرة فِي موضع من القرآن ومعرفة فِي موضع آخر، مثل قوله تعالى: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيۡهِ يَوۡمَ وُلِدَ وَيَوۡمَ يَمُوتُ وَيَوۡمَ يُبۡعَثُ حَيّٗا﴾[٥]، فوردت

---

(١) ينظر: فن التحرير العربي: ٦٠؛ وينظر: الطراز لأسرار البلاغة: ٨/٢.

(٢) ينظر: ري الضمآن فِي بيان القرآن: ١٣.

(٣) البلاغة الميسرة: ٣٩٧.

(٤) ينظر: المصدر نفسه: ٣٩٧.

(٥) سورة مريم، الآية: ١٥.

لفظة (سلام) نكرة فِي قصة يحيى، أمّا فِي قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوۡمَ وُلِدتُّ وَيَوۡمَ أَمُوتُ وَيَوۡمَ أُبۡعَثُ حَيّٗا﴾[1]، ووردت لفظة (السلام) هنا معرفة، فوراء سر التنكير والتعريف فِي الآيتين يبيّنه اختلاف سياق الآيتين، فإنّ تنكير السلام فِي قصة يحيى عليه السلام؛ لأنّه وارد من جهة الله تعالى، وأنّ سلام من جهة الله مغن عن كُلّ تحية، ولذا لم يرد السلام من جهة الله إلاّ منكراً، كقوله تعالى: ﴿سَلَٰمٞ قَوۡلٗا مِّن رَّبّٖ رَّحِيمٖ﴾[2] وقوله تعالى: ﴿ٱهۡبِطۡ بِسَلَٰمٖ مِّنَّا﴾[3]، وقوله تعالى: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٖ فِي ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾[4] وقوله تعالى: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلۡ يَاسِينَ﴾[5]، نرى أنّ أي سلام ورد فِي القرآن من جهة الله تعالى كاف لتحقيق ما يطلبه العباد من أمن أو تحية، أمّا تعريف السلام فِي قصة عيسى عليه السلام؛ لأنه ليس وارداً من جهة التحية من الله عز وجل، وإنّما ورد على لسان عيسى الطفل فِي دعائه لنفسه، مع إنهما وردا فِي السورة نفسها، لأنّ سياق الآية الأولى يختلف كما قلنا عن سياق الآية الثانية[6].

فضلاً عن ذَلِكَ أنّ سلام التحية يكون ابتداءً فيكون نكرة، وسلام الوداع يكون انتهاءً فيكون معرفة لرجوعه إلى الأول، ففي سورة مريم جيء (سلام) نكرة أولاً ثم جيء (السلام) معرفة، واتباع السلام الرحمة فِي

---

(١) سورة مريم، الآية: ٣٣.

(٢) سورة يس، الآية: ٥٨.

(٣) سورة هود، الآية: ٤٨.

(٤) سورة الصافات: ٧٩.

(٥) سورة الصافات: ١٣٠.

(٦) ينظر: البلاغة العربية: ١/٤٠٤؛ ينظر: خصائص التراكيب: ٢١٦.

الخواتم[1]. وهذا من حسن تناسق وترتيب الألفاظ؛ لأنَّه مدار الإعجاز النسقي القرآني في اختيار اللفظة وما تدل عليه من دلالات وإيحاءات يفسرها سياق النص الذي جاءت به بين الجُمل.

وَقَالَ تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُۚ﴾[2].

فالتنكير فِي رضوان يفيد التقليل؛ لأنّ المعنى وقليل من رضوان الله أكبر من نعيم (أي: نعيم يعيشونه مقابل الرضوان) لا يساوي شيئاً فهو قليل بحق رضوان الله تعالى، وهذا من روائع الإعجاز النسقي للنص القرآني، وسياق الآية يلحظ فِي معنى هَذَا التنكير؛ لأنّ القليل من الله كثير وكثير[3].

وَقَالَ تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾[4].

وَفِي قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾[5].

---

(١) ينظر: صُبح الأعشى فِي صناعة الإنشا: ٦/٢٢١.

(٢) سورة التوبة، الآية: ٧٢.

(٣) ينظر: خصائص التراكيب: ٢١٦.

(٤) سورة البقرة، الآية: ١٢٦.

(٥) سورة إبراهيم، الآية: ٣٥.

فقد جاء لفظ (بلد) نكرة فِي الآية الأولى ومعرفة فِي الآية الثانية، وجاء هَذَا الاختلاف تبعاً لاختلاف سياق الآيتين، فنكر فِي الآية الأولى؛ لأنّ البلد كَانَ مكاناً قفراً، وَهَذَا قبل بناء الكعبة، فطلب منه أن يجعله بلداً وآمناً وكان ذَلِكَ عند ترك هاجر وإسماعيل (عليهما السلام) فِي وادٍ غير ذي زرع[1]. أمّا فِي الآية الثانية فقد كَانَ هَذَا الدعاء بعد عودته وسكنه به، وبعد بناء الكعبة، فكان بلداً فطلب له الأمن[2] هذا التنكير حددهُ سياق النسق الذي جاءت به الآيات وترتيبها وتناسقها من حيث الأحداث، حتى أضفى بعداً دلالياً وجمالياً للآية وإعجازها البلاغي.

إذن فالتعريف والتنكير جاء تبعاً لسياق موضوع الآية.

١- أهمية التعريف وقيمه الدلالية:

إنّ التعريف له أهمية بيانية وقيم دلالية داخل سياق الآيات القرآنية؛ لأنّ مفهوم التعريف يدل على التعيين، وأنّ هَذَا المعنى لا يتحقق إلاّ بالنسبة إلى المخاطب، لا إلى الصيغة اللغوية التي يأتي بها التعريف، فالصيغة اللغوية لا تشمل كُلّ المعارف، إذ لا يوجد معنى التعريف بهذا الاعتبار إلاّ فِي الأسماء التي تكون أول أمرها نكرات، ثم يدخل عليها ما تعرف به وَهَذَا إلاّ يخرج عن التعريف بــ(أل) والتعريف بالإضافة، أمّا إذا ارتبط التعريف بالمخاطب وبالشيء المراد تعيينه، فإنّه يشمل كُلّ طرق التعريف، من خلال الإدراك الذهني للأشياء، والطرق التي يتبعها أسلوب القرآن لذلك[3].

---

(١) ينظر: أسرار التكرار فِي القرآن: ٣٥؛ وينظر: جماليات السياق القرآني: ٥٧.

(٢) ينظر: أسرار التكرار فِي القرآن: ٣٥؛ وينظر: جماليات السياق القرآني: ٥٧.

(٣) ينظر: التعريف فِي البلاغة العربية: ٢٩.

وإنّ أدوات التعريف لا تكون قيمها الدلالية لها وظيفة واحدة، بل اثنتان، الأولى هُوَ تعيين شيء ما، مثل قوله تعالى: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ﴾[1] إذا كَانَ المشاهد مستحضراً فِي القلب، وقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾[2] أو يكون المشاهد معين، مثل: (أنت استرقتني بإحسانك).

والوظيفة الثانية التعميم، أي: تعميم الخطاب، كقوله تعالى: ﴿ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ﴾.

وأغراض التعريف وقيمه الدلالية كثيرة منها[3]:

١- إلقاء المهابة فِي نفس السامع:

كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِي ٱلۡأَرۡضِۖ يَعۡلَمُ سِرَّكُمۡ وَجَهۡرَكُمۡ وَيَعۡلَمُ مَا تَكۡسِبُونَ﴾[4].

وقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِۖ هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾[5].

٢- وتمكين المعنى فِي قلب المخاطب:

قَالَ تعالى: ﴿ٱللَّهُ رَبِّي وَلَآ أُشۡرِكُ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا﴾[6].

(١) سورة الأنبياء: ٨٧.

(٢) سورة الإخلاص، من الآية: ١.

(٣) ينظر: البلاغة الميسرة: ٣٨٩.

(٤) سورة الأنعام: ٣٠.

(٥) سورة الحشر: ٢٢.

(٦) سورة الكهف: ٣٨.

٣- ومنها التلذذ والاطمئنان والاستئناس:

قَالَ تعالى: ﴿ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴾[1].

وَقَالَ تعالى: ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[2].

٤- الاستعطاف:

قَالَ تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾[3].

٢- تعريف المسند والمسند إليه:

إنّ أساس التركيب النحوي فِي الجملة المفيد أو الكلام التام هُوَ الإسناد، وَهُوَ الرابط المعنوي بين أجزاء التركيب، والعلاقة الروحية التي تقوم بين معاني الكلمات على اختلاف وامتداد سياقاها بدأً من طرفي الجملة وانتهاءً بسياق الفقرة والنص، وهذه العلاقات الروحية هي الوجوه التي يتصور بها المعنى والضروب التأليفية بين معاني الكلمات، فلابد أن يكون لكل كلمة تعلّق بالأخرى على السبيل الذي به يفيد الكلام تمام الفائدة[4].

---

(١) سورة فاطر: ٣٠.

(٢) سورة آل عمران: ٥٧.

(٣) سورة البقرة: ٢٨٦.

(٤) ينظر: الدلالة والمعنى: ٢٢٢؛ وينظر: البلاغة العربية: ١٤٠؛ وينظر: نظرية النظم عند عبد القاهر الجرجاني: ٥٣.

فالإسناد دلالة تركيبية فِي العربية الفصحى، وَقَدْ يوجد فِي اللفظ ما يدل عليه، كحركة الإعراب، وضمير الفصل بين المبتدأ والخبر(١).

وتتألف الجملة المفيدة أو الكلام التام من رابطين يُعبّر عنهما باللفظ، ويسميان بركنا الجملة، وهما(٢):

١- السند إليه، ويسمى محكوماً عليه، ويسمى عند علماء المنطق موضوعاً.

٢- المسند، ويسمى محكوماً، ويسمى عند علماء المنطق محمولاً.

ويُلحق بالجملة المفيدة توابع المسند إليه والمسند إن وجدت، فمنها المفاعيل والأدوات، وما يدل على القيود لأركان الجملة، كالصفات والأحوال والقيود الزمانية والمكانية، وكل ما يلحق أو يزيد فِي الجملة على علاقة الإسناد إنّما ينشئهما المتكلم للبيان، وإزالة إيهام وغموض قَدْ يعتريان المعنى الدلالي للجملة إن لم ينشئ المتكلم تلك العلاقة الذهنية التي تربط بينهما(٣).

إذا فالإسناد نواة الجملة، ومحور كُلّ العلاقات الأخرى، لأنّ فِي استطاعته وحده تكوين جملة تامة ذات معنى دلالي متكامل وموضوع مرتبط بما قبله وبعده، وَهَذَا ما نجده فِي آيات الذكر الحكيم، إذ يكوّن الإسناد علاقات متشعبة بين الآيات والسور القرآنية، تؤلف وحدة موضوعية منطلقها نواة الآية الواحدة مع نواة الآية الثانية ثم النص كله ارتباطاً بالفضلة وهي القيود المتعلقة بركني الآية والنص القرآني(٤).

---

(١) ينظر: الدلالة والمعنى: ٢٢٣؛ وينظر: البلاغة العربية: ١٤٠.

(٢) ينظر: البلاغة العربية: ١٤٠، ١٥٥؛ وينظر: المنهاج الواضح للبلاغة: ٤/١٠.

(٣) ينظر: البلاغة العربية: ١٤٠، ١٤٣؛ وينظر: الدلالة والمعنى: ٢٢٣، ٢٢٤.

(٤) ينظر: الدلالة والمعنى: ٢٢٣.

٢- تعريف المسند إليه والمسند:

أ - تعريف المسند إليه:

إنّ حق المسند إليه أن يكون معرفة؛ لأنَّه الأصيل والمحكوم عليه فِي الجملة، والمحكوم عليه ينبغي أن يكون معلوماً ليكون الحكم مفيداً، والحكم على المجهول لا يفيد، لذلك فإنّه يعرف لتكون الفائدة أتم، وكمال تخصيص المسند إليه يكون بالتعريف[1].

وتعريفه إمّا بالإضمار، أو بالعلمية، أو بالإشارة، أو بالموصولية، أو بأل، أو بالإضافة، أو بالنداء.

١- تعريف المسند إليه بالإضمار[2]:

أ - إن كَانَ الحديث مقام تكلم، قَالَ النبي ﷺ: «أنا النبيُّ لا كذب أنا ابن عبد المطلب»[3].

ب- أو كان الحديث مقام الخطاب، قال تعالى: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾[4].

ج- أو كان الحديث مقام الغيبة، لكون المسند إليه مذكوراً، أو في حكم المذكور ولابد من تقدّم ذكره، إمّا لفظاً: كقوله تعالى: ﴿وَٱصۡبِرۡ حَتَّىٰ

---

(١) ينظر: الإيضاح فِي علوم البلاغة: ٩/٢؛ وينظر: جواهر البلاغة: ١٠٨؛ وينظر: البلاغة الميسرة: ٣٨٧.

(٢) ينظر: جواهر البلاغة: ١٠٨، ١٠٩؛ وينظر: علوم البلاغة (البيان، المعاني، البديع): ١١٢، ١١٣؛ وينظر: المنهاج الواضح للبلاغة: ٧٢/٢؛ وينظر: البلاغة الميسرة: ٣٨٩.

(٣) مسند أبي داود الطيالسي: ٨٢/٢ برقم ٧٤٢، باب البراء بن عازب.

(٤) سورة المائدة، من الآية: ١١٦.

﴿يَحۡكُمَ ٱللَّهُۚ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ﴾[1]، أو معناً: كقوله تعالى: ﴿ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰ﴾[2]، أي العدل أو دلّت عليه قرينة، كقوله تعالى: ﴿فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ﴾[3]، أي: الميت.

٢- تعريف المسند إليه بالعلمية[4]:

يؤتى بالمسند إليه علماً لإحضار معناه بعينه في ذهن السامع ابتداءً باسمه الخاص ليمتاز عمّا عداه، كقوله تعالى: ﴿وَإِذۡ يَرۡفَعُ إِبۡرَٰهِـۧمُ ٱلۡقَوَاعِدَ مِنَ ٱلۡبَيۡتِ وَإِسۡمَٰعِيلُ﴾[5].

٣- تعريف المسند إليه بالموصولية[6]، وله أغراض كثيرة منها:

يؤتى بالمسند إليه اسم موصول إذا تعين طريقاً لإحضار معناه، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمۡثَالُكُمۡۖ﴾[7]، وتكون هنا للتنبيه على خطأ المخاطب. وَقَدْ يكون للتفخيم، قَالَ تعالى: ﴿فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلۡيَمِّ مَا غَشِيَهُمۡ﴾[8].

---

(١) سورة يونس: ١٠٩.

(٢) سورة المائدة: ٨.

(٣) سورة النساء: ١١.

(٤) ينظر: علم البلاغة البياني: ١١٤؛ وينظر: جواهر البلاغة: ١١١.

(٥) سورة البقرة: ١٢٧.

(٦) ينظر: جواهر البلاغة: ١١٤؛ وينظر: علوم البلاغة: ١١٧؛ وينظر: المنهاج الواضح للبلاغة: ٤/١٠٤.

(٧) سورة الأعراف: ١٩٤.

(٨) سورة طه: ٧٨.

أو لزيادة تقرير الغرض المسوغ له، كقوله تعالى: ﴿وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ﴾[1].

٤- تعريف المسند إليه بالإشارة[2]:

يؤتى بالمسند إليه اسم إشارة إذا تعين طريقاً لإحضار المشار إليه في ذهن السامع حسّاً، ولا يعرف المتكلم والسامع اسمه الخاص، ولا معيناً آخر، كقول القائل، مثلاً: (أتبيع لي هذا)، وتعريفه هنا بالإشارة لتميزه أكمل تمييز.

أمّا إذا لم يتعين طريقاً لذلك، فله أغراض أخرى منها[3]:

لبيان حال القرب أو البعد أو التوسط، تعظيم درجة بالقرب، قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَهۡدِي لِلَّتِي هِيَ أَقۡوَمُ﴾[4]، أو جعل القرب ذريعة للتحقير قَالَ تعالى: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا لَهۡوٞ وَلَعِبٞۚ﴾[5]، أو بيان القرب للاستغراب، قَالَ تعالى: ﴿مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلٗاۘ﴾[6]، أو بيان حاله بالبعد، قَالَ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡوَعِيدِ﴾[7]، أو التحقير بالبعد، قَالَ تعالى: ﴿فَذَٰلِكَ

---

(١) سورة يوسف: ٢٣.

(٢) ينظر: معاهد التخصيص عَلَى شواهد التلخيص: ١/١٠٧؛ وينظر: البلاغة الميسرة: ٣٩٠.

(٣) ينظر: الإيضاح في علوم البلاغة: ٢/١٩؛ وينظر: المنهاج الواضح للبلاغة: ٤/٩٧، ٩٨، ٩٩؛ وينظر: البلاغة الميسرة: ٣٩٠، ٣٩١.

(٤) سورة الإسراء: ٩.

(٥) سورة العنكبوت: ٦٤.

(٦) سورة البقرة: ٢٦.

(٧) سورة ق: ٢٠.

﴿ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلۡيَتِيمَ ﴾[1]، أو تعظيم حاله بالبعد، قَالَ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ ﴾[2].

٥- تعريف المسند إليه بألـ[3]:

يؤتى بالمسند إليه معرّفاً بألـ العهدية، أو أل الجنسية لأغراض.

- ألـ العهدية، وتدخل على المسند إليه الإشارة إلى فرد معهود خارجاً بين المتخاطبين وعهده يكون إمّا بتقدم ذكره صريحاً، كقوله تعالى: ﴿كَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ رَسُولٗا ١٥ فَعَصَىٰ فِرۡعَوۡنُ ٱلرَّسُولَ ﴾[4].

أو بتقدم ذكره تلويحاً، قَالَ تعالى: ﴿وَلَيۡسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلۡأُنثَىٰۖ ﴾[5].

أو بحضوره بذاته، قَالَ تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ ﴾[6].

- ألـ الجنسية، وتسمى لام الحقيقة، تدخل على المسند إليه لأغراض أربعة: هي إمّا ما يشار بها إلى الحقيقة، بقطع النظر عن عمومها وخصوصها، كقول القائل: (أهلك الناس الدينار والدرهم).

أو لام الحقيقة ضمن فرد مبهم، كقوله تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ كُلَّ

---

(١) سورة الماعون: ٢٠.

(٢) سورة البقرة: ٢.

(٣) ينظر: المنهاج الواضح للبلاغة: ٤/١١١؛ وينظر: البلاغة الميسرة: ٣٩٤، ٣٩٥؛ وينظر: علم البلاغة: ١١٨، ١١٩، ١٢٠؛ جواهر البلاغة: ١١٦، ١١٧.

(٤) سورة المزمل: ١٦.

(٥) سورة آل عمران: ٣٦.

(٦) سورة المائدة: ٣.

﴿شَيۡءٍ حَيٍّ﴾[1].

أو لام الحقيقة ضمن جميع الأفراد التي يتناولها اللفظ بحسب اللغة بمعونة القرنية (حالية)، قَالَ تعالى: ﴿عَـٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِۚ﴾[2].

أو قرينة (لفظية)، قَالَ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَـٰنَ لَفِى خُسۡرٍ﴾[3].

٦- تعريف المسند إليه بالإضافة[4]:

إنّ هيئة التركيب الإضافي موضوعة للاختصاص المصحح، فإذا استعملت فِي غير ذَلِكَ كانت مجازاً كما فِي الإضافة لأدنى ملابسة.

ويتضمن تعريف المسند إليه تعظم شأنه المضاف أو المضاف إليه أو غيرهما قَالَ تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَـٰنٌ﴾[5].

أو يتضمن استهزاءً وتهكّماً، قَالَ تعالى: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرۡسِلَ إِلَيۡكُمۡ لَمَجۡنُونٌ﴾[6].

٧- تعريف المسند إليه بالنداء[7]:

يؤتى المنادى به إذا لم يعرف للمخاطب عنواناً خاصاً، والمنادى ليس من أنواع المعارف إلاّ إذا قصد بالمنادى نكرة غير مقصودة، فمناداها أضاف إليها

---

(١) سورة النساء: ٣٠.

(٢) سورة الأنعام: ٧٣.

(٣) سورة العصر: ٢.

(٤) ينظر: الإيضاح فِي علوم البلاغة: ٣٣/٢؛ وينظر: جواهر البلاغة: ١١٧، ١١٨.

(٥) سورة الحجر: ٤٢.

(٦) سورة الشعراء: ٢٧.

(٧) ينظر: جواهر البلاغة: ١٢٠؛ وينظر: البلاغة الميسرة: ٣٩٦، ٣٩٧؛ وينظر: البيان القرآني فِي تفسير رموز الكنوز: ١٠٩.

شيئاً من التعريف، فيأتي بالمسند إليه لأغراض منها:

- إذا لم يُعرف للمخاطب عنواناً خاصاً، قَالَ تعالى: ﴿ يَـٰعِبَادِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ ﴾[1]، وقول: (يا رجل)، (يا فتى).

- الإشارة إلى علة ما يُطلب منه، قَالَ تعالى: ﴿ قُلۡ يَـٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ ﴾[2] وقوله تعالى: ﴿يَـٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ﴾[3]، وقول: (يا غلام اكتب الدرس). فمناداته تعني أننا عددناه بنفسه ولو لم نسمه.

ب- تعريف المسند[4]:

يعرف المسند لإفادة السامع حكماً على أمر معلوم عنده بأمر آخر مثله لإحدى طرق التعريف، وبيان ذَلِكَ أنّ الشيء يكون له صفتان من صفات التعريف يعلم المخاطب اتصافه بإحداهما دون الأخرى فتخبره باتصافه بها فتفقده أو تملي عليه ما كَانَ يجهله من اتصافه بالأخرى، قَالَ تعالى: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ أَصۡحَـٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ ﴾[5]، وقوله تعالى: ﴿وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾[6]، (وذاك نقيب الأشراف).

---

(١) سورة الزخرف: ٦٨.

(٢) سورة الزمر، من الآية: ١٠.

(٣) سورة الزمر: ١٦.

(٤) ينظر: الإيضاح فِي علوم البلاغة: ٢/٢١٩، ١٣٠، ١٣١؛ وينظر: جواهر البلاغة: ١١٥؛ وينظر: علوم البلاغة: ١٢٢، ١٢٣؛ وينظر: المنهاج الواضح للبلاغة: ٢/٥٦، ٥٧؛ وينظر: البلاغة الميسرة: ٤٢.

(٥) سورة الأعراف، من الآية: ٤٢.

(٦) سورة المائدة، من الآية: ٨٥.

ويعرف المسند أيضاً لإفادة قصره على المسند إليه (حقيقة)، كقوله تعالى: ﴿لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾[1]، فقصر التوحيد لله تعالى، وقوله تعالى: ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾[2] فقصر الإخلاص لعباد الله، أو قصره (ادعاءً) مبالغة لكمال معناه فِي المسند إليه، إذا كَانَ المسند معرفاً بلام الجنس، قَالَ تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ﴾[3].

وقوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ﴾[4]، وقوله تعالى: ﴿يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم﴾[5]، فلفظ (حليم) و(المكرمين) و(الصابرون) معرفات بأل إلاّ الجنس.

٣- تنكير المسند إليه والمسند:

أ - تنكير المسند إليه:

النكرة هي الاسم المقابل للمعرفة، ويأتي المسند إليه نكرة؛ لأنّ قصد المتكلم إفادة معنى النكرة، أو تكون النكرات تدل على تحديد عام لكن لا تدل على ذات معينة، ولا على ذات محددة[6]، كقوله تعالى: ﴿وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ﴾[7]، وذكر المفسرون أنّ ذَلِكَ الرجل هُوَ (حبيب النجار)

(١) سورة إبراهيم: ٤٨.
(٢) سورة الصافات: ٤٠.
(٣) سورة هود: ٧٥.
(٤) سورة الذاريات: ٢٤.
(٥) سورة الزمر، من الآية: ١٠.
(٦) ينظر: خصائص التركيب: ٢١٣؛ وينظر: المنهاج الواضح للبلاغة: ٤١/٢؛ وينظر: البلاغة الميسرة: ٣٩٧.
(٧) سورة يس: ٢٠.

غير إنّ الغرض لم يتعلق به معيناً[1]. ويجيء بالمسند إليه نكرة لعدم علم المتكلم بجهة من جهات التعريف حقيقة أو ادعاءً، إذا لم يعرف ما يُعينه من علم أو صلة أو نحوهما[2]، قَالَ تعالى: ﴿فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا﴾[3]، أو قول القائل: (جاء هنا رجل يسأل عنك).

وَقَدْ يكون التنكير لأغراض أخرى هي[4]:

١- **للإفراد:** قَالَ تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ﴾[5]، أي خلق كُلّ فرد من أفراد الدواب من نطفة معينة، وهذا حددهُ سياق المعنى الذي جاءت به كلمة (دابة).

٢- **النوعية:** قَالَ تعالى: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَاةٍ﴾[6]، يعني: أي نوع من الحياة المتطاولة فهم أحرص الناس على أن يزدادوا إلى حياقم الماضية حياة فِي المستقبل، حتّى لو كانت حياة حقيرة مهانة، وهذا من جمال نسق نوعية مفردة التنكير (حياة). قَالَ تعالى: ﴿وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ﴾[7]، والمقصود نوع خاص من أنواع الغشاوة، غير ما

(١) ينظر: تفسير مقاتل: ٣/٧٦، ٧٧؛ وينظر: معاني القرآن للزجاج: ٤/٢٨٢.

(٢) ينظر: جواهر البلاغة: ١٢١؛ وينظر: البلاغة الميسرة: ٣٩٧.

(٣) سورة الأعراف، من الآية: ٥٣.

(٤) ينظر: الإيضاح فِي علوم البلاغة: ٢/٣٥؛ وينظر: جواهر البلاغة: ١٢١؛ وينظر: علوم البلاغة: ١٢٨؛ وينظر: بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح فِي علوم البلاغة: ١/٩٤؛ وينظر: المنهاج الواضح للبلاغة: ٢/٤١.

(٥) سورة النور: ٤٥.

(٦) سورة البقرة، من الآية: ٩٩.

(٧) سورة البقرة، من الآية: ٧.

يتعارفه الناس، ذَلِكَ هُوَ غطاء التعامي عن الحق، والإعراض عن آيات الله وهذا حدده مجيء نسق سياق كلمة (غشاوة).

٣- **عدم التعيين**: قَالَ تعالى: ﴿ٱقْتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا﴾[١]، ولم يعين أي أرض، أهي أرض مستوية، أو أرض وادي، أو قاع البئر.

٤- **التعظيم والتحقير**[٢]: قَالَ تعالى: ﴿فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾[٣]. فالمفهوم من سياق الآية أنّ تنكير الحرب جاء للتعظيم والتهويل.

وقوله تعالى: ﴿إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾[٤]، هنا يظهر السياق استحقار الظن والشك فِي النفس، يكون التعظيم يراعى فيه الحال والشأن كعلو المرتبة والتحقير كذلك.

٥- **التكثير والتقليل**[٥]: إنّ لفظ النكرة غير مقصود فيحتمل الزيادة ويحتمل النقص، لأنه غير محدد، والذي يعين على ذَلِكَ هُوَ السياق.

قَالَ تعالى: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾[٦]، أي: رسل كثيرة.

وَقَالَ تعالى: ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾[٧]، فقد نكر المسند إليه، وَهُوَ (شيء) لقصر إفادة أنّه شيء وقليل.

---

(١) سورة يوسف، من الآية: ٩.

(٢) ينظر: علوم البلاغة: ١٢٨.

(٣) سورة البقرة: ٢٧٩.

(٤) سورة الجاثية: ٣٢.

(٥) ينظر: المنهاج الواضح للبلاغة: ٢/٤٢.

(٦) سورة فاطر: ٤.

(٧) سورة آل عمران، من الآية: ١٥٤.

والتكثير المراعى فيه الكميات والمقادير، كالمعدودات والموزونات، والتقليل كذلك.

٦- **العموم بعد النفي**[١]: إنّ النكرة فِي سياق النفي تعم، قَالَ تعالى: ﴿مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ﴾[٢]، يعني لم يأتنا أي إنسان يمكن أن يتصف بصفة البشرى، فكأنّ نوع من التعميم ويستفاد من مجيء النكرة فِي حيز النفي.

٧- **وإخفاء الأمر**[٣]: قَالَ تعالى: ﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا﴾[٤] أي: إنّ الذين قالا من جنس الرجال لكنه غير محدد، وَقَدْ نفي أمرهما.

ونحو: (قَالَ رجل إنك انحرفت عن الصواب) تخفي اسمه حتّى لا يلحقه أذى.

ب- تنكير المسند[٥]:

ينكر المُسند لعدم الموجب لتعريف، لأمور هي:

١- **لقصر العهد أو الحصر**: قَالَ تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾[٦]. ونحو: (أنت أمير وَهُوَ وزير).

---

(١) ينظر: المنهج الواضح للبلاغة: ٤٢؛ وينظر: البلاغة الميسرة: ٣٩٧.

(٢) سورة المائدة، من الآية: ١٩.

(٣) ينظر: البلاغة الميسرة: ٣٩٨.

(٤) سورة المائدة: ٢٣.

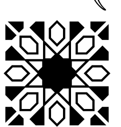
(٥) ينظر: الإيضاح فِي علوم البلاغة: ١٢٨/٢؛ بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح فِي علوم البلاغة: ١٨٣؛ ينظر: البلاغة الميسرة: ٤٠٦.

(٦) سورة الزمر، من الآية: ٣٠.

٢- **لإفادة التفخيم أو التنبيه:** قَالَ تعالى: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾[1] أي: هو هدى، فتنكير المسند (هدى) أفاد تفخيم وتعظيم هداية القرآن وتفخيمها وأنَّها بلغت درجة لا يمكن إدراك كنهها. وهذا من جمالية النسق والترتيب والتناسب في هذا القران العظيم بسبب سياق مجيء (الهدى) الذي هو سياق للمتقين. وَقَالَ تعالى: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ﴾[2].

٣- **ولقصد التحقير:** قَالَ تعالى: ﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾[3]. وَقَالَ تعالى: ﴿مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾[4]، ﴿أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ﴾[5]. ونحو: (ما خليل رجل يذكر).

٤- **ولاتّباع المسند إليه في تنكيره:** قَالَ تعالى: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ﴾[6]. وَقَالَ تعالى: ﴿وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَٰلَةً﴾[7]، ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾[8]. ونحو: (رجل واقف بالباب).



(١) سورة البقرة، من الآية: ٢.
(٢) سورة الحجّ: ١.
(٣) سورة غافر، من الآية: ١٨.
(٤) سورة السجدة، من الآية: ٤.
(٥) سورة هود، من الآية: ٧٨.
(٦) سورة يوسف، من الآية: ٧.
(٧) سورة النساء، من الآية: ١٢.
(٨) سورة الأحقاف، من الآية: ١٠.

المبحث السادس

أثر السياق القرآني النسقي

في الدلالة على الوصل و الفصل

إنّ الوصل والفصل هُوَ العلم بمواضع العطف والاستئناف، والاهتداء إلى كيفية إيقاع حروف العطف فِي مواقعها، وَهُوَ من أعظم أركان البلاغة؛ لأنّها لا تخلط بين المرعيّ بالمهمل، وتنظم اللآلئ، أي: تنظم ربط الألفاظ عند الوقف والاستئناف يعني ترك العاطف وذكره، إذن فبلاغة الوصل والفصل هُوَ مضمار النظام ومتفاضل الأنظار ومعيار قدر الفهم ومسار صوابه فِي الكلم والجمل(١).

فالوصل هُوَ عطف بعض على بعض، وتوسط الواو العاطفة بين الجملتين، أمّا الفصل هُوَ الترك، أي: ترك الواو العاطفة بين الجملتين، والمجيء بها منثورة، تستأنف واحدة منها بعد الأخرى(٢).

وتمييز موضع أحدهما عن موضع الآخر على ما تقتضيه البلاغة، فلا يحيط علماً وفهماً بكنهه إلاّ من أوتي فهم كلام العرب طبعاً سليماً، وأحوالهما دقيقة المجرى، لطيفة المغزى، جليلة المقدار، كثيرة الفوائد(٣).

---

(١) ينظر: الصناعتين: ٤٣٨؛ وينظر: مفتاح العلوم: ٢٤٩؛ وينظر: نهاية الأرب: ٧٠/٧؛ وينظر: جواهر الأدب: ١٨٠؛ وينظر: جواهر البلاغة: ١٧٩/١؛ وينظر: علوم البلاغة: ١٦٢؛ وينظر: بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح فِي علوم البلاغة: ٣٢٢/٢.

(٢) ينظر: الإيضاح فِي علوم البلاغة: ٩٧/٣؛ وينظر: الطراز المتضمن لأسرار البلاغة: ١٦٩/٣.

(٣) ينظر: الإيضاح فِي علوم البلاغة: ٩٧/٣؛ وينظر: الطراز المتضمن لأسرار البلاغة: ٢٠/٢.

ومثال الوصل قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾[1] عطف جملة (وكونوا) على ما قبلها.

ومثال الفصل قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِي ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾[2] فجملة (ادفع) مفصولة عمّا قبلها.

فكل من الوصل والفصل يجيء لأسباب بلاغية، ومن هَذَا يُعلم أنّ الوصل جمع وربط بين جملتين (بالواو) لصلة بينهما فِي الصورة والمعنى، أو لدفع اللبس، والفصل ترك الربط بين الجملتين، إمّا لأنهما متحدتان صورة ومعنى، أو بمنزلة المتحدتين، وإمّا لأنه لا صلة بينهما فِي الصورة أو فِي المعنى، إذن الخلاصة منهما هُوَ العلم بمواقع الجمل والوقوف على ما ينبغي أن يضع فيهما[3].

وبلاغة الوصل لا تتحقق إلاّ (بالواو) العاطفة دون بقية حروف العطف؛ لأنّ (الواو) هي الأداة التي تخفى الحاجة إليها، ويحتاج العطف بها إلى لُطف فِي الفهم، ودقة فِي الاستيعاب والإدراك، إذ لا تفيد إلاّ مجرد الربط وتشريك ما بعدها لما قبلها فِي الحكم أي: (الرفع والنصب والجر)، ومثل عطف (الواو)، قوله تعالى: ﴿أَمَدَّكُم بِأَنْعَٰمٍ وَبَنِينَ﴾[4]، أمّا العطف بغير (الواو)، فيفيد مع التشريك معاني أخرى، كالترتيب مع التعقيب فِي (الفاء)، وكالترتيب مع التراخي فِي (ثُمَّ) وهكذا باقي حروف العطف التي إذا عطف بواحد منها

---

(١) سورة التوبة: ١١٩.

(٢) سورة فصلت، من الآية: ٣٤.

(٣) ينظر: جواهر البلاغة: ١٧٩؛ ينظر: البلاغة العربية: ١/٥٥٧؛ وينظر: الخلاصة فِي علوم البلاغة: ٢٧.

(٤) سورة الشعراء: ١٣٣.

ظهرت الفائدة، ولا يقع اشتباه فِي استعماله[1].

ومثال العطف بـــ(الفاء) قوله تعالى: ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾[2] فأولاً أزلّ الشيطان آدم وحواء، وبعدها عقب ذَلِكَ أخرجهما من الجنة لعصيانهما أمر الله بغوايتهما.

ومثال العطف (ثُمَّ) قوله تعالى: ﴿فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ﴾[3].

ويمكن أن نبيّن حروف العطف فِي آية واحدة وإفادها لمعانيها ودقة بلاغة القرآن الكريم وذروته.

قَالَ تعالى: ﴿قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ﴾[4].

وفيما يتعلق (بالواو) نجدها فِي الآيات الكريمة السابقة عاطفة للسقي على الطعام لتنفيذ مطلق الجمع، ويمكن تقديم الطعام على الشراب وبالعكس دون أن يؤثر على المعنى، أو فِي دائرته الدلالية، ولكن (الفاء) جاءت عاطفة للشفاء على المرض؛ لأنّ الشفاء يأتي عقيب المرض مباشرةً، فأفادت الترتيب

(١) ينظر: دلائل الإعجاز: ١٧٥؛ وينظر: جواهر البلاغة: ١/١٨؛ وينظر: فن التحرير العربي: ١٠٥، ١٠٦؛ وينظر: نهاية الأرب: ٧/٦٠؛ وينظر: الخلاصة فِي البلاغة: ٢٧.

(٢) سورة البقرة، من الآية: ٣٦.

(٣) سورة الواقعة: ٥٣-٥٤.

(٤) سورة الشعراء: ٧٥-٨١.

والتعقيب وهذا النسق العجيب في الترتيب حدده السياق القرآني وهو من جملة إعجاز القران الكريم، أمّا (ثُمَّ) فقد استخدمت لعطف الأحياء على الإماتة؛ لأنّ البعث تال للموت مع مرور وقت بينهما، لذا كانت (ثُمَّ) دالة على الترتيب والتراخي، وهذا النسق الترتيبي هو غاية الإعجاز ومنتهاهُ وهذا لا تجدهُ إلا في كتاب الله العزيز(1).

إذن فأعظم معالم العطف، ومعلم الوصل والفصل بين العمل كتاب الله ثم أقوال الرسول ﷺ.

ويكون الوصل بالعطف نوعين، هما(2):

أولاً: عطف مفرد على مفرد، وعطف جملة على جملة:

فعطف المفرد فيستفاد منه مشاركة الثاني للأول في رفعه ونصبه وجرّه، بالفاعلية والمفعولية، أو الإضافة، وحروف الجر، أمّا الصفات فلا يجري فيها العطف؛ لأنّ الصفة جارية مجرى الموصوف، ويُنهي عن دخول الواو بين الصفة والموصوف لاستحالة عطف الشيء على نفسه، والصفة يمكن أن تحل محل الموصوف.

أمّا عطف الجملة على الجملة فهو على وجهين أحدهما أن يكون العطف على جملة لها موضع (محل) من الإعراب فتكون المعطوفة كذلك أيضاً، فحكمها حكم المفرد، وثانيها أن تعطف جملة على جملة لا موضع لها من الإعراب،

---

(١) ينظر: فن التحرير العربي: ١٠٦.

(٢) ينظر: نهاية الأرب فِي فنون الأدب: ٧١/٧؛ ينظر: الطراز لأسرار البلاغة: ٢٠/٢، ١٧٢/٣؛ وينظر: جواهر البلاغة: ١٧٩/١؛ وينظر: البلاغة العربية: ٥٥٧، ٥٧١، ٥٧٢؛ وينظر: فن التحرير العربي: ٨٦، ٨٧؛ وينظر: دلائل الإعجاز: ١٧٤.

فتكون الثانية لا محل لها من الإعراب أيضاً، وتكون فائدة الواو العاطفة بين الجملتين التي لا محل لها من الإعراب الجمع بين مضمون الجملتين في الحصول، وهذا العطف هو نسق جملي ترتيبي لإضفاء الجمالية والحكم والسبك والإعجاز.

ثانياً: الربط الكلّي:

وهو يتجاوز الكلمات والجمل إلى تلاحم الفقرات وتماسكها في نسق كلّ شامل على مستوى النص، وتحقيق ذلك ليس بالأمر الهيّن ولا اليسر، والربط الكلي يعالج على مستويات متعددة، تشمل الوحدة الفنية، والصوتية والموضوعية والدلالية المختلفة وفقاً للقواعد والأصول لكلّ فن[1].

وهناك مواضع للوصل والفعل في الجمل يجيء لأسباب بلاغية، تدعو الحاجة ويقتضي المقام ذكرها:

١- مواضع الوصل[2]:

يقع الوصل في الجمل في مواضع ثلاثة:

الأول: إذا اتفقت الجملتان في الخبرية والإنشائية لفظاً ومعناً، أو معناً فقط، و لم يكن هناك سبب يقتضي الفصل بينهما، وكانت بينهما مناسبة تامة في المعنى.

فمثال الخبريتين، قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ﴾[3].

---

(١) ينظر: فن التحرير العربي: ٨٦.

(٢) ينظر: المنهاج الواضح للبلاغة: ١٠٣-١١٦؛ وينظر: جواهر البلاغة: ١٨١؛ وينظر: البلاغة الواضحة: ٢٥٤، ٢٥٥؛ وينظر: الخلاصة في علوم البلاغة: ٢٨.

(٣) سورة الانفطار: ١٣-١٤.

ومثال الإنشائيتين، قوله تعالى: ﴿فَٱدۡعُ وَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ﴾[1].

ومثال المختلفين، قوله تعالى: ﴿إِنِّيٓ أُشۡهِدُ ٱللَّهَ وَٱشۡهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ﴾[2] أي: إني أشهد الله وأشهدكم، فتكون الجملة الثانية في هذه الآية إنشائية لفظاً، ولكنها خبرية في المعنى.

الثاني: دفع توهم غير المراد، وذلك إذا اختلفت الجملتان في الخبرية والإنشائية، وكان الفصل يوهم خلاف المقصود.

مثل: (لا وبارك الله فيك)، تجيب لمن قال: (هل لك حاجة أساعدك في قضاءها)، فترك (الواو) قبل (وبارك) يوهم السامع الدعاء عليه، وهو خلاف المقصود، لأنّ الغرض الدعاء له، ولهذا وجب الوصل هنا أيضاً.

الثالث: إذا قُصد اشتراك الجملتين في الحكم الإعرابي، أي: إذا كان للجملة الأولى محل من الإعراب، وقصد تشريك الثانية لها في الإعراب، فلا مانع وكان بينهما مناسبة أي جهة جامعة تسوغ العطف، قال تعالى: ﴿**إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ**...﴾[3]، إذ قصد اشتراك (يصدون) لــ(كفروا) في جعله صلة، ونحو: محمود يقول ويفعل، ومنه قوله تعالى: ﴿**مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضۡعَافٗا كَثِيرَةٗۚ وَٱللَّهُ يَقۡبِضُ وَيَبۡصُۜطُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ**﴾[4]، فجملة (يقبض) وقعت خبراً للفظ الجلالة،

(١) سورة الشورى: ١٥.

(٢) سورة هود: ٥٤.

(٣) سورة الحج: ٢٥.

(٤) سورة البقرة: ٢٤٥.

وجملة (يبسط) عطفت عليها بالواو؛ لأنَّ القصد إشراك الثانية للأولى في الحكم الإعرابي وهو وقوعهما خبراً للمبتدأ، وبين الجملتين تناسب، إذ المسند إليه في كل منهما واحد وهو الله ﷻ، وبين المسندين (يقبض ويبسط) تضاد فهما متناسبان. وسرّ بلاغة الوصل هنا هي تصوير عظمة القادر، وانه بيده الأمر من خلال جمعه بين القبض والبسط وهذا من جمال وإعجاز التناسب النسقي في كتاب الله تعالى.

٢- مواضع الفصل:

يقع الفصل في الجمل في مواضع خمسة[1]:

الأول: (**كمال الاتصال**) وهو اتحاد الجملتين اتحاداً تامّاً وامتزاجاً معنويّاً، بحيث تُنزّل الثانية من الأولى منزلة نفسها، كما في الحالات الآتية:

أ – أن تكون الجملة الثانية بمنزلة البدل من الجملة الأولى، قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ﴾[2].

ب- أو تكون الجملة الثانية بياناً لإبهام في الجملة الأولى، كقوله تعالى: ﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴾[3]. فجملة (قال يا آدم): بيانٌ لّما وسوس به الشيطان.

ج- أو أن تكون الجملة الثانية مؤكدة للجملة الأولى بما يشبه أن يكون

---

(١) ينظر: جواهر البلاغة: ١٨٣؛ وينظر: الخلاصة في علوم البلاغة: ٢٨؛ البلاغة الواضحة: ٢٥١، ٢٥٢.

(٢) سورة الشعراء: ١٣٢-١٣٣.

(٣) سورة طه: ١٢٠.

توكيداً لفظيّاً أو معنويّاً، كقوله تعالى: ﴿فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا﴾[1]. فالمانع من العطف في هذا الموضع اتحاد الجملتين اتحاداً تامّاً يمنع عطف الشيء على نفسه، ويوجب الفصل.

الثاني: (**كمال الانقطاع**) وهو اختلاف الجملتين اختلافاً تامّاً وتبايناً كاملاً والى فقدان المناسبة بينهما، كما في الحالتين[2]:

أ - بأنْ يختلفا خبراً وإنشاءً، لفظاً ومعناً، أو معناً فقط، نحو: قال تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾[3] فالجملة الأولى: ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ﴾ خبرية لفظاً ومعنى، والجملة الثانية ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ إنشائية لفظاً ومعنى، والفصل بينهما لا يوهم خلاف المقصود ولذا وجب الفصل بينهما.

ب- أو ألاّ تكون بين الجملتين مناسبة في المعنى ولا ارتباط، بل كلٌّ منهما مستقلٌّ بنفسه، كقوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ۝٤ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾[4] نجد أنَّ الترابط قوي بين ﴿ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ وما قبله، فسياق الآيات يبرز قدرة الخالق الرحمن الذي حكم حركة الشمس والقمر... أما المناسبة الخاصة التي تسوغ العطف فهي موجودة ولذا فصل بين ﴿ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ وما قبلهما... إلى غير ذلك مما ترى المناسبة الخاصة فيه غير قائمة، والمناسبة العامة

---

(١) سورة الطارق: ١٧.

(٢) ينظر: البلاغة الواضحة: ٢٥١، ٢٥٢؛ وينظر: الخلاصة في البلاغة: ٢٨، ٢٩.

(٣) سورة فصلت: ٣٤.

(٤) سورة الرحمن: ١-٥.

واضحة جليلة.

الثالث: (**شبهة كمال الاتصال**)[1]، وهو كون الجملة الثانية قوية الارتباط بالأولى، لوقوعها جواباً عن سؤال يفهم من الجملة الأولى فتفصل عنها، كما يفصل الجواب عن السؤال، كقوله تعالى عن لسان النبي يوسف ﷺ: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ﴾[2] حيث فصلت جملة ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ عما قبلها ؛ لأنَّها وقعت جواباً لسؤال تضمنته، وهذا السؤال عن السبب الخاص ؛ إذ فحواه: لم نفيت التبرئة عن النفس، هل النفس أمارة بالسوء؟ جاء الجواب ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾.

الرابع: (**شبهة كمال الانقطاع**)[3]، هو أن تسبق جملة بجملتين يصح عطفها على الأولى لوجود المناسبة، ولكن في عطفها في الثانية فساد في المعنى، فيترك العطف بالمرة دفعاً لتوهم أنّه معطوفٌ على الثانية، وكقول الشاعر:

وتظنَّ سلمى أنني أبغي بها ... بدلاً أراها فِي الضلال تهيمُ

فجملة (أراها) يصح عطفها على جملة (تظن) لكن يمنع من هَذَا توهم العطف على جملة (أبغي بها) فتكون الجملة الثالثة من مظنونات سلمى مع أنّه غير المقصود ذَلِكَ المعنى، ولهذا امتنع العطف بتاتاً، ووجب الفصل، والمانع من العطف أمر خارجي محتمل يمكن دفعه بمعونة القرينة[4].

---

(١) ينظر: البلاغة الواضحة: ٢٥١، ٢٥٢؛ وينظر: الخلاصة في البلاغة: ٢٩.

(٢) سورة يوسف: ٥٣.

(٣) ينظر: جواهر البلاغة: ١٨٣؛ وينظر: الخلاصة في البلاغة: ٢٩؛ وينظر: البلاغة الواضحة: ٢٥٢؛ وينظر: علوم البلاغة: ١٦٧، ١٦٨، ١٦٩.

(٤) ينظر: البلاغة الواضحة: ٢٥٢؛ وينظر: الخلاصة فِي البلاغة: ٢٩.

ومن هَذَا الذي سبق يُفهم الفرق بين كُلّ من (كمال الانقطاع وشبه كمال الانقطاع).

الخامس: (التوسط بين الكمالين مع قيام المانع)[1]، وَهُوَ كون الجملتين متناسبتين، وبينهما رابطة قوية، لكن يمنع من العطف مانع، وَهُوَ عدم قصد التشريك فِي الحكم. «كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ ﴿١٤﴾ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾[2]، فجملة ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ لا يصح عطفها ﴿إِنَّا مَعَكُمْ﴾ لاقتضائه أنّه من مقول المنافقين، والحال أنّه من مقوله تعالى: (دعاءً عليهم) ولا على جملة (قالوا) لئلا يتوهم مشاركته له فِي التقييد بالظرف، وأنّ استهزاء الله بهم مُقيد بحال خلوهم إلى شياطينهم، والواقع أنّ استهزاء الله بالمنافقين غير مقيد بحالٍ من الأحوال، ولهذا وجب الفصل أيضاً»[3].

❑ سياقات الوصل والفصل وأسراره الجمالية:

إنّ الربط بين أجزاء الكلام من المباحث المهمة التي تأخذ بأيدينا إلى أسرار الكتابة وطرائق الإجادة فِي معرفة مواضعها، وَقَدْ اهتم النقاد والبلاغيون والنحويون بدراسة أدوات الربط ووسائله، فكان مبحث الوصل والفصل وكذلك مباحث حروف العطف وأدوات الربط الأخرى من أهم المباحث فِي البلاغة العربية والنحو العربي، ومبحث الفصل الوصل صعب

---

(١) ينظر: جواهر البلاغة: ١٨٦؛ وينظر: الخلاصة فِي البلاغة: ٢٩؛ وينظر: البلاغة الواضحة: ٢٥٢؛ وينظر: علوم البلاغة: ١٦٩.

(٢) سورة البقرة: ١٤-١٥.

(٣) الخلاصة فِي البلاغة: ٢٩، وعلم المعاني، بسيوني: ٤٧٤.

المسلك لطيف المغزى، كثيرة الفائدة، وأجمل معلم للفصل والوصل نجده فِي نسق وتناسق آيات القرآن الكريم، فإنّ سبك الكلام فِي سياقات الآيات الكريمات ودقة أسره وشدة تلاحم أجزائه تحتاج إلى حذق حاذق ماهر يميز بين أقسام الجمل[١].

فمن حق الجمل إذا ترادفت وتتابعت ووقع بعضها إثر بعض أن يعطف على بعض، والأفكار ومعاني الألفاظ لا حصولها، وضم فكرة إلى أخرى، ولفظ ذي معنى إلى لفظ آخر ذي معنى موافق أو مخالف يتطلب إدراكاً عالياً جدّاً، وقادراً على تمييز درجات حُسن التلاؤم، ودركات قبح عدم التلاؤم الذي يولد فِي النفوس الصدَّ أو النفرة أو الاستقباح، أو الحكم على الكلام بالركاكة، وسوء التركيب، وخروجه عن أُطر الجمال الفني، بسبب أنّ التلاؤم وعدم التلاؤم بين المعاني قضية جمالية فكرية، لذا فالبحث فِي الوصل والفصل كالبحث فِي صور حركات السحب وتشكيلاتها المتنوعات الناتجات عن تقاربها وتباعدها، واجتماعها وافتراضها[٢] وسياقات الوصل والفصل له أسرار جمالية فنية وانفعالية ودلالية مؤثرة على الروح والوجدان والعقل، وَهَذَا ما نجده فِي آي الذكر الحكيم، حيث يجمع تلك الجماليات بجامع فني راقٍ ويشير بعضها إلى بعض[٣].

ففي تناسق سياقات الوصل والفصل التماسك والإحكام والتلاؤم

---

(١) ينظر: علوم البلاغة: ١٦٢؛ وينظر: فن التحرير العربي: ٨٥؛ وينظر: الطراز لأسرار البلاغة: ٢/٢٠.

(٢) ينظر: البلاغة الميسرة: ٤٩٣؛ وينظر: البلاغة العربية: ١/٥٥١.

(٣) ينظر: البلاغة العربية: ١/٥٥٢.

والسلاسة، نظراً إلى ما يشمل حسن بناء، وسبك، ولين، وسهولة فِي النطق، وعذوبة فِي مجاري السمع، ونبيّن هَذَا البناء الجامع لكل معانيه الفنية والإيقاعية والنظم اللفظي والدلالي من القرآن الكريم[1].

قَالَ تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[2] وهنا نقف وقفة بلاغية للوصل والفصل فِي هذه الآية البديعة حيث ننبه على التناسق البديع فِي السياق القرآني.

«فالمتأمّل فِي هذه الآية العجيبة مع اشتمالها على العذوبة فِي ألفاظها المفردة والسلاسة فِي تراكيبها، والنظام العجيب، والتأليف الأنيق، والأسلوب البديع، حتّى لا تكاد لفظة واحدة تخلو عن ملاحظة البلاغة، ومواقع الفصاحة، وكيف احتوت على التنبيه على أسرار عظيمة ومعانٍ فخمة على أسهل نظام وأيسره مع ما يحمل من معلم البلاغة فِي الوصل والفصل بين تراكيبه مع أتم بيان وأكمله»[3].

ونشير إلى هَذَا الربط البديع فِي الآية بين عطف (الأرض) على (السماوات) وَهُوَ وصل مفردة بأخرى عطفاً عليها بحرف (الواو) ترتيباً فِي الخلق، لأنّ الله خلق السماوات وبعدها الأرض، وعطفاً فِي الإعراب، وهي مفعول به ثانٍ منصوب معطوف على المفعول به الأول (السماوات) المنصوب.

---

(١) ينظر: المصدر نفسه: ١/٥٥٣.

(٢) سورة الأعراف: ٥٤.

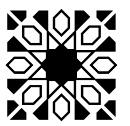
(٣) الطراز المتضمن لأسرار البلاغة: ١/٧٤.

وَفِي جملة ﴿يُغۡشِى ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَ﴾ فهنا (شبه كمال اتصال) كون الجملة الثانية قوية الارتباط بالأولى، لوقوعها كأنها جواباً عن سؤال: ما خلق الله ويحتمل يكون الجواب خلق الليل والنهار ويغشي الليل النهار، فهنا فصل للسبب الذي ذكرناه.

وَفِي قوله تعالى: ﴿يَطۡلُبُهُۥ حَثِيثًا﴾ أي: يطلب كُلّ منهما طلباً سريعاً[1]، وهنا بلاغة فصل أيضاً لوجود (كمال انقطاع) لوجود اختلافاً تامّاً فلفظة ﴿يُغۡشِى﴾ أي: يغطي كُلّ منهما للآخر و﴿يَطۡلُبُهُۥ حَثِيثًا﴾ أي: يطلبه سريعاً.

وَفِي عطف ﴿وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ﴾ عطف على ﴿يُغۡشِى ٱلَّيۡلَ﴾ وَهُوَ وصل اتفقت فيه الجملتان فِي الخبرية وبينهما مناسبة فِي المعنى.

وَفِي فصل ﴿تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ عمّا قبلها لوجود (كمال انقطاع) لوجود اختلافاً تامّاً فِي المعنى.



(١) تفسير الجلالين: ٢٠١.

المبحث السابع

أثر السياق القرآني

في أسلوب الاستفهام

أسلوب الاستفهام أحد أنواع الإنشاء الطلبي، والأصل فِيه طلب الإفهام والإعلام لتحصل فائدة علمية مجهولة لدى المستفهم يُعرف بها عمّا طلب، وَقَدْ يراد بالاستفهام غير المعنى الأصلي له، ويستدل على المعنى المراد بالقرائن القولية أو الحالية(١).

والاستفهام هُوَ طلب العلم بشيء لم يكن معلوماً من قبل، وذلك بأداة من إحدى أدواته(٢).

وَهُوَ إمّا أن يكون استفهام عن الحقائق فهو بالأسماء نحو: (من هَذَا، من ذاك) أو أن يكون لأمر عارض فهو بالحروف، نحو: (أقام زيداً أم قعد)، استفهام عن حالة، وإن كَانَ المقصود طلب التحصيل(٣).

وأدوات الاستفهام هي:

الهمزة، وهل، ومن- وما- ومتى- وأيّان- وكيف- وأين- وأنّى- وكم- وأي. واسم الاستفهام له الصدارة فِي الكلام(٤).

---

(١) ينظر: البلاغة العربية: ١/٢٥٨.

(٢) جواهر البلاغة: ٧٨؛ علوم البلاغة: ٦٤؛ المنهاج الواضح للبلاغة: ٢/٩٥؛ البلاغة الواضحة: ٢٢١.

(٣) ينظر: الطراز المتضمن لأسرار البلاغة: ١/٢٦.

(٤) ينظر: البلاغة العربية: ١/١٤٥.

وهذه الأدوات تقع فِي أقسام ثلاثة[1]:

- **القسم الأول**: ما يستفهم به عن التصور والتصديق، وَهُوَ (همزة الاستفهام) فقط، وَهُوَ حرف لا محل له من الإعراب فِي الجملة، والهمزة أصل أدوات الاستفهام كلها.

- **القسم الثاني**: ما يستفهم به عن التصديق فقط، وَهُوَ لفظ (هل) وَهُوَ حرف أيضاً، ولا محل له من الإعراب فِي الجملة.

- **القسم الثالث**: ما يستفهم به عن التصور فقط، وهي سائر أدوات الاستفهام، وهذه جميعها أسماء، وهي: (من- ما- أي- كيف- كم- أين- أنّى- متى- أيّان.

والتصور: هُوَ إدراك المفردة، بمعنى أن يكون هناك نسبة، فـ(القرآن)، (محمد)، و(زيد)، (عمرو)، ونحوها كلها مفردة فِي تصورها.

والتصديق: هُوَ إدراك النسبة الحكمية، أي نسبة الفعل إلى الفاعل، أو المبتدأ إلى خبره فـ(الله عليم)، (زيد قائم)، (محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)، ونحوها كلها نسب فهي تصديقات. والتصديق يكون موجب (أثبات) كـ(محمد رَسُوْلُ اللهِ)، ويكون سالب (نفي) كـ(أبو جهل فاسق).

وخلاصة القول: إنّ العلم إذا كَانَ إذعان فهو تصديق وإلا فهو تصور[2].

---

(١) ينظر: مفتاح العلوم: ٣٠٨؛ جواهر البلاغة: ٧٨؛ علوم البلاغة: ٦٤؛ البلاغة العربية: ١/٢٥٨؛ الإيضاح فِي علوم البلاغة: ٣/٥٥- ٥٧؛ الخلاصة فِي علوم البلاغة: ١١.

(٢) ينظر: الخلاصة فِي علوم البلاغة: ١٣.

وبيان هذه الأدوات كما يأتي[1]:

١- **الهمزة:** وكما قلنا تطلب لأحد أمرين:

١- **التصور**، وَهُوَ إدراك المفردة كما قلنا، حكم الهمزة التي يطلب التصور أن يليها المسؤول عنه بها، سواء أكان:

أ - مسنداً إليه، قَالَ تعالى: ﴿ءَأَنتُمۡ أَعۡلَمُ أَمِ ٱللَّهُۗ﴾[2].

ب- مسنداً، قَالَ تعالى: ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾[3].

ج- مفعولاً، نحو: أإياي تقصد أم سعيداً؟

د - حالاً، نحو: أراكباً حضرت أم ماشياً؟

هـ- ظرفاً، نحو: أيوم الجمعة قدمت أم الأحد؟، وَقَدْ يستغني عن ذكر المعادل (أم المعادلة)، قَالَ تعالى: ﴿ءَأَنتَ فَعَلۡتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ﴾[4] فالسياق وقرائن الأحوال تدل على أنَّ المسؤول عنه هو الفاعل، حيث أشاروا إلى الفعل (هذا) فهو معلوم لهم، وهم يشاهدون الأصنام مُحطمّة ويجهلون الفاعل ولذا ولي الفاعل الهمزة (أأنت) والمعنى أأنت فعلت هذا أم غيرك.

٢- **التصديق**، هُوَ إدراك وقوع نسبة تامة بين المسند والمسند إليه، أو عدم

---

(١) ينظر: جواهر البلاغة: ٧٨، ٧٩؛ وينظر: البلاغة العربية: ١/٢٦٠، ٢٦١؛ وينظر: البلاغة الميسرة: ٣٤٨.

(٢) سورة البقرة: ١٤٠.

(٣) سورة البقرة: ٦.

(٤) سورة الأنبياء: ٦٢.

وقوعها، بحيث يكون المتكلم خالي الذهن ممّا استفهم عنه فِي جملته، ومصدقاً للجواب إثباتاً بـــ(نعم) ونفياً بـــ(لا)، وهمزة الاستفهام تدل على التصديق إذا أريد بها النسبة، ويكثر التصديق فِي الجملة الفعلية، نحو: أحضر الأمير؟ ويمتنع ذكر المعادل (أم)، فإن جاءت (أم) بعدها، قدرت منقطعة، وتكون بمعنى (بل) فتدل على استئناف الكلام بعدها، كقول الشاعر:

ولستُ أبالي بعد فقدي مالكاً ... أموتي ناء أم هُـــوَ الآن واقـــعُ

ومثال همزة استفهام التصديق، قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ﴾(١).

ويجوز حذف الهمزة وتقديرها ذهناً، قَالَ تعالى: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ...﴾(٢)، أي: أآمنتم به؟

وللهمزة الصدارة فِي الكلام، وكذلك تتقدم على حروف العطف. قَالَ تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُواْ﴾(٣)، وقوله تعالى: ﴿أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ﴾(٤).

٣- (**هل**): يطلب بها التصديق فقط، أي: معرفة وقوع النسبة أو عدم وقوعها لا غير، ولا يذكر معها المعادل، وهي نوعان: بسيطة ومركبة(٥):

أ - هل البسيطة، هي التي يستفهم بها عن شيء فِي نفسه، أو عدم

---

(١) سورة الضحى: ٦.

(٢) سورة الأعراف، من الآية: ١٢٣.

(٣) سورة الروم، من الآية: ٩.

(٤) سورة يونس، من الآية: ٥١.

(٥) ينظر: جواهر البلاغة: ١/٨٠، ٨١؛ وينظر: الإيضاح فِي علوم البلاغة: ٣/٦١؛ وينظر: علوم البلاغة: ٦٦، ٧٢؛ وينظر: البلاغة العربية: ١/٢٦١، ٢٦٢.

وجوده، والأصل فِي لفظة (هل) أن تدخل على جملة فعلية، فيليها فعل لفظاً أو تقديراً، قَالَ تعالى: ﴿هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ﴾[1].

أمّا إذا أدخلت على الجملة الاسمية فذلك لنكتة بلاغية، وهي جعل ما سيحصل كأنّه حاصل موجود فعلاً، اهتماماً بشأنه أو تأكيداً، قَالَ تعالى: ﴿فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ﴾[2].

ب- (هل) المركبة، هي التي يستفهم بها عن وجود شيء لشيء، أو عدم وجوده له. قَالَ تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾[3]، وقوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ﴾[4].

و(هل) لا تدخل على:

أ - المنفي: فلا يقال: هل لم يفهم علي؟

ب- المضارع الذي هُوَ للحال: فلا يقال: هل تحتقر عليّاً وَهُوَ شجاع؟

ج- إن: فلا يقال: هل إنّ الأمير مسافر؟

د - الشرط: فلا يقال: هل إذا زرتك تكرمني؟

هـ- حرف العطف: فلا يقال: هل فيتقدم أو هل ثم يتقدم؟

و - اسم بعده فعل: فلا يقال: هل بشراً منا واحداً نتبعه؟

بخلاف الهمزة فإنّها تدخل على جميع ما يذكر.

---

(١) سورة الشورى: ٤.

(٢) سورة الأنبياء: ٨٠.

(٣) سورة النمل: ٣٣.

(٤) سورة النازعات: ١٥.

٣- بقية أدوات الاستفهام (أسماء الاستفهام)[(١)]:

أ - (من) وتأتي اسماً من أسماء الاستفهام، ويستفهم بها تعيين العقلاء. قَالَ تعالى: ﴿مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرۡقَدِنَاۜ﴾[(٢)]، وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾[(٣)].

ب- (ما)، هي اسم من أسماء الاستفهام، بمعنى (أي شيء)، ويستفهم منها لغير العقلاء ويطلب بها أمور ثلاث[(٤)]:

١- **إيضاح الاسم**: قَالَ تعالى: ﴿قَالَ فِرۡعَوۡنُ وَمَا رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾[(٥)].

٢- **بيان حقيقة المسمى**: قال تعالى: ﴿مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمۡ لَهَا عَٰكِفُونَ﴾[(٦)]، و﴿قَالَ فِرۡعَوۡنُ وَمَا رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَآۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾[(٧)] فالمراد بالاستفهام في الآيتين بيان حقيقة المسمى وصفته التي يعرف بها وقد جاء الجواب على خلاف ما يقتضي الاستفهام في الآية الأولى وعلى خلاف ما يريد السائل ويتوقع في الآية الثانية.

---

(١) ينظر: البلاغة العربية: ١/٢٦٤، ٢٦٥؛ وينظر: البلاغة الميسرة: ٣٥٣.

(٢) سورة يس: ٥٢.

(٣) سورة آل عمران: ١٣٥.

(٤) ينظر: البلاغة العربية: ١/٢٦٣؛ ينظر: البلاغة الميسرة: ٣٥٣.

(٥) سورة الأنبياء: ٥٢.

(٦) سورة الشعراء: ٢٣.

(٧) سورة الشعراء: ٢٣-٢٤.

٣- **بيان الصفة:** قَالَ تعالى: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾[(١)].

ج- (متى) اسم استفهام، ويطلب بها عن الزمان ماضياً كَانَ أم مستقبلاً قَالَ تعالى: ﴿...مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾[(٢)].

د- (أيّان)، اسم استفهام، يطلب بها تعيين الزمان المستقبل خاصة، وتكون في موضع التهويل والتفخيم. قَالَ تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ﴾[(٣)]، قَالَ تعالى: ﴿أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾[(٤)].

ر- (كيف) اسم استفهام، يطلب بها عن الحال. قَالَ تعالى: ﴿...وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ﴾[(٥)].

ز - (أين)، اسم استفهام، يطلب بها عن المكان. قَالَ تعالى: ﴿يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ﴾[(٦)].

و- (كم)، اسم استفهام، يطلب بها عن تعيين العدد. قَالَ تعالى: ﴿سَلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ كَمْ ءَاتَيْنَٰهُم مِّنْ ءَايَةٍۭ بَيِّنَةٍ ۗ﴾[(٧)].

---

(١) سورة طه: ١٧.

(٢) سورة البقرة: ٢١٤.

(٣) سورة الأعراف: ١٨٧.

(٤) سورة القيامة: ٦.

(٥) سورة البقرة: ٢٥٩.

(٦) سورة القيامة: ١٠.

(٧) سورة البقرة: ٢١١.

هـــ- (وأنى)، اسم استفهام، بمعنى (من أين)، (كيف)، (متى)، (أين). قَالَ تعالى: ﴿أَنَّىٰ يُحۡيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۖ﴾[1]، بمعنى كيف.

قَالَ تعالى: ﴿يَٰمَرۡيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَاۖ﴾[2].

قَالَ تعالى: ﴿نِسَآؤُكُمۡ حَرۡثٞ لَّكُمۡ فَأۡتُواْ حَرۡثَكُمۡ أَنَّىٰ شِئۡتُمۡۖ﴾[3] (فأَنَّى) في الآية الكريمة تحتمل المعاني الثلاثة، أي: متى شئتم وكيف شئتم، ومن أين شئتم على أن يكون الإتيان في موضع الحرث. وهذا من جمال النسق والترتيب والإعجاز.

قَالَ تعالى: ﴿قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۖ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ﴾[4]، بمعنى أين.

ي- (أي) اسم استفهام، يطلب بها تمييز أحد المتشاركين فِي أمر يعمهما. قَالَ تعالى: ﴿أَيُّ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ خَيۡرٞ مَّقَامٗا﴾[5].

وَقَدْ تخرج ألفاظ الاستفهام عن معناها الأصلي، فيُستفهم بها عن الشيء، مع العلم به لأغراض أخرى تُفهم من سياق الكلام ودلالته، منها[6]:

١- الأمر: ﴿فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾[7].

---

(١) سورة البقرة: ٢٥٩.

(٢) سورة آل عمران: ٣٧.

(٣) سورة البقرة: ٢٢٣.

(٤) سورة المنافقون: ٤.

(٥) سورة مريم: ٧٣.

(٦) ينظر: علوم البلاغة: ٦٨؛ وينظر: البلاغة العربية: ١/٢٧٠؛ وينظر: البلاغة الميسرة: ٣٥٥.

(٧) سورة المائدة: ٩١.

٢- النهي: ﴿فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَوۡهُ﴾[1].

٣- التوبة: ﴿وَسَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾[2].

٤- النفي: ﴿هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ﴾[3] والمعنى ما جزاء الإحسان إلا الإحسان، تلك حقيقة مقررة لا يعارض فيها عاقل، لكن فرق بين الدلالة عليها بالاستفهام والدلالة عليها بطريق النفي المعهود.

٥- الإنكار: ﴿أَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَدۡعُونَ﴾[4] ومنه قوله تعالى: ﴿أَفَأَصۡفَىٰكُمۡ رَبُّكُم بِٱلۡبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًاۚ﴾[5] تجد أنَّ الاستفهام في الآية يُفيد تكذيبهم وإبطال ما قالوه واعتقدوه والمعنى: لم يكن من الله تعالى اصطفاء ولا اتخاذ.

٦- الاستئناس: ﴿وَمَا تِلۡكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾[6].

٧- التقرير: وقد يأتي الاستفهام ويراد به التقرير بمعنى طلب الإقرار أو التحقق والإثبات منه كقوله تعالى: ﴿قَالَ أَلَمۡ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا ...﴾[7] فالمراد

(١) سورة التوبة: ١٣.

(٢) سورة يس: ١٠.

(٣) سورة الرحمن: ٦٠.

(٤) سورة الأنعام: ٤٠.

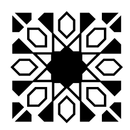
(٥) سورة الإسراء: ٤٠.

(٦) سورة طه: ١٧.

(٧) سورة الشعراء: ١٨.

بالاستفهام تذكير موسى عليه السلام بنشأته وتربيته فيهم وجملة الإقرار بذلك، أملاً من فرعون في أن يقلع ويكف عمّا جاء به من قبل الله تعالى، ولكن أنى له ذلك ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾[1].

٨- التعجب: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾[2].



(١) سورة الشرح: ١.

(٢) سورة الفرقان: ٧.

الفصل الخامس

السياق النسقي في علم البيان

المبحث الأول

سياق التشبيه

التشبيه أول طريقة تدل عليه الطبيعة لبيان المعنى، ونعني به لغةً التمثيل، والتشبيه: «عقد مماثلة بين أمرين أو أكثر، قصد اشتراكهما فِي صفة أو أكثر، بأداة، لغرض يقصد المتكلم للعلم»[1].

أو هُوَ «إلحاق أمر بأمر فِي وصف بأداة لغرض، أو هُوَ مشاركة أمر لأمر فِي معنى بأدوات معلومة»[2].

أو هُوَ «الدلالة على مشاركة شيءٍ لشيءٍ فِي معنى من المعاني أو أكثر على سبيل التطابق أو التقارب لغرض ما ولا يكون وجه الشبه فيه منتزعاً من متعدد»[3].

وَقَدْ أطلق فِي التعريفات لفظ (أمر) أو (شي) ليشمل ذَلِكَ الحسيات والمعنويات، فيمكن أن يكون المشبه والمشبه به حسيين، ويمكن أن يكونان معنويين، ويمكن أن يكونا مختلفين، فيكون أحدهما حسيّاً والآخر معنويّاً، وهذه تسمى صور التشبيه، أو طرفا التشبيه[4].

---

(١) جواهر البلاغة: ٢١٩.

(٢) البلاغة الميسرة: ١٢٧؛ وينظر: بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح: ٣/٣٨٤.

(٣) البلاغة العربية: ٢/١٦٢.

(٤) ينظر: جواهر البلاغة: ٢٢١، ٢٢٢؛ وينظر: البلاغة الميسرة: ١٢٧، ١٢٨.

❑ **أركان التشبيه** أربعة[1]:

١- المشبه: هُوَ الأمر الذي يُراد إلحاقه بغيره.

٢- المشبه به: هُوَ الأمر الذي يُلحق به غيره.

٣- وجه الشبه: هُوَ الوصف المشترك بين الطرفين، ويكون فِي المشبه به أقوى منه فِي المشبه، وَقَدْ يذكر وجه الشبه فِي الكلام، وَقَدْ يحذف.

٤- أداة التشبيه: هي اللفظ الذي يدل على التشبيه، ويربط المشبه بالمشبه به، وَقَدْ تذكر الأداة فِي التشبيه وَقَدْ تحذف.

❑ **وأدوات التشبيه** هي كل لفظ يدل على المشابهة هي[2]:

- (الكاف): قَالَ تعالى: ﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾[3].
- (كأن): قَالَ تعالى: ﴿كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾[4].
- (مثل): ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾[5].
- وما فِي معنى (مثل) كلفظة (نحو)، وما يشتق من لفظة (مثل) و(شبه) ونحوهما. قَالَ تعالى: ﴿إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا﴾[6]، أي مثل اللؤلؤ المنثور.

---

(١) ينظر: جواهر البلاغة: ٢١٩؛ وينظر: البلاغة العربية: ١٦٢/٢.

(٢) بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح: ٤١١/٣؛ وينظر: علوم البلاغة: ٢٣٢.

(٣) سورة الفيل: ٥.

(٤) سورة الرحمن: ٥٨.

(٥) سورة يونس: ٢٤.

(٦) سورة الإنسان: ١٩.

❑ **تقسيمات التشبيه:**

يقسم التشبيه باعتبار طرفيه إلى حسي وعقلي[1]:

أ - طرفاه حسيان: أي مدركان بإحدى الحواس الخمس الظاهرة. نحو: عطر هند كأريج المسك.

ب- طرفاه عقليان: قَالَ تعالى: ﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾[2].

ج- طرفاه مختلفان، بأن يكون المشبه حسي، والمشبه به عقلي، نحو العطر كالخلق الكريم، أو أن يكون المشبه عقلي، والمشبه به حسي، قَالَ تعالى: ﴿وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ﴾[3]، ونحو: رأي كفلق الصبح.

ويقسم التشبيه باعتبار الإفراد والتركيب[4]:

أ - طرفاه مفردان مطلقان: خدّه كالورد. أو مقيدان، نحو: الساعي بغير طائل كالراقي على الماء. أو مختلفان، نحو: ثغره كاللؤلؤ المنظوم.

ب- طرفان مركبان تركيباً لم يُمكن إفراد أجزائهما، بحيث يكون المركب هيئة حاصلة بين شيئين، واعتبرت شيئاً واحداً.

قَالَ الشاعر:

---

(١) ينظر: بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح: ٣٩٢/٣؛ وينظر: المنهاج الواضح للبلاغة: ٤٧/١، ٤٨.

(٢) سورة الصافات: ٦٥.

(٣) سورة النحل: ٧٧.

(٤) ينظر: البلاغة العربية: ١٨٦/٢؛ وينظر: المنهاج الواضح للبلاغة: ٤٩/١، ٥١/٥؛ وينظر: البلاغة الميسرة: ١٣٣، ١٣٤؛ وينظر: الخلاصة فِي البلاغة: ٢٢.

كأن سُـــهيلاً والنجـــوم وراءهُ   صفوف صلاةٍ قام فيها إمامها

ج- طرفاه مفرد بمركب، كقول الخنساء:

أغرُّ أبلـــج تـــأتمّ الهُـــداةُ بـــه   كأنّه علم فِـــي رأســـهِ نـــارُ

د- طرفاه مركب بمفرد، نحو الماء المالح كالسم.

ويقسم التشبيه باعتبار ذكر الأداة ووجه الشبه وعدم ذكرهما(١):

أ - التشبيه المرسل، ما ذكرت فيه الأداة: كقول الشاعر:

إنّمـــــا الـــــدنيا كبيـــــت   نـــسجه مـــن عنكبـــوت

ب- التشبيه المؤكد، ما حذفت منه الأداة، كقول الشاعر:

أنت نجم فِي رفعـــة وضـــياءٌ   تجتليك العيون شـــرقاً وغربـــاً

ج- التشبيه المجمل، ما لا يذكر فيه وجه الشبه، نحو: النحو في الكلام كالملح فِي الطعام.

د- التشبيه المفصل، هُوَ ما ذكر فيه وجه الشبه، قَالَ الشاعر:

يـــا شـــبيه البـــدر حُـــسناً   وضـــــياءً ومنـــــالا

وشـــبيه الغـــصن لينـــاً   وقوامـــاً واعتـــدالا

و- التشبيه البليغ، ما حُذفت منه الأداة ووجه الشبه مثل قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ۝١٠ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا﴾(٢) أي: كاللباس معناهُ جعلنا الليل في ستره للأشياء كاللباس، فحذف وجه الشبه وهو الستر، وحذفت أداة التشبيه وهي الكاف، فهذا يسمى بالتشبيه البليغ، وقَالَ الشاعر:

---

(١) ينظر: البلاغة العربية: ١٧٢/٢؛ وينظر: البلاغة الواضحة: ٣٣؛ وينظر: البلاغة الميسرة: ١٤٥، ١٥٠؛ وينظر: الخلاصة فِي علوم البلاغة: ٣٥، ٣٦.

(٢) سورة النبأ: ١٠-١١.

فاقضوا مآربكم عجالاً إنّما أعمارُكم سفر من الأسفار

❑ نماذج من صور سياق التشبيه النسقي:

قال تعالى: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثۡبِيتٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ كَمَثَلِ جَنَّةِۭ بِرَبۡوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٞ فَـَٔاتَتۡ أُكُلَهَا ضِعۡفَيۡنِ فَإِن لَّمۡ يُصِبۡهَا وَابِلٞ فَطَلّٞۗ﴾[1]. شبّه القرآن الكريم الصدقات التي تنفق ابتغاء مرضات الله في كثرة ثوابها ومضاعفة أجرها بجنّة فوق ربوة أصابها مطر غزير فأخصبت تربتها وتضاعف أُكُلها.

لو تأملنا هذا النظم العجيب للكلمات الإلهية لا يصلح في مكانها غيرها تعبّر عن معانيها في دقة وإحكام، وتنبعث منها لطائف وأنوار، وينطوي تحتها الكثير من العجائب والأسرار، وهذه الجمل الربانية المتناسقة والمتلاحقة والمرتبة قد فصّلت على معانيها بمقدار، وحروف ذات أصوات وأنغام تبعث في الصورة الحركة وتبث فيها الحياة. وهذا من روائع النسق القرآني؛ إذ كان لاختيار المفردة المناسبة بدقة وتوظيفها بعناية جعلها متفرّدة متميزة لا يسد غيرها مسدها فاستعمال ﴿جَنَّةِۭ بِرَبۡوَةٍ﴾ وعلاقته (بالوابل) هذا النسق الجميل وهذا السياق العجيب أعطى للمفردة القرآنية صورة تشبيهية رائعة لا نجدها في غيرها من الألفاظ، وهذا من جميل الصور التشبيهية النسقية.

ومثال آخر: قال تعالى: ﴿وَهِيَ تَجۡرِي بِهِمۡ فِي مَوۡجٖ كَٱلۡجِبَالِ﴾[2]. وفي آية أخرى تأتي بلفظ (الجبال) في قوله تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡمُنشَـَٔاتُ فِي

(١) البقرة: ٢٦٥.

(٢) هود: ٤٢.

ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴾[1].

فالملاحظ للآية في جمال التشبيه النسقي، إذ ذكر في سياق الموج ذكر الجبال لما توحيه من فخامة وجلال، وعند ذكر سياق السفن آثر لفظ الأعلام لما فيها من جمالية؛ إذ إنّ لفظ الأعلام يجمع دلالة الجبال وأعلام الزينة. والموج هو: ﴿فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ﴾ و(موج كالظلل) ومناسبة هذا الاختيار ترجع إلى طبيعة الصورة، فالأولى إشارة إلى عظم الموج وارتفاعه، والثانية للإشارة إلى الخوف والرهبة فالموج صار مظلة لهم. وهذه العناية والدقة في اختيار وترتيب الألفاظ وجمال نسقها تكشف عن غنى الصورة التشبيهية وتنوع صيغها، وفقاً لمقتضى السياق الذي جاءت فيه والغرض الذي سيقت من أجله[2].

ومن أمثلة النسق القرآني للصورة التشبيهية، هي قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾[3].

وفي تفسير مفردة (النور) آراء بلاغية مختلفة:

منها: أنّ المراد بالنور هنا هو الموجد وهو مجاز مرسل باعتبار لازم معنى النور، وهو الظهور في نفسه وإظهاره لغيره.

(١) الرحمن: ٢٤.

(٢) ينظر: من بلاغة القرآن: ١٣٦؛ والنسق القرآني دراسة أسلوبية: ٥٣٣.

(٣) سورة النور: ٣٥.

وجعله بعضهم منهم من التشبيه البليغ أو أنّ هناك استعارة تصريحية، النور هو الحق؛ إذ جاء استعارة النور له كاستعارة الظلمة للباطل كما في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ ووجه الشبه الظهور(١).

﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: تشبيه بليغ والمراد به المضمر الأداة وأحسن ما يقال فيه أنّ التشبيه جار على التقريب للذهن أي به تعالى وبقدرته أنارت به كما حصل بالضوء جميع المبصرات أو أنّه جوازاً أي: منوّر السماء والأرض(٢).

وفي لفظ النور وردت دلالات مختلفة في النسق القرآني وصوره التشبيهية وهذا يكون وفقاً لمجيئها في سياقها كما ذكر ذلك القرطبي في تفسيره للآيات.

إذ تأتي بمعنى الإيمان كما في قوله تعالى: ﴿لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [إبراهيم: ١].

وتأتي بمعنى الرسول ﷺ كما في قوله تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ﴾ [المائدة: ١٥]. وتأتي بمعنى القرآن: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

وتأتي بمعنى الهدى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [الزمر: ٢٢]. وتأتي بمعنى المثل المضروب في قوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ﴾ [الصف: ٨]. فمن أراد إطفاء نور الشمس بغيّه يجده مستحيلاً فكذلك من أراد إبطال الحق.

---

(١) ينظر: روح المعاني: ١٨/١٦٠-١٦٥.

(٢) ينظر: إعراب القرآن وبيانه: ٦/٦٠٩.

وتأتي بمعنى الضياء في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا﴾ [يونس: ٥]. وغيرها في كتاب الله كثير من دلالات ومعاني لمفردة النور غير أنّ الغزالي من بين المفسرين والدارسين انفرد بقوله: «إنّ إطلاق اسم النور على غير النور الأول مجاز محظ»[1]. والمعروف أنّ النور من أسماء الله تعالى وعلى هذا الرأي فالنور هو الحقيقة، وكل ما عداها من النور فهو صورة. وهكذا يبدوا إنّ الصورة التشبيهية (للمشكاة والزجاجة والمصباح والزيت) جاءت لتحقق أكثر من هدف جمالي وديني في آن واحد، ولا يصلح لتحقيق ذلك صورة أخرى، وهذا من روائع اختيارات وترتيب واتساق جماليات القرآن المعجز، إذ لكل لفظة مدلولاتها التي بها نظام.

فالدلالة الموضوعية للصورة هي المعرفة المؤدية للإيمان، وهي مبثوثة في ثنايا السماوات والأرض ومن فيها، لكن القلب البشري هو المقصود وهو المطلوب أن يستوعبها.

فالتنقل في أبعاد الكون يقابله الانتقال من المشكاة إلى الزجاجة، ومن الزجاجة إلى المصباح، ومن المصباح إلى الشجرة ثمّ إلى الزيت.

والزيت دلالة موضوعية على الإيمان، لأنّ نور المصباح ونور الزيت يقابلان نور العلم ونور الإيمان اللذين أشير إليهما بقوله تعالى: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾.

ويأتي الملمح النفسي في إظهار جمال الصورة النسقية للتشبيه في تعريفها إلى صفات الخالق المبدع، والذي يتم من خلال شواهد الحياة للإنسان والطبيعة ومن خلال إنتاج آلة الإبداع البشري.

---

(١) مشكاة الأنوار: ٢٥٨؛ وينظر: الآلوسي: ١٦٦/١٨؛ والنسق القرآني دراسة أسلوبية: ٥٢٩.

وكمال المبدع وعظمته، فجاء تقريب وصفها بصورة المشكاة، ويمثل هذا النسق وتلك الصورة أنّ النور الخالق يبدع النور المخلوق و﴿يَهْدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾؛ لأنّ الكون كله من أصغر ذرة، فيه إشعاعات منطلقة لا قوام لها ولا مادة لها إلاّ النور[(١)].

وقد شبّه الله نوره الذي يُلقيه في قلب المؤمن بالمصباح ووضع المصباح في مشكاة داخل زجاجة[(٢)]؛ ولأنّ نور المعرفة له آلات يتوقف هو على اجتماعها: كالذهن والفهم والعقل واليقظة وغيرها. ولكثرة نفع الزيت وخلوصه عمّا يخالطه غالباً، وقع التشبيه في نور الشم مع أنّه أتم من نور المصباح[(٣)]. والإيحاء الذي تشير إليه كلمة (زيتونة مباركة) لا يحققه أن يكون وقود المصباح شمعاً.

وجاء نسق الصورة التشبيهية المتأنق في وصف المصباح. ألا ترى أنّ هذا المصباح جدير أن يبدد ظلمة الليل ومثله جدير أن يبدد ظلام الشك ويمزق دجى الكفر والنفاق[(٤)].

ومن بلاغة الصورة التشبيهية لهذه الآية أنّ لفظة (المصباح والزجاجة) كررت، مرة نكرة وأخرى معرفة يترابط الذهن والخيال في إدراك الصورة ولا يتوهم ولا يذهب بعيداً في تفسيرها، فقد صار المصباح والزجاجة معروفين بعد التمهيد لهما بذكرهما نكرتين، ولأهمية أثرهما في الصورة تكرر ذكرهما.

---

(١) ينظر: الأساس في التفسير: ٣٧٧٢/٧؛ والنسق القرآني دراسة أسلوبية: ٥٣٠-٥٣١.

(٢) البرهان، للزركشي: ٤٨٠/٣.

(٣) إعراب القرآن وبيانه: ٦١٠/٦.

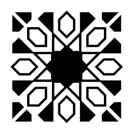
(٤) ينظر: من بلاغة القرآن: ١٩٥؛ وينظر: النسق القرآني دراسة أسلوبية: ٥٣١.

وفي الصورة ينابيع متعددة من النور، ولمثل هذا سميت السورة كلها بسورة النور، ولأنّ ما يستدعيه ذكر النور أن تذكر الظلمة والظلمات ورد في المقطع التالي: ﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ﴾، وانتهت بقوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ وهذا مثلان للكافر[1].

والمشكاة في الآية هي بيت النور، ويقابلها في أول الآية التالية قوله تعالى: ﴿ فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ ...﴾ فالمشاهد منسجمة والألفاظ متناسقة تكشف مدى التناسق الفني في الصورة التشبيهية القرآنية، وهذا من جمال وكمال إعجاز كتاب الله الترتيبي والنسقي.

هـــ- التشبيه الضمني: ما حذف منه المشبه والمشبه به فِي صورة من صور التشبيه المعروفة، بل يلمحان فِي الترتيب، قَالَ الشاعر:

لا تُنكري عطل الكريم من الغنى فالسيل حربٌ للمكان العـــالي



(١) البرهان، للزركشي: ٣/٤٨٠.

المبحث الثاني

سياق الاستعارة النسقية في القرآن الكريم

تعني الاستعارة نقل العبارة عن موضع استعمالها فِي أصل اللغة إلى غيره لغرض يريده المتكلم، وذلك الغرض إمّا أن يكون شرح المعنى وفضل الإبانة عنه، أو تأكيده والمبالغة فيه، أو الإثارة إليه بالقليل من اللفظ، أو تحسين المعرض الذي يبرز فيه استعماله الجديد(١). والاستعارة نوع من المجاز لمكان التناسب بينه وبين معنى معرض نفس المشبه به، وهي أن تذكر طرفي التشبيه وتريد به الطرف الآخر مدّعياً دخول المشبه فِي جنس المشبه به، بإثباتك للمشبه ما يخص المشبه به(٢).

إذن فالاستعارة: هي «استعمال اللفظ فِي غير ما وضع له لعلاقة المشابهة بين المعنى المنقول عنه والمعنى المستعمل فيه، مع قرينة صارفة عن إرادة المعنى الأصلي»(٣).

والاستعارة من المجاز اللغوي، وهي تشبيه حذف أحد طرفيه، فعلاقتها المشابهة دائماً، ويعد سياق الاستعارة أبلغ من تراكيب التشبيه، وأشد وقعاً فِي نفس المخاطب، لأنّها تأخذ بجامع الأفئدة، وتملك على القارئ والسامع لبّهُما وعواطفهما، وهي ليست إلاّ تشبيهاً مختصراً، لكنها أبلغ منه، ولابد فِي الاستعارة عدم ذكر وجه التشبيه، ولا أداة التشبيه، بل ولابد أيضاً من تناسي

---

(١) ينظر: الصناعتين: ٦٦٨.

(٢) ينظر: مفتاح العلوم: ٢٦٩.

(٣) ينظر: البلاغة العربية: ٢/٢٢٩؛ وينظر: البلاغة الميسرة: ١٧٥؛ الخلاصة فِي علوم البلاغة: ٢٣.

التشبيه الذي من أجله وقعت الاستعارة فقط[1].

والاستعارة هُوَ أن يستعار الشيء المحسوس لشيء المعقول، كقوله تعالى: ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾[3]، ﴿مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾[4]، فالاستعارة أوكد فِي النفس من الحقيقة، وتفعل فِي النفوس ما لا تفعله الحقيقة، وقول (فتيلا) أنفى للقليل والكثير من قوله شيئاً[5].

والحقيقة هي اللفظ المستعمل فِي معناه الأصلي، وأقسامها ثلاثة[6]:

- حقيقة لغوية، كالسيارة فِي لغة العرب هي قافلة.

- حقيقة شرعية، كالصلاة كانت فِي الشرع حقيقة وَفِي الدعاء مجاز شرعي.

- حقيقة عرفية، كالقهوة فِي العرف العام حقيقة فِي مشروب قشر البن.

فانتقل الاستعمال الحقيقي إلى الاستعمال المجازي، وَهَذَا تقريب لبيان الاستعارة التي هي نوع من المجاز اللغوي، والذي هُوَ استعمال اللفظ فِي غير معناه الأصلي.

وفضل الاستعارة وما شاكلها على الحقيقة أنّها تفعل فِي نفس السامع

---

(١) ينظر: البلاغة الميسرة: ١٧٦؛ ينظر: الخلاصة فِي علوم البلاغة: ٤٣.

(٢) سورة النساء: ٤٩.

(٣) سورة النساء: ١٢٤.

(٤) سورة فاطر: ١٣.

(٥) ينظر: البديع فِي نقد الشعر: ٤١.

(٦) ينظر: البلاغة الميسرة: ١٧٢.

ما لا تفعله الحقيقة الأصلية، قَالَ تعالى: ﴿سَنَفۡرُغُ لَكُمۡ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ﴾[1]، معناه سنقصد؛ لأنّ القصد لا يكون إلاّ مع الفراغ، فهم فِي الفراغ هاهنا معنى ليس فِي القصر، وَهُوَ التوعد والتهديد[2].

❑ **أركان الاستعارة** ثلاثة[3]:

١- مستعار منه — وَهُوَ المشبه به.

٢- ومستعار له — وَهُوَ المشبه.

٣- ومستعار — وَهُوَ اللفظ المنقول.

فكل مجاز يبنى على التشبيه (يسمى استعارة). قَالَ تعالى: ﴿وَٱشۡتَعَلَ ٱلرَّأۡسُ شَيۡبًا﴾[4] وهنا استعارة؛ لأنّ الاشتعال يوضع فِي أصل اللغة للشيب، فالمستعار منه هُوَ النار، ومستعار له هُوَ شيب الرأس، والمستعار هُوَ الاشتعال المنقول من اللفظ الحقيقي الأصلي وَهُوَ اشتعال النار إلى اللفظ المجازي المستعمل فيه وَهُوَ اشتعال شعر الرأس شيبا، فَلَمَّا نقل إليه بَانَ المعنى لما اكتسبه عن التشبيه؛ لأنّ الشيب لما كَانَ يأخذ فِي الرأس، ويسعى فيه شيئاً فشيئاً حتّى يحيله إلى غير لونه الأول، كَانَ ذَلِكَ بمنزلة النار التي تشتعل فِي الخشب حتّى تحيله إلى غير حاله الأول، وَهَذَا هُوَ نقل العبارة عن الحقيقة فِي الوضع للبيان، ولابد أن تكون أوضح من الحقيقة لأجل التشبيه العارض فيها[5]. وهذا

---

(١) سورة الرحمن: ٣١.

(٢) ينظر: الصناعتين: ٢٦٩.

(٣) ينظر: البلاغة الميسرة: ١٧٦؛ وينظر: الخلاصة فِي علوم البلاغة: ٤٣.

(٤) سورة مريم، من الآية: ٤.

(٥) ينظر: سر الفصاحة: ١١٨.

التناسب والتناسق بين الاشتعال وبين الشيب يحددهُ السياق الذي جاءت فيه الاستعارة كون الاشتعال في أصل اللغة للشيب ثم نقل هذا المعنى الحقيقي إلى المعنى المجازي الذي أعطى دلالة جديدة وجمالاً فريداً حتى أضفى دلالةً الاشتعال الحقيقي إلى المجازي وهو اشتعال الشعر في الرأس شيباً وإحالته من السود إلى البياض مثل اشتعال النار وإحالتها في النهاية إلى رماد وبياض وهذا من روائع الاستعارات القرآنية الفريدة.

❑ أقسام الاستعارة باعتبار القرينة[1]:

١- **التصريحية**: وهي ما صُرّح فيها بلفظ المشبه به. قَالَ تعالى: ﴿ **ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ** ﴾[2]، والصراط الطريق، فقد شبه الدين بالصراط بجامع التوصل إلى الهدف فِي كُلّ منهما حذف المشبه وَهُوَ الإسلام وأبقى المشبه به.

٢- **المكنية**: وهي ما حُذف فيها المشبه به ورمز له بشيء من لوازمه. قَالَ تعالى: ﴿ **وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرٗا** ﴾[3]، فقد شبه الذلّ بالطائر، وحذف المشبه به، ولكن رمز إليه بشيء من لوازمه وَهُوَ الجناح، فلم يذكر من أركان التشبيه إلاّ الذل وَهُوَ المشبه، فدلت على الاستعارة هَذَا الرمز وَهُوَ القرينة التي تبيّنت من السياق القرآني فِي الآية، وهي الإشارة على ذَلِكَ.

٣- **التخييلية**: وهي قرينة المكنية، قَالَ الشاعر:

---

(١) ينظر: التلخيص فِي علوم البلاغة: ٤٥، ٤٦؛ وينظر: البلاغة الميسرة: ١٧٨.

(٢) سورة الفاتحة: ٦.

(٣) سورة الإسراء: ٢٤.

وإذا المنية أنشبت أظفارها ألفيت كُلّ تميمة لا تنفع

«فقد شبه الشاعر المنية بالسبع بجامع الاغتيال فِي كُلٍّ، واستعمال السبع للمنية وحذفه ورمز إليه بشيء من لوازمه وَهُوَ الأظفار على طريق الاستعارة المكنية الأصلية، وقرينتها لفظة (أظفار) ثم أخذ الوهمُ فِي تصوير المنية بصورة السبع، فاخترع لها مثل صورة لأظفار، ثم أطلق على الصورة التي هي مثل صورة الأظفار لفظ الأظفار. فتكون لفظة أظفار استعارة تخييلية، لأنّ المستعار له لفظ أظفار صورة وهمية تشبه صورة الأظفار الحقيقية وقرينتها إضافتها إلى المنية، ونظراً إلى أنّ الاستعارة التخييلية قرينة المكنية فهي لازمة لها لا تفارقها، لأنّ لا استعارة بدون قرينة»[1]، وسميت استعارة تخييلية؛ لأنّ هنا المستعار لم يتحقق حسّاً وعقلاً[2].

□ أقسام الاستعارة باعتبار المستعار[3]:

١- **الاستعارة أصلية:** إذا كَانَ اللفظ الذي جَرت فيه اسماً جامداً. قَالَ تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾[4].

وسميت أصلية لعدم بنائها على تشبيه تابع لتشبيه آخر معتبر أولاً.

٢- **الاستعارة تبعية:** إذا كَانَ اللفظ الذي جرت فيه مشتقاً أو فعلاً. قَالَ تعالى: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمۡ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخۡلِ﴾[5]، وكل استعارة تبعية قرينتها

(١) البلاغة الميسرة: ١٧٨.

(٢) ينظر: التلخيص فِي علوم البلاغة: ٤٤.

(٣) ينظر: البلاغة الميسرة: ١٥٢؛ وينظر: التلخيص فِي علوم البلاغة: ٤٩.

(٤) سورة إبراهيم: ١.

(٥) سورة طه: ٧١.

مكنية، وإذا أجريت الاستعارة فِي واحدة منهما امتنع إجراؤها فِي الأخرى، وهذا ما يوحيه هذا الحرف في السياق مع الفعل أو دونه من صورة دلالية تكونت منه -مجازاً أو حقيقة- وهذا من جمال الاستعارة ونسقها البياني العجيب في استعمال الحروف للدلالة على الفعل، فالحرف (في) لا يعني ظرفاً أدخل المصلوبون فيه، ولكن لما كانت الجذوع متمكنة من المصلوبين تمكن الظرف من الظروف ساغ استعمالها فيه على سبيل الاستعارة.

❑ أقسام الاستعارة باعتبار الطرفين[1]:

١- **العنادية**: وهي التي لا يمكن اجتماع طرفيها فِي شيء واحد لتنافيهما، كاجتماع النور والظلام، والحياة والموت.

٢- **الوفاقية**: هي التي يمكن اجتماع طرفيها فِي شيء واحد لعدم التنافي. قَالَ تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ﴾[2]. أي: ضالاً فهديناه ففي هذه الآية استعارتان، الأولى: فِي قوله: (ميتاً)، شبه الضلال: بالموت، بجامع ترتب نفي الانتفاع فِي كلٍّ، واستعير الموت للضلال، واشتق من الموت بمعنى الضلال ميتاً بمعنى ضالاً. وهي عنادية؛ لأنَّه لا يمكن اجتماع الموت والضلال فِي شيء واحد. والثانية: استعارة الأحياء للهداية وهي وفاقية، لإمكان اجتماع الإحياء والهداية فِي الله تعالى.

---

(١) ينظر: البلاغة الميسرة: ١٥٣؛ وينظر: التلخيص فِي علوم البلاغة: ٥٠.

(٢) سورة الأنعام: ١٢٢.

◻ أقسام الاستعارة باعتبار الجامع[1]:

١- **عامية:** وهي القريبة المبتذلة التي لاكتها الألسن فلا تحتاج إلى بحث ويكون الجامع فيها ظاهراً، نحو: رأيت أسداً يرمي.

٢- **خاصية:** وهي الغريبة التي يكون الجامع فيها غامضاً لا يدركه إلاّ أصحاب المدارك من الخواص، نحو: قول كثير يمدح عبد العزيز بن مروان:

غَمرُ الرداء إذا تبسّم ضـــاحكاً   غلقت لضحكته رقابُ المـــال

استعار الرداء للمعروف، لأنه لا يصون ويستر عرض صاحبه كستر الرداء ما يلقي عليه وأضاف إليه الغمر، وَهُوَ قرينة على عدم إرادة معنى الثوب.

◻ أقسام الاستعارة باعتبار ما يتصل بها من الملائمات وعدم اتصالها[2]:

١- **الاستعارة المرشحة:** ما ذُكر معها ملائم المستعار منه، أي: المشبه به. قَالَ تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمۡ﴾[3] استعير الشراء للاستبدال والاختيار، ثم فرع عليها ما يلاءم المستعار منه من الربح والتجارة.

٢- **الاستعارة المجردة:** هي التي قرنت بملائم المستعار له، أي: (المشبه) نحو: اشتر بالمعروف عرضك من الأذى.

وسميت كذلك لتجريدها عن بعض المبالغة لبُعد المشبه حينئذ عن المشبه به بعض بُعد، وذلك ببعد دعوى الاتحاد الذي هُوَ مبني الاستعارة.

---

(١) ينظر: البلاغة الميسرة: ١٨٣؛ وينظر: التلخيص فِي علوم البلاغة: ٥٠.

(٢) ينظر: البلاغة الميسرة: ١٨٤؛ وينظر: التلخيص فِي علوم البلاغة: ٥٠، ٥١.

(٣) سورة البقرة: ١٦.

٣- **الاستعارة المطلقة**: هي التي لم تقترن بما يلاءم المشبه والمشبه به، قَالَ تعالى: ﴿**ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ...**﴾[(١)].

ولا يعتبر الترشيح والتجريد إلاّ بعد أن تتم الاستعارة باستيفائها قرينتها لفظية أو حالية، ولهذا لا تسمى قرينة التصريحية تجريداً، ولا قرينة المكنية ترشيحاً.

٤- **الاستعارة التمثيلية**[(٢)]: هي تركيب استعمل فِي غير ما وضع له لعلاقة المشابهة مع قرينة مانعة من إرادة معناه الأصلي وهناك من عدَّ بعض الصور الحقيقية من الاستعارة التمثيلية نحو قوله تعالى: ﴿**إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ ۝١ يَوۡمَ تَرَوۡنَهَا تَذۡهَلُ كُلُّ مُرۡضِعَةٍ عَمَّآ أَرۡضَعَتۡ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمۡلٍ حَمۡلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٞ**﴾[(٣)] وهذه من الصور الحقيقية في النسق القرآني في مشاهد القيامة والسياق يؤكد ذلك من خلال جمال التصوير والروعة في التشبيه رغم اتفاق القدماء على أنَّ التشبيه أصل والاستعارة فرع، وهذه الصورة الاستعارية والتشبيهية التي جاءت ضمن سياق ونسق مشاهد القيامة هي في ﴿**ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ**﴾ ﴿**وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ**﴾، من شدة الهول والموقف، وهذا من أبلغ الاستعارات التمثيلية، ونحو: (أنت ترقُمُ على الماءِ) وَهَذَا إذا قلته لمن يلجُّ فِي شأنٍ لا يمكن الحصول منه على غايةٍ.

---

(١) سورة البقرة: ٢٧.

(٢) ينظر: البلاغة الميسرة: ١٨٧.

(٣) سورة الحج: ١-٢.

❑ نماذج من سياق الاستعارة النسقية في القرآن الكريم:

ومنه قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾ [النحل، الآية: ١٢].

تحدّث علماء البلاغة عن سياق الاستعارة ونسقها ونجد صيغاً مجازية أهمها:

الأولى: استعارة القرية للأهل أو أنَّها مجاز، ذكرت القرية والمقصود أهلها وعلاقة المجاز المحلية، إذ أطلق المحل وأريد الحال.

الاستعارة الثانية: أذاقها الله لباس: استعارة الذوق للباس هي استعارة مكنية.

الاستعارة الثالثة: لباس الجوع والخوف: استعار اللباس للجوع والخوف، وهي استعارة مكنية(١).

وهكذا فهي استعارات ثلاث بينها من التناسب ما لا يخفى، ولا مانع من أن تجيء استعارة مبنية على استعارة، وتوجد فيها المناسبة المطلوبة.

اللباس: فيه إشارة شمول الضرر والأذى للقرية وأهلها.

الإذاقة: فيها إشارة لمبلغ الألم، والمناسبة بين الأذى والألم واضحة، ومتناسقة ومبنية عليه.

وعطف الخوف على الجوع إشارة لخطورة الابتلاء؛ لأنَّهما من أخطر المصائب والابتلاءات.

---

(١) ينظر: المثل السائر: ٢/١١٤؛ وإعراب القرآن وبيانه: ٥/٣٧٦.

ولم يقل: (فكساها الله لباس...) ولم يقل: (فأذاقها الله طعم...) وكان الجمع بين الذوق واللباس أشد إثارة للإحساس وإطلاقاً للخيال، وهي من الصور الفريدة والجميلة في حسنها وجمالها.

والجمع بين الحاستين: (الذوق واللمس) أقوى من إفراد التعبير في واحدة مهما: بأن يقول كساها لباس أو أذاقها طعم، وهو ما أشار إليه علماء البلاغة في ذكر الاستعارة المرشحة والمجردة في هذا المثال. فكان الجمع بين الحاستين في الصورة أدعى لإدراك الجمال وأوضح في بيان النسق وروعة الترتيب، وهذا السياق النسقي المرتب والمنضبط جعل هذه الاستعارات من روائع جماليات البيان القرآني.

ومن روائع الأسلوب الذي عمدته هذه الصورة الاستعارية هو تحول الخوف والجوع إلى شيء يتذوق، وهذا من أساليب التجسيم في القرآن الكريم.

وذلك حين تتداخل في التعبير استجابات الحواس يتضاعف الأثر فالجوع والخوف يتذوقان ويلبسان معاً[1].

وهذه زاوية جمالية أخرى من خلال رؤية الصورة ووضوحها. ومن خلال تراكم الحواس وتداخلها وهي عندهم تعني أن تعطي المسموعات ألواناً، والمشمومات أنغاماً، والمرئيات عطراً.

وهذه التناسقات الرائعة والألفاظ المتناسقة والعبارات المسبوكة أعطت لهذه الاستعارة بُعداً جمالياً وإعجازاً بلاغياً قلّ نظيره ولا نجده إلاّ في كتاب الله العزيز الحكيم.

---

(١) ينظر: النقد الأدبي الحديث: ٣٩٥؛ والنسق القرآني دراسة أسلوبية: ٥٤٢.

المبحث الثالث

الكناية وسياقها النسقي

الكناية لغةً: ما يتكلم به الإنسان ويريد به غيره، وهي مصدر كَنّيتُ، أو كَنوتُ بكذا عن كذا؛ إذا تركت التصريح بهِ.

واصطلاحاً: لفظ أطلق وأريد بهِ لازمُ معناه مع قرينة لا تمنع من إرادة المعنى الأصلي.

وهي على نوعين: إمّا مطلقة أو غير مطلقة.

والمطلقة: هي ما يطلب منه نفس الموصوف، وهي إمّا لمعنى واحد وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾[1] أي: عني بالمجموع المتقون، ولاستواء هذه الكناية بين المكنى والمكني عنه يتمكن المتكلم من وضع الوصف موضع العلم. كقوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠﴾ وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١١﴾ وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا۟ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾[2] وإنما يكون جوابهم الله فحسب، فوضع الآيات موضعه، والمعنى

---

(١) البقرة: ٢.

(٢) الزخرف: ٩-١٤.

لينسبنَّ خلقها إلى الذي يوصف بهذه الأوصاف، ومنه مصداق لقوم من ذهب إلى أنّ اسم الله دال على الذات الجامعة لصفات الإلهية كلها.

وغير المطلقة وتنقسم باعتبار الوسائط (اللوازم) والسياق إلى أربعة أقسام: تعريض وتلويح ورمز وإيماء.

التعريض:

هو الكلام المشار به إلى جانب، وإيهام أنّ الغرض جانب آخر، وسمي تعريضاً لما فيه من التعوج عن المطلوب، ويقال: نظر إليه بعرض وجهه: أي جانبه، ومنه المعاريض في الكلام وهي التورية بالشيء عن الشيء، وفي المثل أنّ المعاريض لمندوحة عن الكذب. ومنه قوله تعالى: ﴿وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾[1] أراد به محمداً ﷺ إعلاءً لقدره، أي: أنّه العلم الذي لا يشتبه والمتميز الذي لا يلتبس. أو ملاطفةً به كما قال الله تعالى: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ﴾ أو احترازاً عن المخاشنة: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾[2] أو إهانة وتوبيخاً ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ﴾ [التكوير،آية: ٨] وقال تعالى: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ [المائدة، آية: ١١٦][3] أو استدراجاً له هو إرخاء العنان مع الخصم ليعثر حيث يراد تبكيته وهو من مخادعات الأقوال حيث يسمع الحق على وجه لا يزيد غضب المخاطب، وقال تعالى: ﴿قُل لَّا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [سورة سبأ، آية: ٢٥] وقال

---

(١) الأنعام: ١٦٥.

(٢) البقرة: ٢٣٥.

(٣) ينظر: التبيان في البيان: ١٢٨.

تعالى: ﴿وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ [سورة سبأ، آية: ٢٤] يبعثهم على الفكر في حال أنفسهم وما هم عليه من العبث والفساد وعبادة الأصنام وحال نفسه والمؤمنين وما هم عليه من الإصلاح وعبادة الملك العلاّم ليعلموا أنّ المسلمين على أعلى العليين وهم في أسفل السافلين، وهذا من روائع النسق القرآني من خلال مجيء سياق كنايات القرآن على أعلى درجة من التوافق والترتيب سواء أكانت توافقاتها اللغوية والتركيبية والصوتية والصرفية، وهذا السياق النسقي يُضفي على الآية جوّاً فريداً ورائعاً يجعل المتأمّل فيها يعيش أجوائها ويقلّب فكره في جمالها وتناسبها.

الرمز:

هو ما يشار به إلى المطلوب من قرب مع خفاء[1]، ونعني بالقرب أن ينتقل إلى المطلوب إلى لازم واحد، وبالخفاء ضعف اللزوم، وسمي رمزاً للطف الإشارة، وقد يكون المطلوب فيه الإخفاء مراعاةً للموصوف، كما قال عليه الصلاة والسلام لعدي بن حاتم: «إنك لعريض القَفا» كناية عن البلادة، وتأتي احترازاً من بشاعة اللفظ، كما في الكناية عن الجماع بالإفضاء والغشيان واللمس، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا﴾ [سورة الأعراف، آية: ١٨٩] أو في قوله تعالى: ﴿أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ [سورة النساء، آية: ٤٣] وكلها فيها كناية رمزية حددها سياق المقام والحال وهذا النسق في ترتيب مجيء الألفاظ والاحتراز والتقيد في استخدام لفظ دون آخر من روائع القرآن الكريم إعجازاً وترتيباً ونسقاً وجمالاً؛ إذ تأتي الألفاظ في غاية الدقة احترازاً من خدش السمع وحياءً مع القارئ والمتلقّي، وهذا من الأدب الرفيع الذي

(١) ينظر: التبيان في البيان: ١٢١.

جاءت به الكثير من آيات الذكر الحكيم التي تحمل الموضوع نفسه.

ويأتي للاستهجان في الصفة: كما في قوله تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ﴾ [سورة البقرة، آية: ١٨٧] تقبيحاً لما وجد منهم قبل الإباحة وكما سمّاه إتياناً، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا سُقِطَ فِيٓ أَيْدِيهِمْ ﴾ [سورة الأعراف، آية: ١٤] تصويراً لشدة ندمهم فإنّ من شأن المتندم أن يعضّ يده(١).

التلويح: لغةً:

أن تشير على غيرك من بُعد، مع خفاء يعني بالبعد أن ينتقل الملزوم بوساطة لوازم؛ وسمي تلويحاً لبعد المطلوب.

ومنه قوله تعالى: ﴿ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ [سورة البقرة، آية: ٧] على أصول المعتزلة فإنّ الختم والتغطية مشعران بأنّ الله تعالى لم يقسرهم ولم يلجئهم إلى الإيمان، وترك القسر والإلجاء مشعر بأنّ الإلجاء والقسر مقتضى حالهم؛ لأنّ الترك إنما كان ينتقص غرض التكليف وإلا كان الحق أن يقسروا؛ لأنّه هو الطريق إلى إيمانهم وكون القصر والإلجاء مقتضى حالهم مشعر بأنّ الآيات والنذر لا تغني عنهم، والألطاف لا تجدي عليهم، وكون الآيات والألطاف لا تنفعهم مشعر بأنّ ترامي أمرهم في التصميم إلى أقصى غاياته ومدى نهاياته، والله أعلم. فهذه الاختيارات وهذا النسق العجيب في مجيء هذه الألفاظ مرتبة أضفت شرحاً للنص إعجازاً وسعةً ومدلولاً جديداً. وهذا من عجائب هذا الكتاب المعجز.

---

(١) التبيان في البيان: ١٢١.

ويتمثل هذا البعد النفسي في الخفاء والستر الذي يصطنع إسداله المنشئ على المعنى الذي يريده أساساً مع التلويح والإشارة إليه، إذ إنّ ذلك يجعل المعنى أوقع في النفس والصورة أقدر على إحداث الاستجابة المناسبة ففي الصورة الكنائية إيهام، لكنه ليس ملغزاً وإنما إيهام يحمل مفتاحه معه، إذ إنّ عناصر الصورة الكنائية التلويحية قد اختيرت ونسّقت تنسيقاً فنيّاً دقيقاً، بحيث يصح تفسيرها، ويتوافق إطلاقها مع ما أريد به لازم معناها[1].

الإيمـــاء:

هو الكلام المشار به إلى المطلوب من قريب لا مع الخفاء، يعني بعدم الخفاء قوة اللزوم وسمي إيماء، لظهور المشار إليه. وهي إمّا لتخصيص الصفة بالموصوف ومنه قوله تعالى: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ... ﴾ [آل عمران، آية: ١٤] جعل المشتهيات عين الشهوات قصداً إلى تجنّبها؛ فإنّ الشهوة مسترذلة عند الحكماء وإلى التخصيص أشار الزمخشري بأداة الحصر حيث قال: إنّ المزين لهم حبه ما هو إلاّ الشهوات لا غير[2].

ومن القبيل في قوله تعالى: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ بحسب التعريف كما مرَّ ويقرب منه العدول عن التعبير بالوصف إلى جعل الموصوف واحداً ممن اشترك فيه، كالعدول من نحو فلان عالم إلى: هو من العلماء، وإيذاناً بأنّ له مساهمة معهم في العلم، وأنّ الوصف كاللقب المشهود له كقوله تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ﴾ [سورة الشعراء، آية: ١٦٨] ومنه أيضاً قوله

(١) ينظر: بحوث منهجية في علوم البلاغة العربية: ٢١٥.

(٢) ينظر: التبيان في البيان: ١٢٤؛ والكشاف: ٣٨١/١.

تعالى: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُواْ ٱلرُّسُلَ﴾ [الفرقان، آية: ٣٧] إنَّما كذبوه وحده، لأنّ الرسالة وصف جامع فيلزم من تكذيبه تكذيبهم إن حُمِلَ اللام على الاستغراق، والمتأمل لسياق الآية يجد إنّ نسق عبارتها هو من حدد جمالية الإيماء من خلال لفظة ﴿كَذَّبُواْ ٱلرُّسُلَ﴾ والتكذيب صفة لهم، وإنما كذبوا رسولهم وهو سيدنا نوح دون غيره، ولكن هذا فعل يقوم به بقية أقوام الأنبياء من خلال تكذيب أنبيائهم وهذه الصورة الجامعة المتسقة والمرتبة هي غاية الوصف والدقة لكل ما يأتي به الأنبياء من وصف لأقوامهم وهي أيضاً تسلية وإشارة للنبي محمد ﷺ أي: يا محمد إنّ قومك سيكذبوك مثلما كذبت رسل قبلك وسيدنا نوح واحد منهم.

ومن أمثلة نفي الشيء بنفي لازمه، قال تعالى: ﴿أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعۡلَمُ ...﴾ [سورة يونس، آية: ١٨] أي: لا ثبوت له ولا علم الله متعلق به، إذا لو ثبت لتعلق العلم به لشمول علمه جميع الكائنات ومنه قوله تعالى: ﴿يَحۡسَبُهُمُ ٱلۡجَاهِلُ أَغۡنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعۡرِفُهُم بِسِيمَٰهُمۡ﴾ [سورة البقرة، آية: ٢٧٣] وصفوا بالتعفف عن السؤال بحيث لا يعلم حالهم إلاّ صاحب فراسة، ولّما أريد المبالغة والتتميم قيل: ﴿لَا يَسۡـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلۡحَافٗاۗ﴾ أي: ليس لهم سؤال فيكونوا ملّحين فإذاً لا سؤال بتّاً، أو ليس لهم سؤال في حالة الاضطرار، فانتفاؤه في غيرها بالطريق الأولى أي: لو وجد منهم سؤال لم يكن إلاّ على ذلك التقدير فأفاد أنهم يشرفون على الهلاك ولا يسألون(١).

وهذا من روائع ترتيب نسق الآية وسياقها البلاغي، إذ إنّ مجيء لفظة

---

(١) ينظر: التبيان في البيان: ١٢٦.

(بسيماهم) دلّت على سياق شكلهم أنهم أغنياء ولكنّ هذا الغنى هو غنى التعفف بعيدون كلّ البعد عن المسألة وطلبها. ثمّ هذا الترتيب والنسق بين لفظتي (يحسبهم وتعرفهم) أعطى جمالاً صوتيّاً ونسقاً موسيقيّاً لدلالة هؤلاء على عظيم فعلهم وسمو نفسيتهم، وهذه من جماليات الإيماء وروعة الكنايات. ومنه قوله تعالى: ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ [سورة غافر، آية: ١٨] والغرض نفي الشفيع، وإنما ضمّت إليه الصفة ليؤذن بأنّ انتفاء الموصوف أمر محقق لا نزاع فيه وبلغ في تحقيقه إلى أن صار كالشاهد على نفي الصفة، وعكسه ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ﴾ [سورة غافر، آية: ٥٢]؛ لأنّ الأصل ليس لهم معذرة نافعة فجعل انتفاء النفع دليلاً على انتفاء العذر، أي: إذا لم تحصل ثمرة العذر فكيف يقع ما لا ثمرة له، فينتفي النفع وبالطريق البرهاني؛ لأنّ الصفة لا تتأتى بدون موصوفها، وكذلك قوله تعالى: ﴿فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ﴾ [الأعراف، آية: ٢٠] أي: الحرج لو كان مما ينهى لنهيناه عنك، فانتهِ أنتَ عنه بترك التعرض له(١). وهذه الآيات وترتيب نسقها ومجيء سياقها يوضح جمال الكناية وروعة إيمائها وكأنَّها توضح باستجلاء ما غمض من النصوص وهذا من جمال القرآن الكريم وروعة تناسقاته سواء أكانت التعبيرية أم الصوتية أم اختياراته للألفاظ وروعة نسقها وسياقها؛ إذ كلّ لفظة في مكانها تعطي مدلولاً جديداً لها. وهذا من كمال إعجاز كتاب الله.

(١) ينظر: التبيان في البيان: ١٢٦-١٢٧.

❑ **نماذج من روائع الكنايات القرآنية وبلاغة نسقها:**

قال تعالى: ﴿مَّا ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ إِلَّا رَسُولٞ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٞۖ كَانَا يَأۡكُلَانِ ٱلطَّعَامَۗ﴾ [المائدة، آية: ٧٥].

فجمال الكناية وبلاغة روعتها وحسن نسقها جاءت في قوله تعالى: ﴿كَانَا يَأۡكُلَانِ ٱلطَّعَامَۗ﴾ وهي كناية عمّا لابدّ لأكل الطعام منه وهو قضاء الحاجة عند كلّ منهما، وفي هذا التعبير تسامٍ رائع وترفع عن التصريح، وذلك لمترلته سبحانه -جلّ شأنه- من جهة مما لا يليق بها التصريح عن المعنى، فهو -جلّ ثناؤه- كريم يكنّي، ومن جهة أخرى تكريماً للعبدين الطاهرين الصالحين. فإنّ الجو النفسي الذي يوحيه قوله تعالى: ﴿كَانَا يَأۡكُلَانِ ٱلطَّعَامَۗ﴾ في نفس المتلقي يختلف عن الجو الذي كان سيخلفه التعبير لو جاء مصرّحاً بقضاء الحاجة. فالآية الكريمة يرسم ظاهر لفظها صورة المسيح وأمه -عليهما السلام- وهما يأكلان الطعام، والطعام حاجة ضرورية لإدامة الحياة ومواصلتها، والانطباعات النفسية والذهنية السابقة عنها جميلة محببة، فدلالتها الإيحائية تكون محببة أيضاً فجاء السياق ليدلل ويؤكد على عظيم هذا الحب من خلال اختيار اللفظة ونسقها المؤدب والمهذب جمالياً، والتي ولدت في نفس المتلقي إيجاباً ملائماً، وانفعالاً رائعاً لتقبل الصورة، وهي في الوقت ذاته تشير إلى قضاء الحاجة للتلازم بينهما(١). هذا السياق أضفى للآية ولمدلولاتها غاية الجمال وكمال الإعجاز.

ومن الأمثلة الأخرى على روائع الكنايات قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ

---

(١) ينظر: بحوث منهجية في علوم البلاغة العربية: ٢١٨.

﴿تَعَالَوْا۟ يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوْا۟ رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾ [المنافقون، آية: ٥].

والآية جزء من سياق يتحدث عن المنافقين وما امتلأت به نفوسهم من الغرور والصلف والكِبر، وهذا ما وضحته وتكفّلت به هذه الكناية الرائعة بالتعبير عنه، وهو موضوع الشاهد في الآية الكريمة فقوله تعالى: ﴿لَوَّوْا۟ رُءُوسَهُمْ﴾ فيه إشارة وإيماء إلى موقفهم الرافض لما عرض عليهم من استغفار الرسول ﷺ، ذلك لأنّ الصفة التي تلزم من ليّ الرأس في الرفض والإعراض، لأنّ الرافض للشيء والمعرض عنه يعمل ذلك عادة. فليّ الرأس في مثل موقف المنافقين ذاك من طلب رسول الله ﷺ كناية عن الرفض والإعراض.

فالمعنى الصريح هنا (وإذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله رفضوا وأعرضوا) وهذا أمر معنوي تدخلت فيه الكناية فجسمته وأظهرته للعيان في صورة الاستغفار لهم فيلوون رؤوسهم رافضين معرضين، ولنا أن نتصور تلك الحركة التي قاموا بها حين جاءهم هذا العرض الكريم. ففي هذه الحركة كشف عن الاستخفاف بما عرض عليهم، وزراية به، وتقليل من قيمته.

ومن الأمثلة الأخرى قوله تعالى: ﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ﴾ [القلم: ١٦] أي: لصق به عاراً لا يفارقه كما أنّ السمة لا تنمحي ولا تزول، والخرطوم أنف الفيل فسمى أنفه خرطوماً استقباحاً له(١).

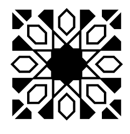
وجاء التعبير القرآني معبّراً بذلك كناية عن غاية الإذلال فأعطى للصورة حجماً أكبر لهدف في اقتضاه السياق القرآني، فهذا الأنف رمز العزة الشامخ

---

(١) ينظر: المفردات في غريب القرآن: مادة (خرط).

أنفةً وكبرياء، طال فتدلى وصار رمزاً للذلة والمهانة وتشوهت صورة ذلك المتكبر فبدل من أن يكون له أنف شامخ صار له خرطوم طويل يلصق بالأرض وحينئذٍ سيضحك عليه الناس ساخرين هازئين وسيكون هذا الخرطوم ساحة لصورة تعبيرية أخرى عن العذاب وسماً وحرقاً يوم القيامة وناسب ضخامة العضو فيها ضخامة العذاب نفسياً وجسدياً، ولاشك في إنّ هذه المبالغة العظيمة في مذمة الوليد بن المغيرة بقيت على وجه الدهر[1]. وإنما ذكر هذا اللفظ على سبيل الاستخفاف به؛ لأنّ التعبير عن أعضاء الناس بالأسماء الموضوعة، لأشباه تلك الأعضاء من الحيوانات يكون استخفافاً، كما يعبّر عن شفاه الناس بالمشافر، وعن أيديهم وأرجلهم بالأظلاف والحوافر[2].

والمتفحص لهذه الكنايات يجد إنّ السياق القرآني هو من أعطى زخماً قوياً لفهم العبارة، ودقة وجمالية لزيادة معناها ومن خلال هذا السياق واختيار العبارة والمفردة جاءت ألفاظ هذه الكنايات في غاية الترتيب والنسق من حيث روعة الاستعمال ودقة اختيار المفردات. وهذه الكنايات وغيرها كثير مما تدلل على إعجاز كتاب الله وروعة جماله ودقة بيانه وجمال نسقه العجيب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه.



(١) ينظر: التعبير الفني في القرآن: ٢٦٤.

(٢) ينظر: تفسير الرازي: ٦٠٦/٣٠؛ والتصوير البياني في المشاهد الكونية دراسة في الأنماط والوظائف: ٢٩٦.

الفصل السادس

علم البديع وسياقاته النسقية

مدخل إلى علم البديع وتعاريفه

إنّ دراسة علم البديع لا تتعدى تزيين الألفاظ أو المعاني بألوان بديعة من الجمال اللفظي أو المعنوي، ويسمى العلم الجامع لهذه المباحث بعلم البديع.

والبديع لغةً: الجديد المخترع، الموجد على غير مثال سابق، ولا احتذاء متقدم، تقول بدع الشيء وأبدعه، فهو مبدع، وفي التنزيل: ﴿قُلۡ مَا كُنتُ بِدۡعٗا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف، الآية: ٩][١].

البديع اصطلاحاً: علم يعرف به وجوه تحسين الكلام بعد رعاية المطابقة ووضوح الدلالة.

أو هو على يعرف به الوجوه والمزايا التي تزيد الكلام حُسناً وطلاوة وتكسوه بهاءً ورونقاً بعد مطابقته لمقتضى الحال ووضوح دلالته على المراد[٢].

❑ **أقسام البديع:**

ووجوه التحسين في البديع ضربان:

١- ضرب يرجع إلى المعنى وهو ما يعرف بالمحسنات المعنوية، وهي التي يكون التحسين بها راجعاً إلى المعنى أولاً بالذات وإن كان بعضها قد يفيد تحسين اللفظ أيضاً.

٢- ضرب يرجع إلى اللفظ وهو ما يعرف بالمحسنات اللفظية وهي التي يكون التحسين بها راجعاً إلى اللفظ أصالة وإن حسنت المعنى أحياناً تبعاً.

---

(١) ينظر: معجم العين: ٢/٥٥؛ ومعجم مقاييس اللغة: ١/٢٠٩.

(٢) ينظر: الإيضاح في علوم البلاغة: ٢/١٣٧.

المبحث الأول

المُحسِّنات البديعية المعنوية

❑ المحسنات البديعية المعنوية:

كثيرة، وليس من غرضنا هنا التوسع في دراستها على حد الإلمام بها جميعها، وإنما الغرض هو التركيز على ما اشتهر أمره، وله علاقة بموضوع سياق نسقها وجمالها التعبيري في النص الحكيم.

❑ المطابقة:

ويقال لها أيضاً: التطبيق، والطباق، والتضاد.

والمطابقة لغةً: هي الجمع بين الشيئين، وهو الجمع بين معنيين متقابلين، واشتقاقه من المطابقة، أي: المساواة بين شيئين، والله تعالى سمّى السماوات بالطباق؛ لأنّ كلّ واحدة على طبق الأخرى.

وفي **الاصطلاح**: هو الجمع بين معنيين متقابلين، كقول الله تعالى: ﴿ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ ﴾ [الكهف، آية: ١٨] والتيقظ هو خلاف النوم. والرقاد: ضد التيقظ هو خلاف النوم. والرقاد: ضد التيقظ، فقابل بين المعنيين.

فالجملة الأولى: تحسبهم أيقاظاً. والجملة الثانية: وهم رقود.

فمقابلة الضد بضده في مثل هذا النوع تسمى بالمطابقة، طباق.

وجه المناسبة بين المعنى اللغوي والمعنى الاصطلاحي:

إذا كان المعنى اللغوي للطباق هو الموافقة، والمعنى الاصطلاحي له الجمع بين الضدين في كلام فهل هناك وجه مناسبة بين المعنيين؟.. يرى بعض البلاغيين أنّه لا مناسبة بين المعنيين، ويرى آخرون -وهو الأرجح- أنّ هناك مناسبة تجمع بينهما.

ومغزى الجمع بين الأمور المتضادة ما من ريب أنّه يكسو الكلام جمالاً ويزيده بهاءً ورونقاً، فالضد -كما قالوا- يظهر حُسنه الضد، فلابد من أن يكون هناك نسقاً وترتيباً من خلال هذا التضاد وإلا كان هذا الكلام عبثاً وضرباً من الهذيان.

قال تعالى: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ ۖ وَتُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ ۖ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [آل عمران، آية: ٢٦-٢٧] نجده قد جمع بين أفعال مضادة هي في غاية النسق والترتيب (تؤتي- وتنزع) و(تعز- وتذل) وبين السماء مضادة هي غاية في النسق والترتيب (الليل- النهار) و(الحي- الميت) وهذا الجمع يبرز قدرة الخالق وهيمنته وسلطانه القاهر، فهو الذي يستطيع إذلال من يشاء، وإعزاز من يشاء، متى أراد وكيف شاء دون اعتبار لمقاييس البشر(١).

ثمّ نلاحظ التدرج في القدرة والغلبة والقهر والهيمنة، فقد جاءت الآية الثانية بأمور متضادة، ينفرد بها المهيمن عز وجل، وهي إيلاج الليل في النهار، وإيلاج النهار في الليل، وإخراج الحي من الميت وإخراج الميت من الحي، فمن ذا الذي يدعي قدرة على ذلك ؟ إنها أمور ينفرد بها القادر ﷻ. ويتضح لنا ذلك أنّ الطباق ليس قاصراً على الزينة والزخرف وليس الهدف منه مجرد التذوق الشكلي، بل يتجاوز ذلك إلى أهدافاً أسمى وغايات لا تتناهى... هذا

---

(١) ينظر: علم البديع: ١١٤.

النسق الذي ذكرت فيه الآيات حددت السياق الذي جاءت به تلك الألفاظ في استعمال مهيب ومركز للفظة ودقة متناهية في العبارة من خلال معانيها وأصواتها مع تضادها أضفت عنصراً جمالياً ودقة عالية في روعة النسق وجمال الترتيب وحسن الأداء وهذا من كمال إعجاز كتاب الله ﷻ وصور الطباق تأتي في الكلام على أربعة صور وهي:

١- **أن يكون بين اسمين**[(١)]، كما في قوله تعالى: ﴿ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ ﴾ [الكهف، آية: ١٨] وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ ﴾ [فاطر، آية: ١٩-٢٢]. فهذا التناسق العجيب بين الأسماء لهذا الطباق جعل ترتيب العبارة رغم تضادها ولكنها منسجمة أداءً وصوتاً فهذه الأسماء أيقاظاً تساوي رقوداً في ضدها ومعناها ولكن مرتبة متناسقة في صوتها ومعناها وحروفها ودلالاتها وسياقاتها على الرغم من الاختلاف الجذري في المعاني وكذا الأول والآخر والظاهر والباطن والظل والحرور والأحياء والأموات هذه الأسماء المتضادة متناسقة المباني مختلفة المعاني مرتبة عبارة وصوتاً وهذا من كمال إعجاز كتاب الله.

٢- **أن يكون بين فعلين**، كما في قوله تعالى: ﴿ وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴾ [النجم، آية: ٤٣-٤٤] وكقوله تعالى: ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن

(١) ينظر: علم البديع: ١١٤؛ والبلاغة الميسرة: ٦١٦؛ وبحوث منهجية في علوم البلاغة: ٣٤٨.

﴿تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ﴾ [آل عمران، الآية: ٢٦] فالطباق في هذه الآيات وقع بين فعلين (أضحك وأبكى) و(أمات وأحيى) و(توتي وتنزع) و(تُعِزُّ وتُذلُّ) وهذا الطباق بين هذه الأفعال جاءت متناسقة ومرتبة من حيث الدلالات والسياقات والناظر إلى تضاد معانيها، ولكن تطابق جمال أدائها وترتيبها، وهذا من بلاغة نظم القرآن الفريد.

٣- **أن يكون بين حرفين،** كما في قوله تعالى: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة، آية: ٢٢٨] وقول الله ﷻ في موضع آخر: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة، آية: ٢٨٦] وكقوله تعالى: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ، آية: ٢٤] فالطباق في هذه الشواهد بين (على) و(اللام) في آية سورة البقرة وبين (على) و(في) في آية سبأ، لأنّ في (على) معنى المضرة وفي اللام معنى المنفعة وكذا في (في) معنى الاشتغال وفي (على) معنى الارتفاع، ومعلوم أنّ الحروف لا يظهر بها معنى إلاّ مع غيرها فللحروف معانٍ متعددة قد تضاد وقد تتداخل وقد تلتقي والمرجع في ذلك هو الاستعمال، لأنّ الحروف لا تستقل بنفسها ولا تظهر معانيها إلاّ بالاستعمال[1].

وهكذا نجد إنّ هذه الحروف قد طابقت معانيها وسياق مجيئها أكسبها هيبة ودلالة ومعانٍ جديدة، وهذه المعاني الجديدة والفريدة التي تشكّلت من خلال سياق نسقها وجمال معانيها وروعة أدائها، هي مظهر من مظاهر بلاغة وإعجاز كتاب الله ﷻ.

---

(١) ينظر: علم البديع: ١١٦؛ وينظر: بحوث منهجية: ٣٤٧.

٤- **أن يكون بين اسم وفعل،** كما في قوله تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ﴾ [الأنعام، آية: ١٢٢] وقوله ﷻ: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [البقرة، آية: ٢٦٠]. فالطباق في هذه الشواهد بين (ميتاً وأحييناهُ) و(تحيي الموتى). وهذا الطباق كما يكون بألفاظ استعملت في معانيها الحقيقية، يكون كذلك بألفاظ استعملت في معانٍ مجازية، وعندئذٍ يكون الطباق في كلا المعنيين، الحقيقي غير المراد.. والمجازي المراد (أو من كان ميتاً فأحييناه) أي: ضالاًّ فهديناه، فالمعنيان الحقيقيان وهما (الموت والحياة) متضادان والمعنيان المجازيان وهما الضلال والهدى، متضادان أيضاً.

❑ المقابلة:

وقد اختلف البلاغيون في المقابلة فبعضهم جعلها فنّاً مستقلاًّ وبعضهم جعلها من الطباق؛ لأنّها عبارة عن طباق متعدد، فالطباق إذا جاوز ضدين صار مقابلة، وهذا هو الراجح.

فالمقابلة: أن يؤتى بمعنيين متوافقين أو بمعانٍ متوافقة ثمّ بما يقابلها على الترتيب.. والمراد بالتوافق خلاف التقابل فلا يشترط فيها التناسب كما في -مراعاة النظير- بل المراد ألاّ تكون تلك المعاني متضادة، وهذا هو المقصود بالتوافق.

وتبدأ المقابلة بطباقين أو بطباق وملحق ثمّ تتصاعد إلى أنّ تبلغ إلى مقابلة ستة معانٍ بستة معانٍ أخرى، ومن الأمثلة على ذلك قوله تعالى: ﴿فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلًا وَلْيَبْكُواْ كَثِيرًا جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ [التوبة، آية: ٨٢] فقابل الضحك والقلة بالبكاء والكثرة على الترتيب، بأن قوبل الأول من الطرف الثاني وهو

البكاء، بالأول من الطرف الأول، وهو الضحك، والثاني من الطرف الثاني وهو الكثرة، بالثاني من الطرف الأول وهو القلة، وهذا التناسق من حيث العبارات والدلالات والمفردات والحروف والكلمات في غاية الترتيب والنسق، وهذا التقسيم الفريد في دلالة سياق العبارات أعطاها لوناً موسيقياً ومعنىً فريداً في غاية الحسن والبيان وهذا من الإعجاز الصوتي والبلاغي لسياق الآيات.

❑ مراعاة النظير:

النظير فعيل، مشتقة من النظر، أي: الشيء الذي ينظر إلى آخر ويقابله، فهذا نظير لهذا، أي: ينظر إليه، وهو مشعر بالتساوي، والتناظر التساوي، مثلاً تناظروا في الصف، أي: تساووا فيه، وقاموا على وتيرة واحدة.

وعرّفه البلاغيون: أنّه الجمع بين أمرين متناسبين أو أمور متناسبة بغير التضاد. فهو عكس الطباق. وفي مراعاة النظير قوامه الجمع بين الأمور المتناسبة، ولذا يسمى أيضاً بالتناسب والائتلاف والتوفيق والتلفيق والمؤاخاة بين المعاني.

ومن شواهده في القرآن العظيم: ﴿ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ﴾ [الرحمن، آية: ٥] حيث جمع بين الشمس والقمر وهما متناسبان وكذلك: ﴿يَخۡرُجُ مِنۡهُمَا ٱللُّؤۡلُؤُ وَٱلۡمَرۡجَانُ﴾ [الرحمن، آية: ٢٢] و﴿كَأَنَّهُنَّ ٱلۡيَاقُوتُ وَٱلۡمَرۡجَانُ﴾ [الرحمن، الآية: ٥٨] فاللؤلؤ والمرجان والياقوت أمور متناسبة لكونها معادن نفيسة مقترنة في الأذهان(١). هذه الألفاظ متناسبة متناسقة أضفت للآية وللقارئ بعداً جمالياً

---

(١) ينظر: البلاغة الميسرة: ٦١٩؛ وعلم البديع: ١٣٠؛ وبحوث منهجية: ٣٦٨.

ونسقاً فريداً من حيث تشابهها وقرب معناها وجمال صوتها ونفيس معدنها كلّ ذلك حدده سياق الحال وسياق مجيئها متلاحمة متناغمة مرتبة كلّ لفظة تقابل الأخرى عدداً ودلالة ومعنىً وجمالاً، وهذا من روائع النسق القرآني.

وهناك من يلحق بمراعاة النظير بعض الموضوعات منها:

❑ إيهام التناسب:

وهو أن يكون اللفظ له معنيان أحدهما مراد والآخر غير مراد ويكون المعنى غير المراد هو الذي يتناسب مع الأمور التي ذكرت معه، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ ﴿٥﴾ وَٱلنَّجۡمُ وَٱلشَّجَرُ يَسۡجُدَانِ﴾ [الرحمن، آية: ٥-٦] فالنجم له معنيان **أحدهما:** غير مراد في الآية الكريمة وهو الكوكب الذي يتلاءم مع الشمس والقمر، **والثاني:** مراد وهو النبات الذي لا ساق له، وهو بهذا المعنى المراد يتناسب مع الشجر المذكور بعده، فالنجم بمعنى النبات لا يتناسب مع الشمس والقمر، ولكنه يتناسب معهما إذا كان بمعنى الكوكب، وهذا المعنى غير مراد في الآية الكريمة. وخلاصة القول: إنّ بين النجم في الآية وبين الشمس والقمر إيهام التناسب، أما النجم والشجر فبينهما مراعاة للنظير(١).

❑ تشابه الأطراف:

ومن مراعاة النظير ما يسميه بعض البلاغيين بتشابه الأطراف، وهو أن يختم الكلام بما يتناسب مع أوله في المعنى. كقوله تعالى: ﴿لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ﴾ [الأنعام، آية: ١٠٣] فقد

---

(١) ينظر: علم البديع: ١٣٢؛ والبلاغة الميسرة: ٦١٩؛ وبحوث منهجية: ٣٦٨.

ختمت الآية بما يناسب أولها؛ إذ (اللطيف) يلائم ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ (والخبير) يلاءم ﴿وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾؛ لأنّه من يدرك الشيء يكون خبيراً به، ومنه قوله تعالى: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾ قُلْ إِن تُخْفُوا۟ مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران، آية: ٢٨-٢٩] فإنّ النظرة العُجلى في الآية الثانية توهم أن تكون الفاصلة. (وهو بكل شيء عليم) ولكن بإمعان النظر وإطالة التأمل في سياق النظم الكريم يتضح أنّ المناسب هو ختم الآية بالقدرة، فاتخاذ المؤمنين الكافرين أولياء من دون المؤمنين لا يكون إلاّ بزعم المتخذ أنّ الكافر يملك ويقدر على ما لا يقدر عليه المؤمن من النفع، لذا حذر الله من يفعل ذلك من المؤمنين وبين لهم أنّ إليه مصيرهم، وأنّه عليم بهم وبما يخفون ويبدون بل هو عليم بما في السماوات وما في الأرض، وهو وحده القادر على تحقيق النفع لهم، فينبغي على المؤمن أن يلجأ إلى قدرة الله تعالى وإن يستظل بها، وألا يوالي أعداءه الكافرين، إذ لا قدرة على نصره، وإنما القادر هو الله.. وبهذا يتضح أنّ ختام الآية بالقدرة ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ هو المناسب لسياق النظم الكريم(١). فهذه المناسبة تحتاج إلى تأمّل وإطالة نظر، ولكن من خلال السياق التي وردت فيه ومن خلال تتابع الأحداث ومناسبة الأحداث وضحت الآية ومدادها، وهذا الترتيب في النظم جعل السياق يكشف المراد من المناسبة،

(١) ينظر: علم البديع: ١٣٤.

وهذه المناسبة وغيرها هي من كمال نسق وبلاغة هذا الكتاب العظيم.

❑ الإرصاد:

ويسمى أيضاً باسم: التسهيم، والتوشيح والتبيين والتوأم، وقد عرَّفه البلاغيون: أن يجعل قبل العجز من الفقرة أو البيت ما يدل على العجز إذا عرف الروي[1]. فهو قريب من مراعاة النظير الذي سبق بيانه، لأنّه لا يدل على العجز إلاّ ما كان بينه وبين العجز مناسبة، وكان شديد الصلة به، بل كثيراً ما يكون الدال على العجز هو نفس لفظ العجز. ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ [العنكبوت، آية:٤٠] وقوله ﷻ: ﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخۡتَلَفُواْۚ وَلَوۡلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡ فِيمَا فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ﴾ [يونس، آية: ١٩] فالإرصاد في الآيتين: (ليظلمهم) وقوله: (فاختلفوا) لأنَّهما دلاّ على أنّ مادة العجز من مادة (الظلم) و(الاختلاف) فعندما نقف على الفاصلة وهي النون من سياق الآيات الكريمة نعرف أن العجز (يظلمون) و(يختلفون).

وتكمن بلاغة الإرصاد في دلالته على آخر الكلام قبل الوصول إليه، فالكلام الجيد ما دلّت موارده على مصادره وكشف أوله عن آخره، حتى قال الخبراء بفن القول: البلاغة أن يكون أول كلامك دالاًّ على آخره، وآخره مرتبطاً بأوله.

---

(١) ينظر: بديع القرآن: ١٢٨؛ وتحرير التحبير: ٢٢٨؛ وعلم البديع: ١٣٧؛ والبلاغة الميسرة: ٦٢١.

فالسياق هو من أوصل المعنى البعيد إلى القريب وهذا النسق والترتيب هو من وضح بلاغة الأرصاد وأوجد المناسبة، وهذا يرجع كله للترتيب والنسق، وهذا من جمال الإعجاز وقوة البيان.

❑ الاستخدام:

وهو أن يذكر لفظ له معنيان، فيراد أحد المعنيين باللفظ ويعود عليه ضمير بالمعنى الآخر. أو يعود عليه ضميران كلّ واحد منهما بمعنى، ومنه قوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ﴾ [البقرة، آية: ١٨٥] فالمراد بالشهر في قوله تعالى: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ﴾ (الهلال)، والمراد بالضمير في قوله: (فليصمه) الزمن المعلوم، أي: مدة الشهر فلفظ (الشهر) قد ذكر بمعنى وعاد إليه ضميره بمعنى آخر، هذا على اعتبار أن (شهد) بمعنى: رأى وأبصر.

هذا مما حدده سياق الضمير في الآية، وأما ترتيبها ونسقها فهو من خلال ترتيب الرؤية المترتبة على الصيام. وأما أن يتوسط اللفظ كلاماً يفيد أوله أحد معنييه ويفيد آخره المعنى الآخر كما في قوله تعالى: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾ يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الرعد، آية: ٣٨-٣٩] فلفظ (كتاب) يحتمل أن يراد به الأجل المحتوم وأفاد آخره أنّ المراد به: الكتاب المكتوب.

وتكمن بلاغة هذا الفن فيما يحققه من الإيجاز، وهذا الأسلوب يوضح للقارئ بلاغة اللفظ وذلك في مجال التوسع بالمعاني؛ إذا لكل لفظة أكثر من معنًى يناسبها ويحددها نسقها وسياقها في الآية، وهذا من سعة هذا الكتاب، وجمال تأويلاته.

❑ **المشاكلة:**

المشاكلة في اللغة: المشابهة والموافقة، يقال شاكله أي: شابهه، **وفي اصطلاح أهل البلاغة:** ذكر المعنى بلفظ غيره أو بلفظ مضاد للفظ الغير أو مناسب له لوقوعه في صحبته تحقيقاً أو تقديراً. فمن أمثلة ذكر المعنى بلفظ غيره قوله تعالى: ﴿ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ ﴾ [الشورى، آية: ٤٠] فالسيئة الثانية المراد بها: المجازاة أو العقاب، وقد ذكر هذا المعنى المجازاة أو العقاب بلفظ السيئة لوقوعه في صحبة السيئة الأولى، وفي هذا الأسلوب ما يدعو إلى التنفير من السيئات؛ لأنّ الجزاء عليها سيكون شديداً ورادعاً سيكون سيئات مثلها لا جزاءً ولا عقاباً[1].

ومنه قوله تعالى: ﴿ وَإِذۡ يَمۡكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثۡبِتُوكَ أَوۡ يَقۡتُلُوكَ أَوۡ يُخۡرِجُوكَۚ وَيَمۡكُرُونَ وَيَمۡكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ ﴾ [الأنفال، آية: ٣٠] فقد سمى جزاء الله وعقابه لهم (مكراً) ليشاكل به مكر الكفار زيادة في ترويعهم ومبالغة في تعنيفهم وإيحاء بأن الله جزاءهم سيكون شديداً أليماً. وهذا مما حدده سياق النظم الذي جاءت به الآية والمكر زيادة في توضيح المعنى، وهذا النسق للآية جاء موافقاً لعقاب الله وجزاؤه عليهم، ولكن دلالة الألفاظ أعطت بعداً جماليّاً آخر لهذه المشاكلة، وهو جزاء مكرهم وعاقبة فعلهم يقابله ويشاكله نفس اللفظ ولكن بدلالة جديدة وهي (مكر الله) جزاء مكرهم.

ومنها أيضاً قوله تعالى: ﴿ صِبۡغَةَ ٱللَّهِۖ وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبۡغَةٗۖ وَنَحۡنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ﴾ [البقرة، آية: ١٣٨] فقوله: ﴿ صِبۡغَةَ ٱللَّهِۖ ﴾ مصدر مؤكد لمضمون

---

(١) ينظر: علم البديع: ١٥٩؛ والبلاغة الاصطلاحية: ٣٦٥؛ وبحوث منهجية: ٣٧٠.

قوله: (آمنا بالله) والمعنى طهرنا الله بالإيمان تطهيراً، إذ الإيمان مطهر لنفوس المؤمنين.. والأصل فيه أنّ النصارى كانوا يغمسون أولادهم في ماء أصفر يسمونه ماء المعمودية ويزعمون أن الولد يصير بذلك نصرانياً حقاً، فأمر الله المؤمنين أن يقولوا: صبغنا الله بالإيمان صبغته ولم نصبغ صبغتكم. فقد ذكر (التطهير) بلفظ الصبغة لوقوعه في صحبة صبغة النصارى تقديراً لا تحقيقاً؛ لأنّ الصبغ ليس مذكوراً في كلام النصارى بل فهم من السياق والأحوال؛ إذ الآية منزلة في سبب ذلك الفعل، وهو غمس أولادهم في ماء المعمودية.

❑ اللف والنشر:

هو ذكر متعدد على جهة التفصيل، أو الإجمال ثمّ ذكر ما لكل من آحاده من غير تعيين؛ ثقة بأنّ السامع يرد إلى كلّ ما يليق به. ومنه قوله تعالى: ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [القصص، آية: ٧٣] فقد ذكر متعدد وهو (الليل والنهار) على جهة التفصيل حيث عطف النهار على الليل بواو العطف، وهذا يسمى (لفاً) ويسميه بعض البلاغيين (طياً) ثمّ ذلك بعد هذا الطي أو اللفظ: (النشر) وهو ﴿لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾ وذكره كما ترى بدون تعيين ثقة بأنَّ السامع يدرك ما لكل ويرده إليه، فهو يدرك أنّ السكن لليل، وأنّ ابتغاء الفضل يكون نهاراً فإذا عيّن النشر وحدد كان من التقسيم الآتي بيانه لا من اللف والنشر(١).

أنواعه: يتضح من التعريف أنّ اللف والنشر نوعان:

الأول: أن يكون المتعدد مذكوراً على جهة التفصيل وهذا النوع ضربان.

---

(١) ينظر: بحوث منهجية: ٣٧٦؛ وعلم البديع: ١٧٥؛ والبلاغة الميسرة: ٦٢٦.

الضرب الأول: أن يكون النشر على ترتيب اللف، قال تعالى: ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [القصص، آية: ٧٣] فقد جمع بين الليل والنهار بواو العطف، ثمّ أضيف إلى كلّ ما يليق به، فأضيف السكون إلى الليل؛ لأنّ فيه النوم والراحة، وابتغاء الرزق إلى النهار لما فيه من الكد والعمل.

هذا النسق المرتب والترتيب في العبارات؛ إذ رتب بين لفظتي الليل والنهار وهذا من جمال النسق وجيء السياق بإضافة السكون الذي هو دلالة على الليل ومجيء الراحة والسكن وهذه الألفاظ من بديع النظم.

الضرب الثاني: من اللف والنشر المفصل: هو ما يجيء على غير ترتيب اللف، ومن هذا الضرب ما يكون معكوس الترتيب. كما قال تعالى: ﴿**وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ...**﴾ [آل عمران، آية: ١٤٧] فقد جمعوا في دعائهم بين أمري الدنيا والآخرة وقدموا ما للآخرة: ﴿**رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا**﴾ وأخروا ما للدنيا ﴿**وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا**﴾ وهذا متعدد لم جاء النشر على غير ترتيب اللف حيث قدم ثواب الدنيا على ثواب الآخرة، ولعل السر في ذلك يرجع إلى أنّ المقام مقام جهاد وقتال والنفوس في هذا المقام متطلعة للنصر. وقد خصّ ثواب الآخرة بالحسن دون ثواب الدنيا إيذاناً بأنّه المعتد به عند الله عزّ وجلّ(١).

---

(١) ينظر: علم البديع: ١٧٦؛ والبرهان، للزركشي: ٢١٥/٣؛ وأنوار الربيع: ٢٩٨/١.

الثاني: أن يكون المتعدد مذكوراً على جهة الإجمال: كما في قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَن يَدۡخُلَ ٱلۡجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰۗ تِلۡكَ أَمَانِيُّهُمۡۗ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ [البقرة، آية: ١١١] فالضمير في (قالوا) يرجع لأهل الكتاب من اليهود والنصارى والمعنى: وقالت اليهود: لن يدخل الجنة إلاّ من كان هوداً، وقالت النصارى: لن يدخل الجنة إلاّ من كان نصارى، فلفّ القولين وجمعهما في الضمير (قالوا): على جهة الإجمال ثمّ ذكر النشر ﴿هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰۗ﴾ من دون تعيين ثقة بأنّ السامع يرد إلى كلّ قوله لما علم من التعادي بين الفريقين وتضليل كلّ واحد منهما لصاحبه، وهذا النوع من اللف والنشر لا يقتضي ترتيباً أو عدم ترتيب، لأنّ اللف مجمل لا يعلم ترتيبه حتى ننظر في ترتيب النشر في ضوئه.

وهذا من جمال النسق القرآني في هذه الآية؛ إذ رتبت الألفاظ ومجيئها ترتيباً رائعاً ودلَّت عليه من خلال نسقها (اليهود والنصارى) وهذا الترتيب الزمني والتاريخي جعل من اللف مجمل حتى جاء النشر مرتباً أضفى سياقاً جمالياً وروعة بيانية للنص المقدس.

وتأتي بلاغة هذا اللف والنشر في إنّ ذكر اللف مطويّاً فيه حكمه أو ما يتعلق به، أو يهيئ النفوس ويعدها لكي تتلقى ما يذكر بعد من النشر العائد إلى اللف فإذا ما ذكر النشر بعدئذٍ وقع في النفوس موقعه، وتمت الفائدة أحسن تمام وتحقق الغرض أبلغ تحقيق، لأنّ النشر جاء والنفوس إليه متطلعة وله مترقبة. هذا من بلاغة وجمال ونسق وروعة اللف والنشر، وهو جزء من إعجاز بلاغة القرآن الكريم.

المبحث الثاني

المحسنات اللفظية

مدخل إلى المحسنات اللفظية

من العلماء من يسمي هذا الفن البديعي تجنيساً، ومن يسميه مجانساً، ومن يسميه جناساً، أسماء مختلفة والمسمى واحد، وسبب هذا التسمية راجع إلى أنّ حروف ألفاظه يكون تركيبه من جنس واحد(١).

والجناس لغةً: هو مصدر جانس الشيءُ الشيءَ: شاكله واتحد معه في الجنس.

واصطلاحاً: تتشابه اللفظين في النطق مع اختلاف في المعنى، وهذان اللفظان المتشابهان نطقاً، والمختلفان معنى يسميان (ركن الجناس) ولا يشترط في الجناس تشابه جميع الحروف، بل يكفي في التشابه ما نُعرف به المجانسة(٢).

والجناس عند البلاغيين:

تشابه اللفظين في النطق واختلافهما في المعنى كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقۡسِمُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ مَا لَبِثُواْ غَيۡرَ سَاعَةٖۚ﴾ [الروم، آية: ٥٥] فقد اتحد لفظ ﴿ٱلسَّاعَةُ﴾ و﴿سَاعَةٖۚ﴾ نطقاً واختلفا معنى، إذا المراد بالساعة الأولى القيامة، وفي الثانية (المدة الزمنية).

❑ أنواع الجناس:

١- **جناس تام:** وهو ما اتفق فيه اللفظان المتجانسان في أربعة أمور نوع الحروف، وعددها وهيئتها وترتيبها، وهذا يمثل أفضل أنواع النسق

---

(١) ينظر: الصبغ البديعي: ٣٠٧؛ بحوث منهجية: ٤٠٧.

(٢) ينظر: جنان الجناس: ٣٢-٣٣.

البديعي والترتيب السياقي، إذ كلّ لفظة متناسقة في هيئتها حروفها ترتيبها وعددها مما يعطي جمالاً لفظيّاً وإعجازاً وترتيباً في نسقها وصوتها.

٢- **جناس غير تام**: وهو ما اختلف فيه اللفظان المتجانسان في واحد أو أكثر من الأمور المذكورة، وهو أيضاً يقع فيه جمال الترتيب وجمال النسق، ولكن ليس مثل الأول من حيث التقارب والتماثل.

❑ الجناس التام:

وهذا النوع من الجناس ينقسم بدوره إلى ثلاثة أقسام المماثل والمستوفي وجناس التركيب.

أ - **المماثل**: وهو ما اتفقت فيه الكلمتان المتجانستان في نوع الأحرف وعددها وهيئاتها وترتيبها، وكانتا من نوع واحد من أنواع الكلمة سواء أكانا اسمين أو فعلين أو حرفين: ومن أمثلته قوله تعالى: ﴿يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٣﴾ يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ [النور، آية: ٤٣] فالأبصار الأولى جمع بصر وهو النظر، والثانية جمع البصر وهو العقل، فالكلمتان في كلّ آية اختلفتا معنىً واتفقتا نطقاً في نوع الحروف وعددها وهيآتها وترتيبها، وهما اسمان كما لا يخفى، فنلاحظ هنا كمال الانسجام والنسق والترتيب حتى في أداء المعنى صوتيّاً وسياقياً وهذا من روائع ما يحمله هذا الكتاب العظيم.

ومنه أيضاً قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ ۚ﴾ [الروم، آية: ٥٥] فالجناس بين (الساعة) و(الساعة) وهما اسمان وقد ذكرناهما قبل قليل.

ب- **المستوفي**: وهو ما اتفقت فيه الكلمتان في نوع الأحرف وعددها وهيآتها وترتيبها واختلفا في نوع الكلمة، بأن تكون إحداهما فعلاً والأخرى اسماً أو حرفاً، أو إحداهما اسماً والأخرى حرفاً[1].

ومنها قولهم:

فدارهم ما دُمـــت في دارهـــم   وأرضهم ما دُمت في أرضـــهم

فدارهم الأولى فعل أمر من المداراة بمعنى المخاتلة، ودارهم الثاني اسم للبيت، وحيهم الأولى فعل أمر من التحية، وحيهم الثانية هو الحي الاسم.

ج- **جناس التركيب**: وهو ما كان كلّ لفظ من لفظيه مركباً أو أحدهما مركباً. والآخر مفرداً. أو هو ما كان أحد ركنيه كلمة واحدة، والأخرى مركبة مثال ذلك:

إذا مَلِـــكٌ لم يكـــن ذا هبـــةً   فدعـــه فدولتـــهُ ذاهبـــة

فالجناس بين (ذاهبةٍ) وهي كلمة مركبة من (ذا) وهي اسم بمعنى (صاحب) و(هبة) بمعنى (هيبة) وبين (ذاهبة) وهي كلمة مفردة بمعنى: فانية وبائدة وراحلة.

٢- **الجناس غير التام**: هو ما اختلف فيه اللفظان في أحد أو أكثر من الأمور الأربعة المذكورة: وهي: نوع الأحرف وعددها وهيآتها وترتيبها، ويأتي هذا الجناس على أنواع.

أ - **الجناس غير التام**: وهو ما اختلفت فيه الكلمتان في نوع الأحرف[2]، ويشترط ألاّ يقع الاختلاف بأكثر من حرف، فإن كان الحرفان اللذان وقع

---

(١) ينظر: علم البديع: ٢٣٩؛ وبحوث منهجية: ٤١٢.

(٢) ينظر: جنان الجناس: ٤٩.

فيهما الاختلاف متقاربين في المخرج سمي الجناس جناس مضارعة، كما في قوله تعالى: ﴿وَهُمۡ يَنۡهَوۡنَ عَنۡهُ وَيَنۡـَٔوۡنَ عَنۡهُۖ﴾ [الأنعام، آية: ٢٦] ومنه ﴿وَجِئۡتُكَ مِن سَبَإِۭ بِنَبَإٖ يَقِينٍ﴾ [النمل، آية: ٢٢] ومنه: ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٞ ٦ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٞ﴾ [العاديات، آية: ٦-٨].

ب- **الجناس الناقص**: وهو ما اختلف فيه اللفظان في عدد الأحرف، وسمي ناقصاً؛ لأنّ أحد اللفظين ينقص عن الآخر حرفاً أو حرفين، ولا يكون النقصان بأكثر من ذلك ومنه قوله تعالى: ﴿وَٱلۡتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ٢٩ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡمَسَاقُ﴾ [القيامة، آية: ٣٠] فالجناس وقع بين (الساق والمساق) وقد نقصت من الأولى حرفاً، ولكن هذا الانسجام الصوتي والنسق الترتيب أعطى مدلولاً آخر للكلمة ودلالة جديدة غير معناها التشابهي، إذ الأولى (الساق) المعروفة التي يمشي عليها الإنسان وأما الثانية (المساق) فهي أعطت دلالات عديدة منها السوق للقبر والحساب والبرزخ والجزاء هذه الدلالات أضفت زيادة في بعدها الجمالي ونسقها التعبيري، وهذا من روائع كتاب الله.

ج- **الجناس المحرّف**: وهو ما اختلف فيه اللفظان في هيئات الحروف، أي: في الحركات والسكنات، واتفقا فيما عدا ذلك من نوع الأحرف وعددها وترتيبها. ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ٧٢ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُنذَرِينَ﴾ [الصافات، آية: ٧٢][(١)].

د- **جناس القلب**: ويسميه بعضهم (جناس العكس) وهو ما اختلفت فيه الكلمتان في ترتيب الحروف، وهو إما قلب الكل، وذلك إذا جاء أحد

---

(١) ينظر: علم البديع: ٢٤٨؛ وبحوث منهجية: ٤١٢؛ والبلاغة الميسرة: ٦٥١.

اللفظين عكس الآخر في ترتيب حروفه كلها، كما في قوله تعالى: ﴿إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [طه، آية: ٩٤] فالجناس في كلمتي (بيني وبين). وقد اختلفتا في ترتيب الحرفين الأخيرين، وهذا النسق الرائع مع اختلاف ترتيب الحروف لكن لا تجد ثقلاً ولا نفوراً بل على العكس هناك سلاسة في الصوت والأداء. وهذا من روائع الجناس القرآني.

ونجد إنّ بلاغة سياق نسق الجناس هو من خلال التجاوب الموسيقي الصادر عن تماثل الكلمات تماثلاً تامّاً كاملاً أو ناقصاً تطرب له الآذان فتتجاوب مع أصداء تعاطف أبنيتها، وهذا مما يؤكد أهمية الجناس في نسق وإحداث موسيقى داخلية في النص القرآني فضلاً عن النصوص الأدبية الأخرى. وذلك للتواشج والتوافق والترتيب بين سياقات ألفاظه وتناغمها.

وكذلك ما يحدثه من عنصر المفاجأة والدهشة غير المتوقعة في نفسية السامع من خلال التشويق وعدم السآمة والملل من خلال دقة الألفاظ وجمال أسلوبها. وحسن بهائها وروعة صياغتها كلّ ذلك أضفت للنص القرآني إعجازاً فريداً وجديداً من خلال روعة الأساليب والأغراض وتنوعها ودقتها.

❑ السجع:

في اللغة، الكلام المقفى، أو موالاة الكلام على رويّ واحدٍ، وجمعه أسجاع وأساجيع، وهو مأخوذ من سجع الحمام، وسجع الحمام هو هديله وترجيعه لصوته(١).

وفي **اصطلاح البلاغة**: تواطؤ الفاصلتين أو الفواصل على حرفٍ واحدٍ

---

(١) ينظر: لسان العرب: مادة (سجع)؛ والإتقان: ٩٧/٢.

أو على حرفين متقاربين أو حروف متقاربة ويقع في الشعر والنثر وحديثنا عن كتاب الله عز وجل.

فمما تواطأت فيه الفواصل على حرف واحد قوله تعالى: ﴿وَالطُّورِ ۝١ وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ ۝٢ فِي رَقٍّ مَّنشُورٍ﴾ [الطور، آية: ١-٣] ومنه أيضاً: ﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا ۝١ فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا ۝٢ فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا﴾ [العاديات، آية: ١-٣].

ومن التواطؤ على حروف متقاربة قوله تعالى: ﴿ق ۚ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ۝١ بَلْ عَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَٰذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ [ق، آية: ١-٢] فالدال والباء حرفان متقاربان.

ومنه: ﴿وَعَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَٰذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ۝٤ أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ۝٥ وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ۝٦ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَٰذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ﴾ [ص، آية: ٤-٧].

فالباء والدال والقاف حروف متقاربة، وهذا التقارب في المخارج جعل هناك تناسقاً صوتياً في الألفاظ ودقة العبارات وقوة الأداء مما جعل هناك توافقاً في ترتيب المعاني، وجمالاً في روعة الفاصلة القرآنية.

❑ الفقرة والقرينة والفاصلة:

هذه الكلمات تتردد كثيراً في باب السجع وينبغي أن نعرف المراد بكل منهما:

فالفاصلة: هي الكلمة الأخيرة من الفقرة أو القرينة، والفقرة، أو القرينة

بمعنى واحد وهي الجملة التي تنتهي بالفاصلة[1] فمثلاً قوله تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾ [القمر، آية: ١-٢] فالفاصلة في كلمة (القمر) في الآية الأولى (ومستمرٌّ) في الآية الثانية، والقرينة أو الفقرة: الآية كلها كلّ آية فقرة أو قرينة، وهذا من خلال الانسجام الصوتي وسياق قرينتها، وجمال نسقها، وترتيبها حتى أنّ القارئ يجدها لحمة واحدة.

❑ أنواع السجع (الفاصلة):

وللسجع أنواع مختلفة بعضها يكون في النثر والشعر، وبعضها يختص بالشعر، وما يهمنا ما يتعلق بالنص القرآني.

١- **المُطَّرف**: وهو ما اختلفت فيه الفاصلتان أو الفواصل وزناً واتفقت روياً، كما في قوله تعالى: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ۝١٣ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ [نوح، آية: ١٣-١٤] فوزن (وقاراً) يختلف عن وزن (أطواراً) والروي واحد وهو حرف الراء.

٢- **المرصع**: وهو أن يكون ما في إحدى القرينتين من الألفاظ أو أكثره مثل ما يقابله من الأخرى وزناً وتقفيةً. كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ۝١٣ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ﴾ [الانفطار، آية: ١٣-١٤] فالأبرار مثل الفجار ونعيم مثل جحيم وزناً وتقفيةً. ومنه: ﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا ۝١ فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا﴾.

---

(١) ينظر: الفاصلة القرآنية: ٤٢.

٣- **المتوازي:** وهو ما اتفقت فيه الفاصلتان فقط وزناً وتقفيةً، كما في قوله تعالى: ﴿ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ﴾ [الغاشية، آية: ١٣-١٤] فـــ(مرفوعة) و(موضوعة) متفقتان وزناً ورويّاً(١).

فإن اتفقت الفاصلتان في الوزن دون القافية سمي هذا باسم (الموازنة) كقوله تعالى: ﴿وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ﴿١٥﴾ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ﴾ [الغاشية، آية: ١٥-١٦] فلفظتا (مصفوفة ومبثوثة) متفقتان في الوزن لا في القافية، فالأولى على الفاء والثانية على التاء، وهما حرفان متقاربان لا متفقان. وهذا من جميل وروائع التناسق السياقي والصوتي للمفردات في جمالية أداء الفاصلة القرآنية.

ومنه أيضاً: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَـٰطِينَ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴾ [مريم، آية: ٨٣-٨٤] فـــ(أزّاً وعدّاً) اتفقتا وزناً واختلفتا قافيةً، فإن كان ما في إحدى القرينتين من الألفاظ أو أكثر ما فيهما مثل ما يقابله من الأخرى في الوزن دون القافية خُصّ باسم المماثلة كقوله تعالى: ﴿ وَءَاتَيْنَـٰهُمَا ٱلْكِتَـٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾ وَهَدَيْنَـٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ [الصافات، آية: ١١٧-١١٨].

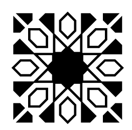
وهذا التناسب والتناسق الرائع لا تجده في كتاب غير كتاب الله؛ إذ التناسق الصوتي والكلمي والسياقي والترتيبي موجود في هذه الفواصل وجميع آيات كتاب الله، وهذا من كمال إعجاز القرآن الكريم.

إنّ من مزايا السجع في النظم الكريم شدة ارتباط الفاصلة وتماسكها بما

---

(١) ينظر: علم البديع: ٢٥٣؛ والفاصلة القرآنية: ٢٨١؛ والبيان في تناسب سور القرآن: ٢٨١.

قبلها من الكلام بحيث تنحدر على الأسماع انحداراً، وكأنّ ما سبقها لم يكن إلاّ تمهيداً لها بحيث لو حذفت لاختل معنى الكلام، ولو سكت عنها لاستطاع السامع أن يختمه بها انسياقاً مع الطبع والذوق السليم، ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴾ [النجم، آية: ١٩-٢٢] نجد إنّ كلمة (ضيزى) الواقعة في الفاصلة تتماسك مع المعنى وتنحدر على الأسماع وتنساق مع السياق انسياقاً تامّاً، وهي لفظة غريبة؛ ولكنَّ غرابتها من أشد الأشياء ملاءمة لغرابة تلك القسمة التي أنكرها النظم الكريم، وذلك هو شأن الفواصل في جميع آي الذكر الحكيم. وهذا من روائع النسق في سياق الفاصلة القرآنية وهو من إعجاز القرآن الكريم الصوتي الذي يأخذ بالألباب ويبعث الطمأنينة في نفس المتلقي. وهو من روائع النسق القرآني.



الخاتمة

بعد هذا التطواف الممتع في رحاب كتاب الله العزيز وفي موضوع جديد نقف مع أبرز النتائج التي توصّل إليها بحثنا العلمي في موضوع البيان في سياق بلاغة النسق القرآني ويمكن إجمالها على النحو الآتي:

❖ إنّ القرآن الكريم قد حوى في جميع آياته نسقاً عجيباً وترتيباً رائعاً وسياقاً مميزاً يجده القارئ والمتفحص لكتاب الله بوضوح، إذ لا تخلو آية وسورة من هذا التناسب والتناسق كأنَّها رُتِّبت وصُفَّت بدقة متناهية كيف لا وهو كتاب الله العزيز الحكيم.

❖ أثبت البحث أنّ هناك فرقاً بين النسق القرآني الذي هو يكاد يكون شاملاً في جميع القرآن من حيث الترتيب والسلاسة والوضوح وبين المناسبة والسياق، إذ لا يظهر السياق إلاّ مع قرينة تدل عليه، وكذا المناسبة؛ إذ لا تكون في جميع القرآن الكريم.

❖ للنسق القرآني أثراً جمالياً في وضوح أساليب البلاغة العربية عامة والقرآنية خاصة من خلال علاقته بالسياق العام وسياق الموقف والحال والمقام.

❖ أثبتت الدراسة أنّ علوم البلاغة الثلاثة المعاني والبيان والبديع اختلفت فيها مقامات النسق وجمالياته؛ وكان لعلمي المعاني والبديع حظّاً أوفر من علم البيان. وسبب ذلك أنّ الجانب التركيبي لعلم المعاني وما يتعلّق به من اختيارات لفظية وسياقات مقامية هو مما جعله يكون في الريادة. وأما في علم البديع فكان حضور النسق الصوتي وسياقه الدلالي هو مما جعله يكون أيضاً أكثر حظّاً واستعمالاً من علم البيان.

❖ كشفت الدراسة على إبراز النسق القرآني وعلاقاته البلاغية من خلال تداخل وتنوع الأغراض التي خرج إليها وكان النسق الصوتي هو المهيمن على جميع الأغراض وبدوره انعكس على كشف مكامن الإعجاز القرآني صوتيّاً وسياقيّاً.

❖ توصّلت الدراسة إلى أنّ تناول النسق القرآني وبلاغته الجمالية استوفى جميع التعابير والتقسيمات البلاغية من خلال روعة التصوير وجمال التعبير، كيف لا وهو من عند العزيز الخبير.

❖ توصّلت الدراسة إلى أنّ سر الكلمة والمفردة والفقرة كان لها الحضور الفاعل والمجال الأوسع في البحث ويرجع ذلك كله إلى جمال الاختيار ودقة وترتيب العبارة، وهذا يجعلها في غاية الإعجاز وروعة البيان.

❖ أثبتت الدراسة أنّ علم البديع وما يتعلق به من سياقات صوتية تخص المحسنات المعنوية واللفظية تكاد تكون متقاربة في أنساقها وبلاغة مستوياتها، وهذا راجع إلى سرّ إعجازها الصوتي والترتيبي لتقارب العبارات في مخارجها وحروفها.

❖ توصّلت الدراسة أنّ أعلى نسب التناسب السياقي هو ما وقع في الجناس وأنواعه والفاصلة القرآنية، وهذا يعود في اللفظة وترتيب حروفها ونسق صوتها ودلالاتها التعبيرية وما يطرأ عليها من قلب وتقديم وتأخير في حروفها مما يجعل النسق الصوتي هو الشائع كثيراً في دلالاتها التعبيرية.

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

المصادر والمراجع

❖ القرآن الكريم.

١. الإتقان في علوم القرآن، جلال الدين السيوطي (ت٩١١هـ)، تحقيق: الهيئة المصرية العامة للكتاب، د.ط، ١٣٩٤هـ-١٩٧٤م.

٢. أخطاء اللغة العربية المعاصرة عند الكتّاب، أحمد مختار عبد الحميد عمر (ت٢٠٠٣م)، عالم الكتب، بيروت، ط١، د.ت.

٣. أرشيف ملتقى أهل التفسير، ٢٠١٠م، http://tafsir.net.

٤. أرشيف ملتقى أهل الحديث: http://tafsir.net.

٥. أرشيف منتدى الفصيح- ٣، رابط الموقع: http://www.alfaseeh.com.

٦. أرشيف منتدى الفصيح- ٣، من الشاملة / رابط الموقع: http://www.alfaseeh.com.

٧. الأساس في التفسير، سعيد حوى، دار السلام – القاهرة، ط٥، ١٩٩٩م.

٨. أسس علم اللغة، أحمد مختار عمر، عالم الكتب، ط٨، ١٤١٩هـ-١٩٩٨م.

٩. أصول النظرية السياقية الحديثة عند علماء العربية، محمد سالم صالح، أستاذ بكلية المعلمين- جدّة، ط١، ٢٠٠٨م.

١٠. إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، مصطفى صادق الرافعي، دار الكتاب العربي- بيروت، ط٨، ١٤٢٥هـ-٢٠٠٥م.

١١. إعجاز القرآن، للباقلاني، تحقيق: محمد شريف سكر، دار إحياء العلوم- بيروت، ط٣، ١٩٩٤م.

١٢. الإمام في بيان أدلة الأحكام، أبو محمد عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام (ت٦٦٠هـ)، تحقيق: رضوان مختار بن غربية، دار البشائر الإسلامية- بيروت، ط١، ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م.
١٣. الانتصار للقرآن، محمد بن الطيب الباقلاني، تحقيق: محمد عصام القضاه، دار الفتح- عمان، ط١، ١٤٢٢هـ-٢٠٠١م.
١٤. أنوار الربيع في أنواع البديع، ج١، علي بن معصوم المدني، تحقيق: شاكر هادي، ط١، العراق- بغداد، ١٩٦٨م.
١٥. أنوار الربيع في أنواع البديع، صدر الدين المدني، علي بن أحمد المعروف بعلي خان (ت١١١٩هـ)، د.ن، د.ط، د.ت.
١٦. البحر المحيط في التفسير، أبو حيان بن يوسف بن علي بن حيان الأندلسي (ت٧٤٥هـ)، تحقيق: صدقي محمد جميل، دار الفكر – بيروت، د. ط، ١٤٢٠هـ.
١٧. بحوث في اللغة، اتحاد كتاب العرب (مستورد من الشاملة).
١٨. بحوث منهجية في علوم البلاغة العربية، ابن عبد الله أحمد شعيب، دار ابن حزم، بيروت- لبنان، ط١، ٢٠٠٨م.
١٩. بدائع الفوائد، محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن قيم الجوزية (ت٧٥١ هـ)، تحقيق: هشام عبد العزيز وآخرون، مكتبة نزار مصطفى الباز- مكة المكرمة، ط١، ١٤١٦هـ-١٩٩٦م.
٢٠. بديع القرآن، لابن أبي الإصبع المصري، تحقيق: د. حفني محمد شرف، مطبعة الرسالة، القاهرة، مصر، ط١، ١٣٧٧هـ.

٢١. البرهان في علوم القرآن، أبو عبد الله بدر الدين الزركشي (ت٧٩٤ هـ)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، ط١، ١٣٧٦هـ-١٩٥٧م.

٢٢. البرهان في علوم القرآن، بدر الدين الزركشي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة، ط١، ١٩٥٧م.

٢٣. البرهان في علوم القرآن، بدر الدين الزركشي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعرفة- بيروت، د.ط، د.ت.

٢٤. البلاغة الاصطلاحية، أ. د. عبدة عبد العزيز قلقيلة، دار الفكر العربي، مصر، ط٤، ٢٠٠١م.

٢٥. البنية الأسلوبية في التراكيب النحوية، مهدي حمد مصطفى عبد الله العاني، أطروحة دكتوراه / كلية الآداب، جامعة بغداد، بإشراف: هدى محمد صالح الحديثي، ١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م.

٢٦. بيان المختصر شرح مختصر ابن الحاجب، محمود بن عبد الرحمن الأصفهاني (ت٧٤٩هـ)، تحقيق: حمزة مظهر بقا، دار المدني – السعودية، ط١، ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م.

٢٧. تاج العروس، محمد بن محمد بن عبد الرزاق الزبيدي (ت١٢٠٥هـ)، تحقيق: مجموعة من المحققين، دار الهداية، د.ط، د.ت.

٢٨. التبيان في البيان، شرف الدين الحسين محمد بن عبد الله الطيبي (ت٧٤٣هـ)، علّق عليه: د. يحيى مراد، منشورات دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ط١، ٢٠٠٤م.

٢٩. تحرير التحبير، ابن أبي الإصبع المصري، المجلس الأعلى، مصر، تحقيق: د. حفني محمد شرف، ط١، ١٣٨٣هـ.
٣٠. التصوير البياني في المشاهد الكونية القرآنية دراسة في الأنماط والوظائف، د. حميد جفات الجبوري، أطروحة دكتوراه، جامعة ديالى، ٢٠١٥م.
٣١. التصوير الفني في القرآن، سيد قطب، دار الشروق- بيروت، ط٨، ١٩٨٣م.
٣٢. التعريفات، علي بن محمد بن علي الجرجاني (ت٨١٦هـ)، دار الكتب العلمية- بيروت، ط١، ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م.
٣٣. تفسير ابن جزي، أبو القاسم، محمد بن أحمد ابن جزي الكلبي (ت٧٤١هـ)، تحقيق: عبد الله الخالدي، دار الأرقم- بيروت، ط١، ١٤١٦هـ.
٣٤. تفسير ابن كثير، عماد الدين إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة- السعودية، ط٢، ١٤٢٠هـ-١٩٩٩م.
٣٥. تفسير الثعلبي، أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي (ت٤٢٧هـ)، تحقيق: أبي محمد بن عاشور، دار إحياء التراث العربي- بيروت، ط١، ١٤٢٢هـ-٢٠٠٢م.
٣٦. تفسير الجلالين، جلال الدين محمد بن أحمد المحلّي، وجلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، دار الحديث – القاهرة، ط١.
٣٧. تفسير القرآن العظيم، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير (ت٧٧٤هـ)، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة، ط٢، ١٤٢٠هـ-١٩٩٩م.

٣٨. تفسير القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، أبو عبد الله القرطبي، دار الكتب العلمية- بيروت، د.ط، د.ت.
٣٩. تفسير المنار، محمد رشيد بن علي رضا (ت١٣٥٤هـ)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٠م.
٤٠. تلخيص المفتاح في المعاني والبيان والبديع، للخطيب القزويني: جلال الدين محمد بن عبد الرحمن، كتب حواشيه وقدّم له: د. ياسين الأيوبي، المكتبة العصرية، بيروت- صيدا، ط١، ٢٠٠٢م.
٤١. التلخيص، عبد الملك بن عبد الله بن يوسف الجويني، أبو المعالي، إمام الحرمين (ت٤٧٨هـ)، تحقيق: عبد الله جولم النبالي وبشير أحمد العمري، دار البشائر الإسلامية- بيروت، د.ط، د.ت.
٤٢. تهذيب اللغة، محمد بن أحمد بن الأزهري (ت٢٧٠هـ)، تحقيق: محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي- بيروت، ط١، ٢٠٠١م.
٤٣. التيسير في قواعد علم التفسير، الكافيجي محي الدين محمد بن سليمان (ت٨٧٩هـ)، تحقيق: د. مصطفى محمد حسين الذهبي، مكتبة القدسي، ط١، ١٩٩٨م.
٤٤. جامع البيان، محمد بن جرير الطبري (ت٣١٠هـ)، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة- بيروت، ط١، ١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م.
٤٥. جدلية السياق والدلالة في اللفظة العربية النص القرآني أنموذجاً، سيروان عبد الزهرة الجنابي وحيدر جبار عيدان، بحث مقدم من كلية الآداب / جامعة الكوفة، العدد التاسع، ٢٠٠٨م.

٤٦. الجدول في إعراب القرآن الكريم، محمود بن عبد الله بن عبد الرحيم الصافي (ت١٣٧٦هـ)، دار الرشيد- دمشق، ط٤، ١٤١٨م.
٤٧. جماليات السياق القرآني وتجلياته في الدرس البلاغي، أ. د. عقيد خالد العزاوي، دار العصماء، دمشق، ط١، ٢٠١٤م.
٤٨. الجملة العربية والمعنى، فاضل صالح السامرائي، دار ابن حزم، ط١، ٢٠٠٠م.
٤٩. جنان الجناس في علم البديع، لأبي الصفاء صلاح الدين الصفدي، قدّم له وشرحه: د. صلاح الدين الهوّاري، المكتبة المصرية، بيروت – صيدا، ط١، ٢٠٠٩م.
٥٠. خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية، عبد العظيم إبراهيم (ت١٤٢٩ هـ)، مكتبة وهبة، ط١، ١٤١٢هـ-١٩٩٢م.
٥١. دراسات في أساليب القرآن، محمد عبد الخالق عضيمة، دار الحديث، القاهرة، ط٣، ٢٠٠٧.
٥٢. دراسات في علم اللغة، كمال بشر، دار غريب، مصر، ط٢، ٢٠٠٢م.
٥٣. دراسات في فقه اللغة، صبحي إبراهيم الصالح (ت١٤٠٧هـ)، دار العلم للملايين، ط١، ١٣٧٩هـ-١٩٦٠م.
٥٤. دلائل الإعجاز، أبو بكر عبد القاهر الجرجاني، تحقيق: محمد التنجي، دار الكتاب العربي- بيروت، ط١، ١٩٩٥م.
٥٥. دلالات الظاهرة الصوتية في القرآن الكريم، خالد قاسم بن دومي، عالم الكتب الحديث- الأردن، ٢٠٠٦م.

٥٦. دلالة السياق، ردة الله بن ردة بن ضيف الله، جامعة أم القرى – مكة المكرمة، ط١، ١٤٢٤هـ.
٥٧. الدلالة الصوتية والصرفية في سورة يوسف، نادية رمضان النجار، نشر بكتاب المؤتمر العلمي التاسع لكلية دار العلوم، عنوان الكتاب الإبداع والحرية في الثقافة العربية الإسلامية، عام ٢٠٠٧م.
٥٨. زاد المسير في علم التفسير، أبو الفرج بن الجوزي، دار الفكر، د.ط، د.ت.
٥٩. السياق والمعنى، عرفات فيصل المنّاع، مؤسسة السياب- لندن، ط١، ٢٠١٣م.
٦٠. شرح التلويح على التوضيح، سعد الدين مسعود بن عمر التفتازاني (ت٧٩٣هـ)، مكتبة صبيح- مصر، د.ط، د.ت.
٦١. شرح تنقيح الفصول، أبو العباس شهاب الدين أحمد بن إدريس القرافي (ت٦٨٤هـ)، تحقيق: طه عبد الرؤوف سعد، شركة الطباعة الفنية المتحدة، ط١، ١٣٩٣هـ-١٩٧٣م.
٦٢. الصبغ البديعي: د. أحمد موسى، دار الكتاب العربي، مصر، ط١، ١٣٨٨هـ.
٦٣. صحيح مسلم، الإمام مسلم بن الحجاج، دار الكتب العلمية – بيروت، ط٢، ١٩٩٢م.
٦٤. الصورة البيانية بين البلاغة والنقد، أحمد بسام ساعي، المنارة للطباعة والنشر- دمشق، ط١، ١٩٨٤م.

٦٥. علم البديع دراسة تاريخية وفنية لأصول البلاغة ومسائل البديع، د. بسيوني عبد الفتاح فيود، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، مصر الجديدة، ط٢، ٢٠٠٨م.

٦٦. علم الدلالة العربية النظرية والتطبيق، فايز الداية، دار الفكر، بيروت، ط٢، ٢٠١٠.

٦٧. علم اللغة مقدمة للقارئ العربي، محمد السعران، دار الفكر العربي – القاهرة، ط٢، ١٩٩٧م.

٦٨. العين، لأبي عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت١٧٠هـ)، تحقيق: مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال، د.ط، د.ت.

٦٩. غرائب القرآن ورغائب الفرقان، نظام الدين الحسن بن محمد بن حسين القمي النيسابوري تحقيق: الشيخ زكريا عميران، دار الكتب العلمية- بيروت، ط١، ١٤١٦هـ-١٩٩٦م.

٧٠. فصول في علم الدلالة، فريد عوض حيدر، مكتبة الاداب للطباعة والنشر، مصر، (د.ت).

٧١. الفنون البديعية ودلالاتها في الحديث النبوي الشريف دراسة في متن صحيح البخاري، الباحث أحمد شكر محمد مهاوش، الجامعة الإسلامية، بغداد، كلية الآداب، ٢٠٠٧م.

٧٢. في النص الأدبي، دراسة أسلوبية إحصائية، سعد مصلوح، المكتبة العربية، بيروت، ط٢، ٢٠٠٦.

٧٣. في ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق، ط٩، ١٤٠٠هـ-١٩٨٠م.

٧٤. قواعد التدبّر الأمثل لكتاب الله ﷻ، عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، دار القلم- دمشق، ط٢، ١٩٨٩م.
٧٥. الكشاف، الزمخشري، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي، مؤسسة التاريخ العربي- بيروت، ط١، ١٩٩٧م.
٧٦. الكليات، أيوب بن موسى الكفوي الحنفي (ت١٠٩٤هـ)، تحقيق: عدنان درويش- محمد المصري، مؤسسة الرسالة- بيروت، د.ط، د.ت.
٧٧. لسان العرب، محمد بن مكرم بن علي ابن منظور (ت٧١١م)، دار صادر- بيروت، ط٣، ١٤١٤هـ.
٧٨. اللغة العربية معناها ومبناها، تمام حسان عمر، عالم الكتب، ط٥، ١٤٢٧هـ-٢٠٠٦م.
٧٩. اللغة والمعنى والسياق، جون لاينز، ترجمة: عباس صادق، دار الشؤون الثقافية — بغداد، ط١، ١٩٨٧م.
٨٠. اللغة وعلم اللغة، جون ليونز، دار النهضة العربية، ط١.
٨١. اللغة، جوزيف فندريس، تعريب: عبد الحميد الدواخلي- ومحمد القصاص، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٥٠م.
٨٢. مباحث في التفسير الموضوعي، د. مصطفى مسلم، دار القلم- دمشق، ط١، ١٩٨٩م.
٨٣. المتشابه اللفظي في القرآن ومسالك توجيهه عند أبي جعفر بن الزبير القرناطي، رشيد الحمداوي، مكتبة أولاد الشيخ للتراث، د.ط، ٢٠٠٣م.

٨٤. مجمل اللغة، لابن فارس بن زكريا الرازي (ت ٣٩٥هـ)، تحقيق: زهير عبد المحسن سلطان، مؤسسة الرسالة- بيروت، ط٢، ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م.
٨٥. مجموع الفتاوى، تقي الدين أبو العباس أحمد بن الحليم بن تيمية الحراني (ت٧٢٨هـ)، تحقيق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، مجمع الملك فهد- المدينة المنورة، د.ط، ١٤١٦هـ-١٩٩٥م.
٨٦. المحكم والمحيط الأعظم، أبو الحسن علي بن إسماعيل المرسلي (ت٤٥٨ هـ)، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية- بيروت، ط١، ١٤٢١هـ-٢٠٠٠م.
٨٧. مختار الصحاح، أبو بكر الرازي، مكتبة لبنان- بيروت، د.ط، ١٩٨٧م.
٨٨. مدخل إلى القرآن الكريم، محمد عبد الله دراز، دار القلم- الكويت، د.ط، د.ت.
٨٩. المدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث اللغوي، رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي- القاهرة، ط٣، ١٤١٧هـ-١٩٩٧م.
٩٠. مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السورة، برهان الدين البقاعي، تحقيق: عبد السميع محمد أحمد حسنين، مكتبة المعارف- الرياض، ط١، ١٩٨٧م.
٩١. معاني النحو، د. فاضل السامرائي، بيت الحكمة- بغداد، د.ط، ١٩٨٦-١٩٨٧م.
٩٢. معترك الأقران في إعجاز القرآن، السيوطي، ضبط وتصحيح: أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية- بيروت، ط١، ١٩٨٨م.

٩٣. معجم العين، أبو عبد الرحمن بن خليل الفراهيدي، تحقيق: د. مهدي المخزومي ود. إبراهيم السامرائي، مؤسسة دار الهجرة، بيروت، ط١، د.ت.

٩٤. معجم اللغة العربية المعاصرة، أحمد مختار عبد الحميد عمر (ت١٤٢٤ هـ)، بمساعدة فريق عمل، عالم الكتب، ط١، ١٤٢٩هـ-٢٠٠٨م.

٩٥. المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية بالقاهرة، إبراهيم مصطفى وأحمد الزيات وآخرين، دار الدعوة، د.ط، د.ت.

٩٦. معجم علم اللغة النظري، محمد علي الخولي، د.ن، د.ط، د.ت.

٩٧. معجم لغة الفقهاء، محمد رواس قلعجي وحامد صادق قنيبي، دار النفائس، ط٢، ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م.

٩٨. معجم مقاييس اللغة، أحمد بن فارس، تحقيق: د. عبد السلام محمد هارون، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ط١، ١٣٦٦هـ.

٩٩. مفهوم التفسير، مساعد بن سليمان بن ناصر الطيار، دار ابن الجوزي – السعودية، ط٢، ١٤٢٧هـ.

١٠٠. مقاييس اللغة، أحمد بن فارس بن زكريا القزويني الرازي (ت٣٩٥ هـ)، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، د.ط، ١٣٩٩هـ-١٩٧٩م.

١٠١. ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل، أبي جعفر بن الزبير، تحقيق: سعد الفلاح، دار الغرب الإسلامي- بيروت، ط١، ١٩٨٣م.

١٠٢. من بلاغة القرآن، أحمد أحمد بدوي، دار نهضة مصر- القاهرة، ١٩٥٠م.

١٠٣. مناهج البحث في اللغة، تمام حسان، مكتبة الأنجلو- مصر، ط، د.ت.

١٠٤. مناهج في تحليل النظم القرآني، منير سلطان، دار المعارف- الإسكندرية، ٢٠١١م.

١٠٥. منهاج البلغاء وسراج الأدباء، حازم القرطاجني، تحقيق: محمد الحبيب ابن الخوجة، دار الغرب الإسلامي- بيروت، ط٣، ١٩٨٦م.

١٠٦. المنهج السياقي وأثره في تطوير دراسات التفسير، عادل رشاد غنيم، المؤتمر الدولي لتطوير الدراسات القرآنية، ١٤٣٤/٤٦هـ-٢٠١٣م، جامعة الملك سعود- المملكة العربية السعودية.

١٠٧. الموافقات، إبراهيم بن موسى الشاطبي (ت٧٩٠هـ)، تحقيق: أبو عبيدة مشهور بن حسن دار عفان، ط١، ١٤١٧هـ-١٩٩٧م.

١٠٨. النبأ العظيم، نظرات جديدة في القرآن، محمد عبد الله دراز، دار القلم- الكويت، ط٢، ١٩٧٠م.

١٠٩. النسق القرآني، دراسة أسلوبية، محمد ديب الباجي، دار القبلة للثقافة الإسلامية- جدّة، ط١، ١٤٣١هـ-٢٠١٠م.

١١٠. نظرات في قصص القرآن، محمد قطب عبد العال، دار مصر للنشر، ط١، ١٩٨٨.

١١١. نظرية السياق القرآني، المثنى عبد الفتاح محمود، دار وائل للنشر، ط١، ١٤٢٩هـ-٢٠٠٨م.

١١٢. نظرية السياق دراسة أصولية، نجم الدين قادر كريم الزنكي، دار الكتب العلمية- بيروت، ط١، ص٢٠٠٦م.
١١٣. نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، برهان الدين البقاعي، توزيع مكتبة ابن تيمية، ط١، ١٩٦٩م.
١١٤. النهاية في غريب الحديث والأثر، مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد ابن الأثير (ت٦٠٦هـ)، تحقيق: ظاهر أحمد الزاوي- محمود الطناحي، المكتبة العلمية- بيروت، د.ط، ١٣٩٩هـ-١٩٧٩م.

✓ **الرسائل الجامعية والأطاريح:**

١١٥. دلالة السياق القرآني في تفسير أضواء البيان، للعلاّمة الشنقيطي (رسالة ماجستير)، أحمد لافي فلاح المطيري الجامعة الأردنية، ٢٠٠٧م.
١١٦. دلالة السياق وأثرها في التفسير، عبد الرحمن سرور جرمان المطيري، (رسالة ماجستير)، السعودية، جامعة أم القرى، كلية الدعوة وأصول الدين، ١٤٢٩هـ-٢٠٠٥م.
١١٧. ظواهر أسلوبية وفنية في سورة النحل، أسامة عبد الملك إبراهيم عثمان، رسالة ماجستير، جامعة النجاح الوطنية / كلية الآداب / قسم اللغة العربية.

✓ **المجلات والدوريات:**

١١٨. وحدة النسق في السورة القرآنية، رشيد الحمداوي، مجلة معهد الإمام الشاطبي للدراسات الإسلامية، العدد الثالث، ١٤٢٨هـ.
١١٩. مجلة الإحياء- المغرب، العدد ٢٥، ١٤٢٠هـ-٢٠٠٧م، أثر السياق في فهم النص القرآني، عبد الرحمن بو درع.

المحتويات